

الألف كتاب
الثاني
٢٠٧

رحلة الأمير رودلف إلى الشرق

الجزء

د. عبد الرحمن

رحلة..
الأمير ردولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

رحلة..
الأمير ردولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الجزء الثاني

لصاحب السمو الإمبراطوري والملكي

الأمير ردولف

ترجمة ودراسة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الفهـــرس

مقـــدمة المترجم

يتابع الأمير ردولف — وصحبه — رحلته في هذا الجزء فيصل الى أسيوط ومنها يتابع رحلته النيلية الى أسوان وجزيرة فيله ، وفي رحلة العودة يزور ما لم يكن قد زاره في رحلة الذهاب بمعنى أن عودته ليست عودة تقليدية لشخص أدى مهمته وانتهى ، وانما نجده يزور مناطق لم يزرها من قبل مثل كوم الأمير وأرمنت ، ويتابع زيارته للأقصر وقنا وسوهاج ، وحتى عندما يعود للقاهرة يحدثنا من جديد عن مشاهداته فيها : حديقة الأزبكية ، مولد الحسين ، ويقوم برحلة صيد للهرم ٠

ويتابع رحلته لشرق الدلتا فيزور بحيرة المنزلة ودمياط والاسماعيلية وبور سعيد ويلتقي بفردناند دى ليسبس المشهور وكان وقتها رجلا عجوزا على حد وصف الأمير ردولف ويعبر قناة السويس فيزور عيون موسى ، ويعود مرة أخرى للقاهرة فيحدثنا عن شجرة مريم ومزرعة النعام والحمام التركي والقلعة والكتبخانة ويتجه بباخرة نيلية للقناطر الخيرية ، ثم يعود لمنطقة السويس ، ويزور بور سعيد ، ثم يغادر مصر الى يافا ٠

وقد خصصنا مقدمة الجزء الأول لتكون دراسة مفصلة نسبيا عن الرحلة كلها ، أما في الجزء فنكتفي بايراد بعض النقاط ٠

تعقيد الأمور في الشرق :

لاحظ ردولف — كما لاحظ رحالة آخرون سبقوه أو أتوا بعده — أن الأمور أو الأعمال لا تجري في الشرق (ومصر شرق) بسهولة « ٠٠ فليس في الشرق عمل سهل فكل شخص يضغط طلبا للخدمات ، وكل شخص يحث حصانه أو حماره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدفع الآخر لينحيه جانبا ٠٠ والكل يصرخ ٠٠ والكل يومىء ٠٠ ويضطر الغريب البائس في خاتمة المطاف لالقاء نفسه بين ذراعى أول قادم » ٠

الرقص الشرقي :

يصف الرقص الشرقي في صعيد مصر بأنه عربدة تعود لخيال مريض ·

البرود الانجليزي :

أشار ردولف الى أنه أثناء ابحاره في قناة السويس اصطدمت سفينته اصطداما خفيفا بسفينة انجليزية والتصقت السفينتان ، ولكن القبطان الانجليزي ظل ينظر من فوق سطح سفينته متابعا تتابع الموج ،وكان الامر لا يعنيه بينما راح الرجال الراكبون مع ردولف يوسعون ما بين السفينتين ·

القناطر الخيرية :

وقد شاهد الأمير ردولف القناطر الخيرية ونقل ما كان يتردد عن هذا المشروع العظيم في ذلك الوقت من أنه أعاق الملاحة في النيل ، وأن مردوده الاقتصادى لا يتناسب مع المبالغ التي تم انفاقها عليه · وغني عن البيان أن هذه الآراء كان يرددها أعداء مصر وأعداء محمد على ، خاصة وأن الذي كان يتولى أمر مصر - زمن الرحلة - هو الخديو اسماعيل ، الذي كان يترسم بوضوح خطى جده العظيم ·

الطرق الصوفية :

الطرق الصوفية لم يعرفها الاسلام في عصوره النقية الزاهرة الأولى ، وكان معظم الدراويش الذين رآهم الأمير من أهل شرق أوربا وآسيا الصغرى ، ورأى في بعض عمائمهم وطقوسهم تأثيرات فارسية ·

ولا نجد أى اعتراض على قوله ان الاسلام في عصوره الزاهرة الأولى لم يعرف الطرق الصوفية ·

د· عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصـــل الـــرابع

أسيوط ـ أبو تيج ـ بركات الشيخ ـ أخميم ـ جرجا ـ الوكيل القنصـــلي القبطي ـ موسيقا ورقص ـ البلينة ـ العرابة المدفونة ـ بقايا جثث الجيش الروماني ـ تاجر آثار أعمى ـ قنا ـ معبد دندرة ـ طيبة ـ آثار الكرنك العظيمة ـ العبابدة ـ أرمنت ـ ترجمة برجش لبعض النصوص الأثرية ـ اسنا ـ الكاب ـ معبد كوم امبو ـ جزيرة فيلة ـ أسوان ـ العبابدة في أسوان ـ الذئب الميت يتحرك من جديد ـ رسوم بوسنجر ـ تعليقات المترجم ٠

وصلنا أسيوط فى الصباح الباكر والظلمة لازالت حالكة ، ولم نكن سعداء لانهم أيقظونا من نوم مريح ، وغادرنا الحافلات وسرنا على الأقدام ـ يسبقنا حملة المشاعل ـ هابطين فى طريق جيدة اضاءته ، حسنة زينته، حتى وصلنا لمرسى البواخر النيلية ٠ وقد قابلنا وكيلنا القنصـــلى بود وحرارة ، وهو تاجر قبطى ثرى ، وكان هو الذى أعد كل هذه الترتيبات ٠

لقد تفضل الخديو فأعارنا الباخرة فيروز Feruz التى رست على الشاطىء وانتظرنا قبطانها المصرى العجوز على الجسر الموصل لها ٠

لقد نما فى نفوسنا حب هذا القبطان المصرى النشيط والمقتدر ٠ لقد كان أفريقيا داكن البشرة ، ولسوء حظنا فانه كان لا يعرف الا كلمات انجليزية قليلة بالاضافة للغات الشرقية ، لذا فقد كان نقاشنا معه مضحكا ذا طابع فكاهى فقد كنا نستعين بالمترجمين أحيانا وبالاشارات ـ التى ابتكرناها للتعبير عن مرادنا ـ أحيانا أخرى ٠

وقد صحبنا برجش باشـــا Brugsch Pasha (١) عالم المصريات الشـــهير فى رحلتنا صـــاعدين فى النيل ، وقد جلس مع الهر راث Herr Rath (المساعد القنصلى ودارس الشرقيات الذى كنا مدينين

له كثيرا بكل جولاتنا فى بلاد الشرق) على سطح يخت نائب السلطان viceroy (الخديو) وهو يخت ضخم فخم مؤثث بكل ما هو مريح ·

لقد كانت الكبائن كلها فى الغاية من الأناقة ، وقد تم تخصيص الغرفة الأخيرة الواسعة لى ، والى الأعلى — على سطح اليخت — توجد غرفة طعام رحبة كنا نقضى فيها أيضا فترة ما قبل الظهيرة كما كنا نقضى فيها ساعات للدراسة ·

وعلى سطح اليخت أيضا منصة (منبسط مدرج) مغطاة بالكنافاه Canvas تمكن المرء أن يلقى نظـرة أكثر شـــمولا ، وقد وضـــعنا جلود الحيوانات التى صدناها وكذلك الطيور فوق سطح اليخت وقد أعددنا ورشة مزودة بكل ما يتعلق باعداد الجلود ·

فى هذا اليخت الرائع كان علينا أن نقضى أياما لا يمكن أن تنسى ، فقد رأينا على ضفتى هذا النهر التاريخى العريق ذى المياه الصفراء أراضى لازالت عليها بقايا الجاذبية الساحرة لآلاف السنين من الحضارة القديمة ، بين مناظر فى الغاية من الروعة والجمال ، جبال شامخة وصحار مهيبة وبساتين عامرة ، وأقدم الآثار فى تاريخ العالم لازالت باقية لتعطى ذروة معانى البقاء والخلود ·

ان الرحلة فى النيل — بلا شك — هى من أفضل وأجمل الرحلات التى يمكن أن يقوم بها المرء ، فهى الأثرى من حيث تنوع المناظر وهى الأكثر اثارة للقضـــايا التاريخيـــة والاثنوجرافيا (المتعلقة بالانثروبولوجيـــا الوصفية) · واذا كانت أهرامات الجيزة والآثار المحيطة بها فى القاهرة تشد اهتمام الرحالة وتثير فى ذهنـــه كثيرا من القضايا ، فانها — أى الأهرامات — مجرد بوابة للكنوز الأثرية التى يقدمها صعيد مصر ·

لقد نظرنا الى السجلات الباقية للحياة الاجتماعية والسياسية لشعب انتعشت حضارته منذ آلاف السنين ، فحقق لنفسه القوة ، وأفرز ثقافة حقيقية · وقد تمثلت لنا هذه السجلات الباقية فى صالات المعابد الواسعة وفى السراديب الغامضة والقبور الممتدة فى الصخور · تعال معى لتنظر الى الجدران التى تزينها الكتابات الهيروغليفية التى تكشف لنا حكـــاية العصور الفرعونية ·

وعند شروق الشمس ، بدأنا الرحلة عندما حضر المرافقون وتم تحميل أمتعتنا · لقد استمر النيل جميلا هادئا — كما كان قبل ذلك خلال الرحلة ، فقد كانت مياهه الصفراء تتهادى فى مجراه الواسع ببطء ، وكانت الأرض

على ضفتيه مستوية وتمتد الرمال بعيدا ، أما شاطئاه المرتفعان فمن تربة سوداء ثرية تكثر فيها المضخات والسواقى متعاقبة يتلو بعضها بعضا على نحو منتظم جميل ٠

وتشكل جبال شبه الجزيرة العربية الداكنة ، وجبال ليبيا البرتقالية بشموخها وجمالها شخصية الصحراء القاحلة تماما ٠ انهما ـ جبال شبه الجزيرة العربية وجبال ليبيا (*) ـ تقتربان اقترابا شديدا ـ فى كثير من المواضع ـ من مجرى النهر ٠

ثم تتراجع هذه الجبال مرة أخرى عن المجرى تاركة أحواضا واسعة جافة ٠ ويرى المرء خلال صعيد مصر كله تتابعا منتظما للممرات الضيقة من ناحية والسهول الواسعة من ناحية أخرى ٠

وعرض الأرض المنزرعة حول النيل ـ والتى تبدو كشريط أخضر ـ تختلف باختلاف ابتعاد الجبال والصحارى عن النهر ٠ وتختلط غابات النخيل ذوات الثراء الاستوائى بحقول قصب السـكر الصفراء وحقول الفول الخضراء وحقول القمح التى تبدو متموجة ٠

وفى كل مكان تتقاطع القنوات التى يرفعون الماء اليها ـ عندما يكون الماء منخفضا فى مجرى النيل ـ بالعديد من الآلات البدائية للغاية ٠

ومما يعطى الحياة على ضفتى النيل مذاقها أنين السواقى التى تديرها الجواميس والتى لا تكف عن الدوران ليلا أو نهارا ، والفلاحون السمر العراة الذين يجلسون على طول الشاطىء أمام الماء ـ واهب الحياة ـ الذى يسحبونه لقنواتهم وترعهم ٠

لقد مررنا على طول مجرى النيل بمدن وقرى ٠ وكانت المزارع الخضراء والمآذن السامقة وأبراج الحمام هى أهم سمات هذه القرى المشيدة بالطين فقدنا لونها كلون الأرض ، وكانت الفوضى الواضحة من سماتها التى لا تخطئها العين ، وتحلق حدءات كثيرة فوق مساكن الفلاحين ، كما أن نبـــاح الكلاب وخوار الجاموس ونهيق الحمير ورغاء الجمـال وأنين السواقى وصياح العرب ، والأتربة والقذارة ، والفوضى هى من الأمور المعتـــادة ٠

(★) المقصود بجبال شبه الجزيرة العربية ، كما هو واضح ، جبال صحراء مصر الشرقية ، والمقصود بجبال ليبيا جبال صحراء مصر الغربية ـ كما هو واضح ايضا ، والاشارة كما ـ لا يخفى ـ اجبال المقطم التى تقترب كثيرا من النهر فى بعض المواضع ٠ (المترجم) ٠

وتقف النسور الضخام على طول الشاطىء الرملى ، والطيور آكلة الجيف بجانب الجيف التى سحبتها من فوق سطح الماء • وقد أعطى المنظر حيوية وحركة ، تلك الأسراب من الكراكى (جمع كركى) واللقالق (جمع لقلق بفتح اللامين وتسكين القاف) وطيور (أبو ملعقة) والبجع وأوز النيل والعديد من البط وكلاب النهر وطيور الخطاب (السنونو) وجيوش من طيور الرمال الصغيرة (العصافير غالبا) تلهو وتمرح • ويطلق الأوروبيون النار من كل دهبية على طيور الماء التى تلجأ الى هذه البلاد فى الشتاء • واطلاق النار على الطيور من فوق السفينة ، أمر غير مجد •

بركـــات الشـــيخ :

لقد مررنا بمدينة (أبو تيج) وعندها تتراجع الجبال لتخلى المكان ليصبح مساحة مزروعة زراعة كثيفة •

وتوقفت الباخرة ، واقترب قارب ، فسألت عن سبب توقف الباخرة واقتراب القارب ، فعرفت ـ ويا للدهشة ـ أن بين الجبـال الصحراوية القاحلة ، قبر أحـد الأولياء الصـــالحين ، ويســـمونه شـــيخا Moslem Saint, a So Called Sheik وهـــو يطـــالب بالضريبــة Claims a toll (*) ، والسفينة التى تمر دون أن تدفع هذه الضريبة تتعرض وفقا للمعتقدات الشـــعبية للاصطدام أثناء سيرها فى النهر • ويتلقى ربان السفينة الأمين الذى يدفع (هذه الضريبة) دعوات وتبريكات من المتسولين التابعين لمقام (قبر) هذا الشيخ •

لقد مررنا الآن بسرعة أمـــام مدن طهطا Tachta وفوباس Faubas (؟) وشيداون Shidawin (؟) ، ومدينة سوهاج ذات الموقع الجميل بمنازلها ومآذنها الجميلة •

(★) المقصود كما هو واضح : دفع مبلغ من المال نقدا أو عينا لضريح الشيخ ، أو أن شئنا الدقة لخدام ضريح الشيخ ، مقابل أن يقوم الشيخ المتوفى بحماية السفينة من الارتطام أو التعرض لأحداث مؤسفة ، وليقوم خدام الضريح بالدعاء باسم الشيخ (الولى) المتوفى ••• الخ • وغنى عن القول أن المسلمين المثقفين لا ينذرون الا لله سبحانه وتعـالى ، كما بات معروفا أن « البقشيش » و « الحلوان أو الحلاوة » و « النذر للشيوخ والأولياء » ما هى الا أساليب تفتق عنها العقل الشرقى للحصول على « أموال » بدون عمل أو نتيجة عمل الآخرين ، وهو الأمر الذى يفسر أيضا ازدهار مهنة « السمسرة » غير المقننة لمجرد التدخل غير الايجابى فى أية عملية بيع أو شراء أو تداول للأموال والأعمال ••• كما يرى القارىء فان هذه الأمور لم تلق الدراسة الكافية بأبعادها الحقيقية ـ (المترجم) •

وتتابعت المشـاهد الجميلة : جبال رائعة ومنحدرات تخلى المكان لتحل محلها غابات النخيل والمدن · لقد رحنا ندخن بارتياح ونتجاذب أطراف الحديث أو نقرأ ونحن جلوس فوق ظهر السفينة ننعم بالهواء النقي الذى يرده النهر ، وبروائح النباتات الأفريقية العطرة وبأشـعة الشمس الرائعة · وبين الحين والحين كنا نطلق النار على بعض طيور الماء من مسافات بعيدة ، وغالبا ما كانت طلقاتنا تذهب سدى · انها حياة كسول ، لكنها مسلية وتضيف لمعارفنا ما يزيدنا ثقافة ·

اخميم وجرجا :

وبعد الظهر مررنا بالمدينة الهامة أخميم Al-Achmim التى تقع بين النخيل ، وفى المساء ظهرت لنا مدينة جرجا Girgeh الجميلة والثرية ، عند منحنى حاد للنهر ·

لقد لونت أشعة الشمس الغاربة المنظر كله بلون ذهبى · فاصبح كل شيء ــ بما فى ذلك الجبال والنهر والأشجار والمدينة والحقول ــ يسبح فى فيض من الألوان لا يمكن للغة أن تصف مدى تاثيرها فى النفس روعة وبهــاء ·

فاضواء أمسيات القاهرة الشهيرة تعد مظلمة اذا قورنت بأضواء الصعيد التى تزفها الشمس اليه · لقد اقتربنـا من مدار السرطان وهو حد المنطقة المدارية (الشمالى) واتجهت باخرتنا نحو مرسى جرجا وقضينا الليل عند الشاطىء المترب المرتفع ·

الوكيل القنصلى القبطى :

وبعد تناول العشاء صعدنا للشاطىء ــ مستخدمين سلما ــ استجابة لدعوة وكيلنا القنصلى · هذا القبطى الثرى ، وأحاط بنا جمع غفير متناقر من الشرقيين المحبين للاستطلاع ·

ووصلنا لمقر الوكيل القنصلى بعد أن مررنا بشارع ضيق على جانبيه تقع المساكن الطينية المعتادة المزينة ببعض الزخارف والكتابات العربية ·

ووجدنا فى الطابق الثانى ــ بعد أن صعدنا سلما ضيقا منحدرا ــ غرفا عوانا بين حضارتين ، فنصفها شرقى ونصفها أوربى ·

فرائحة عطر الورد والأرائك التركية ــ فلا وجود للكراسى ــ والقهوة والسجائر المعطرة والجدران العارية ، والأقمشة والستائر المتنوعة من

الخامات الشرقية الثرية ــ كلها عناصر حضارية شرقية ومع هذا فقد بذلت جهود سقيمة لتبدو أوربية ــ تلك سمات مساكن الأثرياء الشرقيين ·

موســـيقا ورقص :

وما كدنا نجلس وندخن حتى ظهر فريق موسيقى مكون من أربعة عازفين ذوى منظر زرى ويبلسون عربا بعمائمهم الكبيرة وأثوابهم الزرق المتواضعة ، وكانت آلاتهم الموسيقية بدائية : ناى خشبى ، وجوس من صفيح (يقصد غالبا التار أو الطار -tam-tam) وما يشبه الطبلة ، وكمان يشبه آلة الجوزلا Gusla فى جنوب سلافونيا الجنوبية Our south-Sclavonic (٢) ·

وفى كل مكان يسود فيه الاسلام تجده هذه الآلات الموسيقية السخيفة ذوات الأنغام الرتيبة المملة الخنفاء بشكل عام ، والتى تصدر ضجيجا وحشيا فى أحيان أخرى ، ثم يعود عازفوها ليعزفوا عليها ألحانا عابسة كئيبة بعد أن عزفوا قليلا من الألحان المرحة ·

وفى جنوب أسبانيا حيث يكثر المسلمون Moors سمعت الأنغام الموسيقية نفسها بين الغجر ، انها ــ أيضا الموسيقا التى يجعلها السلاف الجنوبيون Southern Sclaves تصاحب أغانيهم الكئيبة عن البطولة بينما هم يجلسون القرفصاء فى ليالى الشتاء حول نار التدفئة يحلمون بأيام كراجوئ ماركو Kraljewic Marko المعنة فى القدم ·· انها نفس خصائص الأنغام العنيفة ــ التى تدعو للرقص المرح ــ التى سمعتها فى جرجا

لقد تم عزف المقطوعة التمهيدية ثم ظهرت الراقصات فى ملابسهن الطويلة الضيقة البهيجة بقوامهن النحيل وحليهن المتدلية حول أعناقهن ، وكانت وجوههن ــ بحكم طبيعة عملهن كراقصات ــ غير محجبة ، لقد كن مسلمات (مغربيات) Moors جميلات ، وقوقازيات بيضاوات يتناقضن فى ملامحهن مع الفلاحين الخلص الذين يشبهون المصريين القدماء : منخاران واسعان ، جبهة منخفضة ، أنف محدد واضح ، وفم صغير ·

وهؤلاء الراقصات يشكلن طبقة منغلقة يزدريها المسلمون الأتقياء · وقد طردن من شمال مصر لما يثرنه من فتنة وغواية بتصرفاتهن غير المنضبطة لذلك فهن منتشرات الآن فى كل مدن صعيد مصر ، وتسود بعضهن فى أصولهن لبعض مدن الصعيد ·

وتعشن ـ بشـــكل عـــام ـ معا فى أحياء نائية عن المدن ويعرضن خدماتهن على أفقر الطبقات وعلى الغرباء الفضوليين ، ويعملن فى بيوت الأثرياء حيث يرقصن بعد المآدب فيشـــاهد الحاضرون الذين يدخنون الشيبوك والنرجيلة ـ رقصهن باستمتاع كبير ٠

ويبـــدأ الرقص بأن تتحلق الراقصات فى دائرة ويتثنين ، ويقمن بحركات كثيرة غير محتشمة يمنعنى الخجل من الاستطراد فى وصفها ، انها عربدة ترجع ـ وفقا لانطباعى ـ لأزمنة شاع فيها الانحلال والخيال المريض (٣) ٠

وبعد أن مكثنا قليلا عدنا الى باخرتنا ـ مخترقين المدينة ـ لننال راحة كنا فى حاجة ماسة اليها ٠

البليـنـــة :

وفى الفجر واصلت الباخرة رحلتها وقبل الظهر بوقت غير قليل كنا عند البلينة Belianeh وهى قرية طينية غير مهمة تحيط بها غابة نخيل جميلة ٠

ونزلنا للشاطىء دون توان والعيون المتفرسة تكاد تخرق جلودنا ، وركبنـــا حميرنا ضئيلة الحجم التى لم تعـد اعدادا جيدا وانطلقنا خلال بساتين النخيل والحدائق خارج القرية ٠

لقد امتد شريط عريض بشـــكل مقبول من الأراضى الزراعية على شاطىء النيل ويحيط بالشريط سلسلة جبال شامخة من الجانبين ، ورأينا حقول قصب السكر والفول والقمح وحقول أشجار نخيل قصيرة وأشجار جميز ، كل ذلك على ضفة النيل الغربية (صوب الصحراء الليبية) ٠

لقد كانت هناك حركة دءوبة على المروج الخضر ، فقد كان السكان مشغولين بالعمل والحرث أو رعى القطعان الكبيرة ٠ وأثناء رحلتنا لاحظنا أنه كلما أوغلنـــا فى الجنـــوب ، زادت دكانة بشرة الســكان وأصبحت ملابسهم أكثر بساطة ٠

العرابة المدفـــونة :

لقد رأينا لأول مرة نخيل جوز الهند الجميل bushy palm وهو شجر متوطن فى مناطق افريقيا الداخلية ٠

وعند الطرف الحاد للأراضي المزروعة وبداية الصــــحراء القاحلة المهجورة تقع القرية القــــذرة الحقيرة المعروفة باسم العرابة المدفــــونة Arabât-el-Madfûne بين بستان نخيل صغير • ولا يملك السكان الفقراء هنا سوى أبراج حمام ضخام ويرى المرء آلاف الحمائم ترفرف بالقرب من أبراجها • انها حمامات كبيرة تكاد تكون برية •

وتبدأ الصــــحراء المحيطة بوادى النيل واضحة وحادة حيث ترتفع الأرض ولا يصلها ماء النيل ، ويمكن تأكيد هذه الملاحظة هنا عند آخر منزل من منازل العرابة المدفونة • انك تنتقل فجأة من أثرى الحياة النباتية الخضراء الى صحراء بيضاء تبهر النظر بضيائها ـ بدون المرور بأية منطقة انتقالية •

وتقع بقايا أبيدوس Abydus ذات الجدران الخالدة الزاخرة بالرسوم التى تذهل الرحالة وتبهجه ـ بين أحجار وقمامة على بعد مئات قليلة من الياردات من القرية (قرية العرابة المدفونة) •

انك تجد نفسك بين بقايا عصور سحيقة بقيت محفوظة لم يعترها الخراب ، بسبب مناخ صعيد مصر الجميل المشمس الجاف •

ومنذ زمن الأسرة الفرعونية السادسة (حوالى ٣٣٠٠ ق٠م) وهذه البقعة قريبة من حافة الصحراء ، وكان اسمها القديم أبيدو Abidu ، وكان ينظر اليها كمقبرة مخصصة لأوزوريس Osiris مصر العليا • ومن هنا كانت أمنية المصريين القدماء الطبيعية هى أن يجدوا فى هذه البقعة مقبرة (مثوى أخيرا) فى رمال الصحراء • فثمة معابد عديدة لأفراد ، ومقابر فخمة لبعض ملوك مصر ترتفع فوق الرمال ، تغرى الزوار بالوقوف اجلالا لملك الموتى أوزوريس الطيب ، احياء لذكراه • ومعابد الملك سيتى الأول Seti I (١٣٦٠ ق٠م) وابنه ووريثه رمسيس الثانى (١٣٠٠ ق٠م) هى أوضح المبانى الأثرية التى تعرضت للنهب • ومعبد الملك سيتى ـ خاصة ـ يمتاز بالرسوم والكتابات الهيروغليفية التى تغطى جدرانه وأعمدته وهى تمثل أزهى فترات الفن المصرى القديم • وحقق هذا المعبد أيضا شهرة بسبب القائمة التى تضم أسماء الملوك (السبعة والسبعون فرعونا) منذ أيام مينا (يسميه الاغريق مينز Menes حتى أيام رمسيس الثانى ، وتعد هذه القائمة الأساس الذى لا يقدر بثمن لكل البحوث فى مجال التاريخ المصرى القديم •

والمعبد الجنائزى الثانى بناه رمسيس الثانى ويقع الى الشمال من المعبد الأول ، ولم يحتفظ برونقه بنفس درجة احتفاظ معبد سيتى بها ،

لكن بقاياه تتكون من أحجار محببة وكتل من الالاباستر والجرانيت تحمل على سطوحها الناعمة الملساء عديدا من الرسوم والكتابات ذات قيمة فائقة للدراسات التاريخية والجغرافية والميثولوجية (أساطير الآلهة خاصة) المتعلقة بمصر القديمة · وقد اتخذ العديد من شواهد القبور من نكروبولس Necropolis في أبيدوس Abydus طريقه الى فينا ·

وبينما كنا نتفحص جدران المعابد وحالاتها شاهدت بعض النسور من الجبال الصحراوية المجاورة يحلق فوق رءوسنا ثم حلقت دائرة بعيدا في الفضاء ، وقررنا باصرار أن نغرى هذه الطيور الضخمة لنقتنصها لكن المسألة الآن كانت هى أين نجد المكان لنطرح فيه جيفة ·

لقد كان خلف المعابد بعض أكوام عالية من القمامة والأحجار يمكن للمرء ان اعتلاها أن يلقى نظرة على السهل الصحراوى الواسع الذى يمتد من حافة الأرض الزراعية حتى سطوح الجبال بتكويناتها الجميلة وقممها الشامخة ، واتخـذت قرارا بأن أتجول فى هـذا السهل بحثـا عن بقعة مناسبة (لاغراء النسور) ، وبينما كنت أجول شاهدت (حقلا) من المقابر على بعد مئات قليلة من الأمتار من المعبد ·

بقايا جثث الجيش الرومانى :

وفى أيام الأباطرة الرومان دمرت الأمراض والمجاعة جيشا رومانيا فى هذا المكان ، وظلت جثث المقاتلين الرومان ملقاة دون دفن فى فوضى هائلة ، وحتى هذه اللحظة يمكن للمرء أن يتحدث ــ حرفيا ــ عن جثثهم (أجسادهم bodies) ، فالشمس الأفريقيـة والرمال الحارقة والهواء الخالى من التلوث عملت جميعا على حفظ الجثث فجعلتها كأنها محنطات طبيعية · لقد وقفت أمام أجساد وأذرع وسيقان وأيد لازال اللحم الذى سفعته الشمس عالقا بها · والجماجم المكشرة لازالت تتغلف بفروة الراس ، وطيات اللحم الداكنة على الوجنات لفتت نظرى على نحو خاص ، واخذت معى ــ كتذكار ــ واحدة كان منظرها لا يبعث على الرعب كمنظر الجماجم الأخرى ، ان المرء يخوض بالفعل فى بحر من الهياكل العظمية والاتربة · لقد كانت صورة الصحراء كالتالى : سهل أبيض متألق ، رمال تحرق الاقدام ، عظام مبيضة متناثرة ، مسرح للثعالب وحيوانات ابن آوى ، والنسور الصلعاء تحلق عاليا ، وفى خلفية الصورة الحيود الجرداء العارية لجبال الصحراء · ليس من ورقة نبات خضراء تسعد العين وليس من شيء يخفف من وطأة انعكاسـات الشمس الحارقة على كتل الصـخور البيضاء والصفراء وأكوام الرمال التى اتخذت أشكالا واضحة تحت السماء

العميقة زرقتها . ليس من شك في أن روح الشعر تغمر الصحراء ، فهي رغم رتابتها تقدم لنا مناظر فخمة مهيبة . وأخيرا وجدت تلا منخفضا بدا يمكن استخدامه لنحجب به تقدمنا ، لذا فقد أسرعت أقود الخروف الى الموضع وطمنته ونزعت أحشاءه ، وهيأت القطعة الأولى لاغواء النسور ، وأسرعت عائدا لرفاقي في المعبد .

وبعد أن تفقدنا بدقة كل الآثار تناولنا افطارنا الذي كنا قد أحضرناه معنا في احدى القاعات القديمة . وماكدنا ننهي طعامنا حتى قمت ومعي هويوز Hoyos بزيارة موضع الخروف ، وما كدنا نصل الى مسافة يمكن منها أن نطلق النار حتى اكتشف نسر حذر ، اقترابنا فضرب بجناحيه وارتفع عن الأرض ، وتبعه مالا يقل عن عشرين من رفاقه شديدي البأس . وكان هويوز Hoyos حسنا حظه حتى انه أسقط نسرا أبيض كبيرا أصلع الرأس من بين هذه المجموعة . أما أنا فكنت أقل مهارة فأصبت نسرا كبيرا جدا بجرح غائر فطار على ارتفاع منخفض عبر السهل . لقد مزقت هذه الطيور الجارحة جثة الخروف المسكين بشراسة والتهمتها ، فلم يبق منه سوى فروته ، وبعض القطع الممزقة .

فلاح أعمى يتاجر في الآثار :

وبعد انتهائنــا من هذه الجولة من جولات الصيد ، عدنا لرفاقنــا الآخرين وذهبنا معهم نحو القرية حيث زرنا فلاحا أعمى ، وكان هذا الرجل المحترم واحدا من أغنى ملاك العقارات في القرية ، ويمارس بالاضافة لذلك الاتجار في الآثار المصرية ، فهو يحفر المعابد وحولها ، رغم مخالفة عمله هذا للقانون . وقد حصلنا ـ بتوجيه من برجش باشا ـ على بعض العاديات الصغيرة ، وأتيح لنا ـ في الوقت نفسه ـ أن نتفقد المنزل البدائي ـ ولا أقول القذر ـ لسكان وادي النيل .

ومن العرابة المدفونة ركبنا عائدين عبر الريف الى البلينة Belianeh وكنا نمارس الصيد أثناء الطريق ، فقد أطلقنا بنادقنا على طرائد صغيرة ، وكنا مشوقين على نحو خاص لاصطياد النسر المنقض (؟) Glide-eagle وهو طائر أفريقي جارح له ريش أزرق وأبيض ، ويرتاد بأعداد كبيرة بساتين النخيل وآبار السحب .

وبعد الظهر عدنا للباخرة ، وتابعنا ابحارنا في النهر جنوبا لمدة ساعتين قبل أن يحل الظلام ، لم تتغير المناظر الا قليلا ، لكن المساء الجميل ومنظر الشمس الفاتن عند الغروب أمتعـانا ، لا بسبب جمال الألوان

وتدرجهـــا فحسب ، وانما لأن ذلك أتاح لنا الخروج ببعض الملاحظات الاثنوجرافية الشائقة • فعند الغروب يقود الفلاحون جمالهم وجواميسهم وحميرهم وماعزهم وأغنامهم لتشرب آخر شربة لها فى النهار ، فيزدحم الناس على شاطىء النهر لهذا الغرض : انهم رجال ونساء كأنهم أتوا من عصور سحيقة ، يتوضأون وفقا لتعاليم القرآن (الكريم) ، وتحمل النسوة جرار الماء (الزلع أو البلاليص) ، انهـــا الجرار نفسها التى استخدمها الفراعنة ، لم تتغير أشكالها أو مادتها ، انهن يملأنها من ماء النيل الجارى لاستخدام المساء ، وتبتل ثيابهن الزرق الرقيقة بالماء فتلتصق بأجسادهن الرشيقة ، وعيونهن السـوداء الواسـعة تتلألأ حزنا على صفحات مياه النيل ، وأفواههن المفتوحة شيئا ما تنطق بالأغانى الحزينة • انهم البشر نفسه الذين رأيناهم مصورين على جدران المعابد ، وبدا لنا وكأن القبور فتحت للسماح لرعايا الفراعنة بالعودة على ضفاف النهر المقدس •

وأوقفنا باخرتنا عند قرية صغيرة ، وبعد أن قضينا أمسية بهيجة خلدنا للنوم ، وعند شروق شمس الثانى من مارس واصلنا رحلتنا ، وقضيت فترة الضحى على ظهر السـفينة ألاحظ المنـاظر الجميلة على الشاطىء • مع أنها المناظر نفسها التى مرت بى فى الأيام الماضية : حقول خضراء وبساتين نخيل ومدن صغيرة وجبال تنحدر فى الوادى • وعلى طول الشـاطىء الرملى الطويل كان يوجد — على أية حال — ثراء فى الحياة الحيوانية لم نعتده من قبل • أسراب هائلة من البجع ، وطيور البلشون ، والأوز • وأكد مساعد الصيد التابع لى أنه رأى تمساحا !

قنـــا :

وعند الظهر وصلنا قنا ، وهى مدينة ذات مساحة معقولة ومشيدة بيوتها من الطين وتزدان بمئذنة سامقة ، وقد رست بنا السفينة ، فركبنا حميرا ومررنا ببساتين نخيل جذابة ، الى جانب قرية بائسة كانت نسور الجيف تقف على أكوام السماد (السباخ) فى حدائقهـا ، رغم وجود الدجاج غير بعيد عنها ، وسرعان ما وصلنا للسهل المزروع زراعة جيدة •

وينثنى النيل عند قنا ويقترب كثيرا من جبال الصـحراء الغربية (الجبال الليبية) ، لذا فالشريط الزراعى ضيق جدا وبعد ركوب دام نصف ساعة وصلنا — لمعبد دندرة Dendera الشهير • انه يقع — مثل بقايا أبيدوس — على حافة الأرض الزراعية ، وان كان المعبد نفسه قائما فى رمال الصحراء •

ولا أجد فى هذه المناسبة أفضل من ايراد كلمات صديقى برجش Brugsch عن هذا المعبد :

« دندرا اسم حديث لمعبد يتردد الناس عليه كثيرا للزيارة على الضفة الغربية للنيل فى مقابل مدينة قنا الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، وكلمة قنا تعريب للكلمة الاغريقية Caenepolis وتعنى المدينة الجديدة كما أسماها الجغرافيون اليونان ، والكلمة اليونانية بدورهـا مساوية (مرادفة) للاسم القديم تنتار Tantare · ومعبد دندرة لا زال يحتفظ برونقه القديم وهو مخصص لعبادة الربة هاتور Hathor · وهى بمثابة الربة فينوس Venus عند اليونانيين ، ويرجع تاريخ المعبد الى أواخر عهد البطالسة وبداية عهد الرومان فى مصر · وترجع أهميته الى المعلومات التى يقدمها عن تصميم المعبد المصرى القديم ، بوحداته المختلفة ·

واذا وضعنا فى اعتبارنا معبد ادفو كمعبد مشـابه ، بل وأكثر اكتمالا ، اتضح لنا أن وحدات (أجزاء) المعبد المصرى القديم كالتالى :

١ ــ برجان ، كالجناحين فى مقدمة المعبد ، بينهما يقع المدخل الرئيسى · والى اليمين واليسار من البوابة مسلتان وتمثالان للملك المؤسس تشكل (التمثالان والمسلتان) الواجهة الأمامية للمعبد ·

٢ ــ ساحة مكشوفة ذات أروقة معمدة تسمى البهو المعمد · Peristyle

٣ ــ مجاز (أو ردهة) ذو واجهة نصف مفتوحة فى المقدمة ، تتجلى واضحة فى معبد دندرة ، وتزين الصور الفلكية ، والكتابات المناسبة هذا المكان ·

٤ ــ صالة الطعام banquet وعن يمينها ويسارها غرف ·

٥ ــ غرفة الأضاحى ومنها غرف جانبية ·

٦ ــ الغرفة الوسطى ، ومنها أيضا غرف صغيرة ·

٧ ــ المقدس أو قدس الأقداس ويقع فى وسط الجزء الأكثر ايغالا للداخل وكأنه معبد داخل معبد · وفى قدس الأقداس مصلى حجرية بهـا صورة لاله الضريح ، بالاضافة للقوارب المخصصة لأغراض نبيلة خاصة ، وفيها صور الكهنة يحملون صور الآلهة ، ويفصل قدس الأقداس عن الغرف الأصغر مسـاحة ممر خاص ، والغرف الأخرى الأكثر أهمية تقع مباشرة خلف هذا الممر · ان قدس الأقداس يمثل الجزء الأساسى لأى معبد فرعونى ، فالمحور الأساسى لمبنى المعبد يمر بالضبط من وسطه ·

ومن الممر يصعد المرء ما يشبه الدرجات الى كل الغرف المتتابعة ·
وتصميم معبد سليمان Temple of Soleman بصفوف أعمدته وقاعاته
وممراته وقاعة أضحياته وقدس أقداسه (مكان العهد) يماثل بالضبط
معمار المعبد المصرى القديم ·

وقد تفحصنا على ضوء المشاعل كل غرف المبنى الكبير ، والسراديب
الضيقة ، والسلالم ، والممرات · وبقيت مدة طويلة في الظلام تحت القاعات
المعمدة ، وكانت كتل الأحجار الضخام غير المطلية مزدانة بالنقوش
الهيروغليفية الثرية مستدعية في أفئدتنا تلك الأيام الخوالي · ان المرء
لا يتصور بقايا من العصور القديمة أكثر حيوية من تلك الموجودة في معبد
دندرة بجمالها الغامض البديع ، فالمرء يرى بعيني روحه كهنة هذه الديانات
القديمة يتحركون بثيابهم البيض الطويلة ولحاهم السود المجدولة وأغطية
رءوسهم المرتفعة ، حاملين الأضاحى لتقديمها للآلهة القوية لمملكة النيل
القديمة ·

وفى الممر المهجور تعشش الخفافيش الآن بأعداد كبيرة لا تصدق ،
وفى الصالة الكبيرة تقف بومة ، بينما على الافريز بنى زوج من الغربان
عشيهما · وأطلقت بندقيتى على أنثى الغراب السوداء الكبيرة بينما تطير
محلقة عبر البوابة ·

وألقينا نظرة ممتعة — من بعيد — من فوق سطح المعبد ، على النيل
والأرض الخضراء على احدى الضفتين ، وعلى الصحراء الشاسعة والجبال
من خلفها ، على الضفة الأخرى · انها صورة جليلة : آثار داكنة وصحراء
خالية وجبال متفردة ، لا شيء أخضر ولا حتى شعاع من اشعة الشمس
يسعد العين · فعظمة الألوان وتألق السماء قد غابا عنا هذا اليوم بعد
الظهر ، فكل شيء لفته الظلال الداكنة ، وأصبحت السماء قاتمة لا من
سحاب — فهذا غير معروف فى مصر العليا — وانما بفعل الأتربة والرمال
وركود الهواء ، وكل أولئك مقدمة لهبوب رياح الخماسين Champsin
التى تعد من رياح الصحراء القاسية ·

وعدنا مساء لسفينتنا ومارسنا الصيد طوال طريق العودة وقضينا
الليل على سطح السفينة وهى راسية فى الموقع نفسه ، وفى بكور الصباح
واصلت السفينة ابحارها فى النيل · كانت رياح الخماسين الثقيلة تعبث
فى الوادى وغطت سحب الرمال الصحراوية الجبال وكأنها ضباب ·

وظهرت الشمس كقرص أحمر — لم تستطع أشعتها اختراق جيوش
الأتربة والرمال · كل شيء غطته الرمال التى كانت تتوغل حتى الى كبائن

سفينتنا المغلقة ، وسببت ازعاجا مرعبا ، وساد الهواء الثقيل الباعث على الاحباط ، لكن ذلك أعطى المناطق الأخرى (البعيدة عنا) منظرا جميلا ، وتأملنا مندهشين في هذا الأمر الذى بدا لنا بعدا غريبا من أبعاد الطبيعة ٠

واطلقنا البنادق على البجع ، ودجاجات النهر وبعض نســور الماء المزعجة ، لكن ذلك كان بلا جدوى ، فقد كانت المسافة بيننا وبينها طويلة ٠ ومررنا ببعض المدن ، كان من بينها قفط Kuft وقوص Kus .

طبيعة المنطقة هى نفسها ، وكل ما حدث من تغيير هو تراجع الجبال لتخلى مكانا لطيبة ذات الشهرة فى التاريخ القديم بالاضافة لثرائها وجودة زروعها ٠

طيبـة :

وفى الساعة الثانية عشرة وصلنا لمرسى مدينة الأقصر المهمة ٠ وكان فى المرسى باخرة بريد وبعض الدهبيات (البواخر) الخاصة بالمسافرين الأوربيين ٠ والأقصر الحديثة ، مدينة عربية أصيلة ، مساكنها مشيدة من الطين ، وتقع فى وسط بقايا الآثار المصرية القديمة ، وان امتدت على نحو ما فى مواجهتها ٠ فعلى ضفتى النيل نجد الارض مغطاة لمسافة طويلة ببقايا طيبة ، وتمتد على الضفة الغربية (الشاطىء الليبى) حتى الجبال ٠

ورست سفينتنا بمجرد وصــولنا وصعدنا الى الشـــاطىء الرملى واستأجرنا بعض الحمير من ميدان بدائى يقع أمام فندق الأقصر ، وهو فندق صغير قذر ، وركبنا الحمير ومررنا بشوارع المدينة الضيقة مارين بسوق غير عامرة بالبضائع ، وان رأينا فيها خلقا كثيرا ، يترددون جيئة وذهابا على أحــد أحيــاء المدينــة لا تســكنه الا الغوازى Ghawazi (الراقصات) ، فالأقصر مشهورة برصيدها الكبير من الراقصات ٠ وبعد آخر المساكن أقيم معسكرنا ذو الطابع الغجرى فى أرض رملية ، ولم يكن المكان نظيفا ٠

وسرعان ما وصلنا لمنطقة مكشوفة فسارت حميرنا بسرعة بين أشجار النخيل والحقول المزروعة ٠ وعلى البعد أمكننا رؤية بقايا الكرنك العظيمة : بوابات ضخمة وأعمدة وجدران ٠ فالكرنك يقع فى الأرض الزراعية الى جوار بستان نخيل رائع ٠٠ وتعد النخلة الجنوبية شعارا لأفريقيا فهى تقدم للرائى صورة ذات تأثير ، بالاضافة للآثار المتألقة التى تعيد للأذهان حضارة أعرق شعوب الشرق حضارة

وعند مدخل الكرنك تقع قرية صغيرة ومزرعة لم تنم أشجارها نموا كاملا • وثمة أسراب من طيور آكل النحل برءوسها الزرقاء ، وبحركتها التى تشبه حركة الفراشات كانت لا تكف عن الطنين ، وقد أطلقنا بنادقنا على كثير من هذه الطيور الأفريقية الجميلة طمعا فى ريشها الجميل •

آثار الكرنك العظيمـــة :

دعونا الآن نأخذ قبسا من كلمات برجش باشـا الذى كان دليلا ومعلما وذواقة طاف بنا خلال آثار الكرنك العظيمة ، تلك الآثار التى تعود لأزمنة موغلة فى القدم :

• معبد الكرنك كان فيما مضى يرتبط بالأقصر بطريق طويل بشكل غير عادى (طريق أبى الهول Sphinx avenue) وهو ـ أى المعبد ـ عبارة عن مبنى ضخم يتكون من مبان تعود الى حقب تاريخية مصرية مختلفة • فغالبا ما كان كل ملك ـ خلال فترة امتدت حوالى ألف وسبعمائة سنة يشعر أنه لزاما عليه أن يخلد ذكره بتشييد مبنى ، ومن هنا فان تاريخ الامبراطورية طوال هذه القرون قد مثل فى هذا المعبد الامبراطورى • ويعتبر الفراعنة الذين سنذكر أسماءهم توا هم أبرز مؤسسى هذا المبنى :

١ ـ تحتمس الثالث وأخته حتشبسوت Hatchop (حوالى سنة ١٦٠٠ ق•م) واليهما تعود مسلات الكرنك وقد سجلت انتصارات تحتمس الثالث فى آسيا وافريقيا من خـلال رسوم وكتابات ثرية قدمت معلومات مهمة تاريخية وجغرافية عن هذه الحقبة •

٢ ـ سيتى الأول (١٣٦٠ ق•م) وهو مؤسس الصالة الكبيرة فى المعبد ، تلك الصالة المقامة على ١٣٤ عمودا تذكرنا ـ بتصميمها وزخارفها ـ بمعبد أبيدوس • وفى الجدار الشمالى الخارجى صور تمثل الحروب بين هذا الملك والقبائل العربية والسورية كما تمثل عودته لمصر • وهى رسوم ذات قيمة تاريخية عالية •

٣ ـ رمسيس الثانى (سيزوستريس) (٤) وهو الذى أكمل ممر الأعمدة بعد موت والده سيتى الأول ، وسجل الجدار الجنوبى الخارجى حروب هذا الملك مع ملك الحيثيين Heth وحلفائه الآسيويين ••• وثمة اشارة أيضا الى شيشانق الأول Shashank I (وهو الملك شيشاق الوارد فى الكتاب المقدس) ليسجل معركته ضد مملكة يهـــوذا Judah من وجهة نظر مصرية • والى الجنوب من معبد الكرنك ـ فى اتجاه النهر ـ يوجد معبد بحالة جيدة هو معبد الاله

القمرى شوزو Chousu وقد أنشأه رمسيس الثالث (١٢٠٠ ق٠م) وثمة عمود مربع Pylon مهيب أمامه يعود لأيام البطالمة ، ومعبد الاله Chousu يشير أيضا لسقوط الفراعنة الرمماسة Ramses (انتهاء دولتهم) » ٠

وفى الاتجاه الجنوبى من الكرنك ، يوجد حرم مقدس خاص لموت Mut زوجة آمون الذى يعتبر بمثابة زيوس zeus اليونانى ــ الى جوار بحيرة لا تزال موجودة ٠

وتماثيل آلهة القمر والنور المصرية Egyptian Juno كلهـــا من جرانيت أسود لها رءوس أســـود ، والواحد منها يمثل ربة تقف وقفة جليلة ، وكلها محيطة بالنافورة المقدسة ، وحتى الآن لا تزال بعض هذه التماثيل فى مواضعها القديمة ٠ وقد تم نقل بعض أفضـــل هذه التماثيل ــ منذ أعوام عديدة ــ الى متاحف أوربا المختلفة » ٠

وبعد أن تجولنا بين القاعات الواسعة وبين ما لا حصر له من الأطلال والأعمدة عدنا من الطريق نفسه الى الأقصر ٠ وفى أوسط المدينة يقع منزل الوكيل القنصلى لبريطانيا وهو عربى ثرى ، وكان بيته محاطا بغاية من الآثار القديمة ، وقد استقبلنا هذا الرجل العجوز الماكر بزى نصفه أوربى ، ورحب بنا بحرارة ، وعرض أن يبيعنا آثارا مصرية بأثمان باهظة ٠

واشترينا بعض القطع الجميلة وشربنا فناجين القهوة ، وهذا أمر لا مفر منه ، ثم تابعنا تفقدنا للآثار داخل المدينة ٠ ومرة أخرى أدع برجش يتحدث بدلا عنى :

« كانت طيبة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وطوال الف وسبعمائة سنة العاصمة المتألقة للامبراطورية المصرية ، وحتى أغانى هوميروس Homer أشارت الى شهرتها وعظمتها ٠ ويقسم النيل المدينة الى قسمين كما ورد فى كتابات كثيرة ، ووفقا لبقايا المبانى القديمة التى مازالت باقية ٠ والشطران معا يمثلان مدينة Uas أو Pi Amon أى مدينة آمون أو كما سماها الاغريق ديوزبولس Diospolis والجزء الواقع على الضفة الشرقية للنيل يختص باسم آبى Api أو تابى T-Api ، والى هذا الاسم الأخير يرجع الاسم اليونانى Thebai أو Thebae .

وقد أطلق المصريون المحدثون على الآثار والخرائب على هذا الجانب اسم الأقصر El-lugsor (القـلاع باللغـة العربية عـــادة ما تكتب الأقصر) (*) وهذه الآثار بالاضافة للكرنك لا تزال ــ حتى الآن ــ تثير

(*) هذا غير صحيح كما لا يخفى على فطنة القـارىء ــ (المترجم) ٠

اعجابا شديدا • ففي الأقصر مباني الملك أمنوفيس الثالث Amenophis III (سنة ١٥٦٦ قبل الميلاد) والى الشمال منها مباني رمسيس الثاني (سيزوستريس) ، وكلها مبان قوية جليلة ، والجانب الأمامي لجناح بوابة معبد رمسيس مزدان برسوم عن معركة رادوش Radosh في أورنت Orontes وهي المعركة التي حقق فيها الملك نصرا واضحا على الحيثيين وحلفائهم ، وقد بقيت مسلة واحدة (وهي المسلة الشرقية) من المسلتين في موضعها القديم • أما عن الأبعاد المتعددة للتماثيل الضخمة لهذا الملك فيمكن جمعها من الرءوس الناتئة من الأرض » •

وبينما كنا ننظر لمختلف الآثار تحلق العرب الجشعون حولنا حاملين معهم قطعا أثرية صغيرة (وهي آثار في غالبها — وفقا لما قاله برجش باشا — مزيفة) وقالوا انهم استخرجوها من الحفائر ، عرضوها علينا بطريقة لحوحة تبعث على الضيق ، وكان لابد أن ندافع عن انفسنا بطريقة عنيفة ازاء اندفاعهم وزحامهم وكثرة ايماءاتهم •

العبابدة :

وفي شارع جانبي وجدنا جماعة من العبابدة Ababdehs وهم جنس غريب ، فهم — على الأقل — ليسوا عربا ، ومظهرهم اجنبي تماما وبعيد عن الجنس السامي ، كما أنه بعيد تماما عن أن يكون جنسا زنجيا •

وهم يدعون أنهم منحدرون من بعض الأجناس الآسيوية النائية ، وكان هذا الجنس الآسيوي في حالة هجرة في أيامه الأولى — انه الجنس الكوشي Kushites — متخذا الاتجاه الجنوبي ثم مساحلا لسواحل المحيط الهندي فسواحل جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم دخلوا أفريقيا ، واستقرت هذه العشائر المميزة في الحبشة وما وراءها وفي مناطق الصومال ومن ثم اتجهوا الى أسوان ومنها الى طيبة •

والعبابدة Ababdahs بشكلهم المميز يعدون حتى الآن طبقة منفصلة واضحة تسكن التلال الى الشرق من النيل بين النهر والبحر الأحمر بدءا من طيبة الى جنوب أسوان • انهم جبليون بؤساء يعيشون في الأودية الصحراوية الجبلية ، واحتفظوا بطابعهم دون تغيير وظلوا دون كبير تطور •

انهم متوحشون وغير أليفين ، بكل ما في هذه الكلمات من معان ، وتنبيء جلودهم النحاسية وأجسامهم النحيلة وملامحهم الدقيقة عن أصول هندية • وشعورهم سوداء يدهنونها بالشحوم ويجعلون منها قرونا

يثبتونها في هيشتها بقطع من الخشب ، أما ثيابهم فبعض أسمال بسيطة قذرة يلفونها بشدة حول أجسامهم ٠

ويضعون جميعا حلقات في آذانهم وحول أذرعهم فحتى الصبى الصغير يضع حلقة في أنفه ٠ أما أسلحتهم فسيوف عتيقة — من بينها سيوف أوربية تعود لفترة الحروب الصليبية — وعصى خشبية ورماح بدائية ودروع جلدية وسهام وأقواس وجعبة سهام تلقى منهم عناية خاصة ، ولكنهم لم يرغبوا فى بيع أى من أسلحتهم هذه ، واحتاج الأمر لتدخل عبد القادر باشا ليدبر لى كثيرا منها ٠

لقد كانت ضربة حظ أن نلتقى بالعبابدة فى طيبة فهم نادرا ما يأتون لأسواق هذه المدينة ، لكننا عندما وصلنا لأسوان ، أتاحت لنا الظروف أن نعرفهم بشكل أفضل (٥) ٠

وبعد هذه المقابلة الشائقة مع العبابدة انقسمت مجموعتنا : أما الدوق الكبير وأنا فقد ركبنا عائدين للكرنك مرة أخرى لنمارس صيد الحيوانات البرية مساء ، بينما عاد باقى الرفاق الى الأقصر ٠ وقد أرشدنا صياد عربى اسمه خليل الى منطقة قريبة من آثار الكرنك ، وكانت هذه المنطقة التى دلنا اليها خليل بالقرب القريب من منازل قرية صغيرة ، فبمجرد أن تركنا هذه المنازل استدرنا فى الحقول وسرعان ما وصلنا لتل رملى يقع فوقه مقام أحد الأولياء المسلمين القدماء ٠

وأوقفنا الصياد العربى فى مركزين (نقطتين) مختلفين فى ظل بستان نخيل صغير ، وأصدر الى تعليمات بأن نجعل بنادقنا جاهزة للاطلاق وأن ننتظر بسكون كامل حتى تجرى الأمور فى مجراها الصحيح ٠ كانت رياح الخماسين قد بدأت تهب بعد الظهر ، لكن المساء كان جميلا عقب انيار سيىء ٠ وغربت الشمس بعظمة غامرة سهل طيبة الواسع وجبال الصحراء التى تتسم بالشموخ هنا ، وآثار الكرنك الجليلة بألوان بهية غاية فى البهاء ٠ وحركت النسائم العليلة جريد النخيل وسعفه ، وهبت الروائح الشافية من النباتات اليانعة وهدل الحمام فوق الشجيرات هديله ذا الشجن ، وشمل السكون كل ما حولنا فكان لهذا تأثيره الملطف بالنسبة لى ، فكاد النوم يغلبنى ، فهزنى خليل بشدة ، على حين غرة — وكان يكمن بالقرب منى — وأخبرنى بلهجة حادة أن حيوانا من حيوانات ابن آوى مر بالقرب منى وأفلت ٠ كان الليل فى هذه الأثناء قد هبط فاتخذت مع الدوق الكبير طريقنا عائدين ٠ وأثناء العودة لمحت شبح حيوان يمرق سريعا ، فأطلقت بندقيتى كيفما اتفق ، وغمرتنى السعادة اذا اكتشفت أننى

قد اصطدت حيوانا من حيوانات ابن آوى . وبعد حصولى على هذه الغنيمة الثمينة ، وصلنا فى الحال الى حيث الحمير تنتظرنا ، فركبنا مسرعين الى الباخرة.وقد غمرتا السرور •

وأخذ بعض منا بنصيحة خليل فبدءوا فى بكور صباح اليوم التالى قبل بزوغ الشمس بوقت طويل وذهبوا الى بركة بعد آثار الكرنك (٦) ، تلجأ اليها الحيوانات الكبيرة غير المستأنسة لتروى ظمأها إبتداء من فترة ما بعد الغروب • كان الطريق طويلا يخيم عليه سكون الموت فليس من صوت الا عواء حيوانات ابن آوى ونباح الكلاب شبه المتوحشة ـ تأتينا بين الحين والحين لتقطع سكون الليل • وأخيرا وصلنا للبركة أو ان شئنا الدقة مستنقع الماء المتخلف عن فيضان النيل • وأعد خليل مواضع البنادق بسرعة بينما رحنا نحن نلاحظ باهتمـــام شديد حتى أشرقت الشمس ذهبية حمراء على النيل العربى ، ولم نر شيئا سوى واحد من حيوانات ابن آوى تركه الهر راث Herr Rath ينسل هاربا •

ان الفترة القصيرة التى تمثل مرحلة انتقال بين ظهور حمرة الأفق حتى شروق الشمس ، تمثل ثراء فى الألوان ، وتباينا ساحرا ، لا مثيل له الا فى داخل أفريقيا • ورأينا كثيرا من الطيور من أنواع مختلفة ترد الماء فقررنا أن نقضى فترة ما قبل الظهر فى اصطياد الطيور ، وبالفعل أصبح فى حوزتنا عدد كبير من الطيور الصغيرة كان من بينها عدة أنواع من السمان ، ويجد هذا الطائر فى هذه المنطقة منتجعا شتويا له • ووصلنا لآثار الكرنك بعد جولة فى الحقول • وقد عاد عدد من الرفاق الآن الى الأقصر بينما تخلفت أنا وتخيرت لى مكمنا بين الخرائب لأراقب جيفة قريبة فى انتظار قدوم النسور الكبار • ولسوء الحظ لم يظهر الا واحد من نسور الجيف وحدأة ، ولم أطلق بندقيتى على أى منهما •

ولم يكن هذا النهار ملائما لهذا النوع من الرياضة (صيد الطيور) لأن سحب الرمال كانت تغطى المكان حاجبة عنا حتى رؤية أقرب الجبال ، فقد عادت رياح الخماسين عاصفة هذا الصباح ؛ لذلك سرعان ما غادرت مكمنى بين أطلال مصر القديمة واتجهت الى بركة مائية صغيرة تحفها الواح حجرية وهى بركة قديمة تقع بين البقايا الأثرية ، فهنا تلجأ بعض طيور الشنقب (أو الجهلول) وبعض طيور زمار الرمال (أو الطيطوى) لتلتقط أنفاسها بعد رحلة شاقة ، وقد أطلقت بندقيتى مرات عدة فانهيت حياتها المضطربة •

وركبت شاقا أقصر الطرق الى الأقصر ومن ثم للباخرة • وكنا قد خططنا لفترة بعد الظهر للقيام بأول زيارة لآثار الضفة الغربية ، لكننا اضطررنا لتغيير خططنا بسبب العواصف الرملية وقررنا تأجيل زيارتنا لطيبة الغربية بعد عودتنا من زيارة الشلالات (الجنادل) •

وقضينا جانبا من فترة ما بعد الظهيرة فوق ظهر السفينة وجانبا آخر في الأقصر ، وذهبت مع برجش باشا لزيارة الوكيل القنصلي لألمانيا ، انه رجل قبطي يعمل بتجارة الآثار ، ووجدنا عنده قطعا أثرية أفضل من تلك التي كانت عند الوكيل القنصلي لانجلترا الذي زرناه في الأمس • وقد اشترينا منه قطعا مختلفة قيمة وضعناها فوق ظهر الباخرة • ومما يذكر أن مجموعة المتحف المصرى تنمو بسرعة •

أرمنت :

وواصلنا رحلتنا جنوبا عند شروق شمس اليوم الخامس من الشهر • وبناء على نصيحة بعض الأوربيين في الأقصر قررنا التوقف عند قرية مجاورة هي قرية أرمنت مشهورة بمصنع السكر ، وبكثرة مزارع القصب بها ، وخصصنا عدة ساعات للصيد هناك • وبعد ساعتين وصلنا الى أرمنت ، وقد استقبلنا بعض السادة الفرنسيين المسئولين في المصنع ـ المصمم على النسق الأوربي تماما ـ بحرارة ووضعوا في خدمتنا عددا كبيرا من عمال المصنع كنا نحتاجهم لاثارة الطرائد المختبئة في مزارع القصب الكثيفة ، وأعدوا لنا قطارا كان علينا استقلاله للوصول الى المناطق الملائمة للصيد ، فمررنا في طريق تحفه أشجار الجميز الجميلة بالقرب من المصنع ، وفي غضون دقائق وصلنا لمحطة صغيرة لخط سكك حديدية قصير يربط المصنع بمزارع القصب •

وكان علينا بعد ذلك أن نجمع العمال الذين سيقومون باثارة الطرائد ، وأتى حشد من الفلاحين قادمين من المصنع وتجمعوا مباشرة في عربات خاصة تستخدم لنقل القصب ، وجعلنا أنفسنا في آخر عربة من هذه العربات وبدأنا نشق السهل مخلفين وراءنا البساتين الجميلة للموظفين الفرنسيين ثم مررنا بقرية ريفية بائسة حولها بستان نخيل صغير •

وبعد رحلة قصيرة توقف القطار • ليس ثمة الا شريط ضيق من الأرض الزراعية يفصل النيل عن الصحراء التي تقترب كثيرا من النهر في هذه المنطقة •

وأثار الفلاحون الطرائد فى أقرب حقول القصب ، ولسوء الحظ أن حقل القصب كان واسعا وكثيفا جدا فلم نظفر بما كنا نأمل فيه ، غير أن ذئبا واحدا ظهر واستطاع أن يهرب من مكمنه دون أن يمسسه سوء • وسرعان ما أدركنا ألا جدوى من محاولاتنا فعدنا للقطار ، وفى طريق العودة ــ من خلال القرية التى ذكرتها للتو آنفا ــ أطلقت بندقيتى أثناء ركوبى على نسر من نسور الجيف كان يقف مع نسور أخرى الى جوار منزل طينى • وفى حديقة أحد الموظفين الفرنسيين أرونا حيوانات ابن آوى ، كما أرونا ــ ما يظنه هؤلاء الناس الطيبون ــ أوكارا للذئاب • ولم تكن محاولة احضار كلاب الدشهند هنا مجدية ، فعدنا لباخرتنا بعد ان غبنا عنها فترة وجيزة •

وكان لأرمنت دور مهم فى التاريخ القديم ، فاسمها باليونانية هرمونثز Hermonthis وبالمصرية القديمة اسمها آنمونث Aumonth.

ولأن أرمنت تقع على الضفة الغربية للنيل كما تقع الى الجنوب من طيبة ، فانها بمعابدها المكرسة لعبادة الاله مونت Month (وقد نهب اللصوص المصريون آخر هذه المعابد منذ سنوات قليلة) تعد من بين اقدس المواضع •

وبعد التدهور السياسى لمدينة طيبة ، أصبحت ارمنت عاصمة للطيبيين ، كما كانت أرمنت المقر الفعلى لحكومة السلطات الاغريقية الرومانية فى جنوب مصر • ويوجد ضمن المجموعة الامبراطورية فى فيينا الآن قطع عمود من الجرانيت الأسود كان موجودا على شاطىء أرمنت • وفيما يلى ترجمة برجش باشا للوحة الجرانيتية السوداء الموجودة فى أرمنت والتى تعود الى الملك أمينوفيس الثانى Amenophis II ، حوالى ١٥٦٠ قبل الميلاد وهى مجرد تكرار لما فى معبد Amada فى النوبة :

« فى السنة الثالثة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر أبيب
In the year 3, on the 15th day of the month Epiphi,

تحت حكم حورس المهيب الجليل القوى ،
Under the government of Horus the mighty and powerful bull,

تحت حكم صاحب السلطة الملكية الذى يمتد سلطانه بعيدا ،
Of the possesser of the diadem whose power reaches far,

الذى توج فى طيبة ،
Who Was crowned in Thebes.

تحت حكم حورس المنتصر الذى وحد (مصر) كلها بالقوة ،

Of the victorious Horus who had taken possession by force of all the Country.

تحت حكم المقدس صاحب الفضل ،

of the divine benefactor,

تحت حكم الاله الذى جعل (مصر) ثرية ،

of the Lord who makes Egypt rich.

تحت حكم ملك مصر العليا ومصر الدنيا ، رع ـ آ ـ شبيرو

of the king of upper and lower Egypt, Ra-à-cheperu,

تحت حكم الابن الحبيب لرع ـ اله الشمس ،

of the very own son of the sun-god Ra

تحت حكم حاكم ارمنت الشبيه بالاله ،

of the God-Like ruler of Hermonthis,

تحت حكم صديق خنوم رب فيلة العظيم ،

of the friend of the great good Chnum of Elephantine.

فصاحب الفضل المقدس الذى خلقه رع (الشمس) ملك عظيم منذ ولادته ،

The divine benefactor created by Ra (the sun) is a great king from this birth up.

انه قوى كحورس على عرش آبائه ، ليس لقوته كفوا أحد ،

Powerful as Horus on the throne of his fathers, the strong-armed has none who is his equal.

انه الملك ذو البطش ، (أو ذو اليد القوية) .

That is a king of a strong hand

ليس من بشر يقدر على قياس قوسه ،

Whose bow no man Can Span

سواء من بين المقاتلين التابعين له أو من بين أمراء الشعب أو من بين ملوك أشور .

Neither among his worriis. nor among the princess of the people, nor among the Kings of Assyria,

فقوته أعظم من قوة كل الملوك مجتمعين ·
for his strenth is greater than that of all the kings.

ان غضب صار نمرا (كالنمر) فى غضبته ،
In his wrath he is like the leopard

وفى ساحة الوغى لا يجسر أحد على مواجهته ·
If he head the battlefield there is none that will meet him.

منتصر فى الحروب فهو درع مصر وحاميها ·
Victorious in battle he is a bulwark for Egypt.

تمتزج قوته بالشجاعة ، ويبقى منتظرا فى الشعب فهو يعف عند المغنم ·
Strong in Courage, he waits in the defile the hour of plunder.

يولى أعداؤه الادبار أمامه ،

His adversaries flee before him

لأن قوته تحلق ممتدة فوق كل الناس ، فرجاله جبارون وكذلك خيوله ،

for his power is out-stretched over all people with their mighty men and horses,

واذا أقبل أعداؤه بالملايين لا يساوره خوف ، فالاله آمون هو حارس دربه ·

and if his foes came in millions he need not fear the God of whose path is Amon.

واذا خرج فى حملة تلبس بدنه فى الحال كل قوى البشر ،
if he is on an expedition forthwith man's strength takes possession of of his body,

وأصبح مثل الاله خم chim (بان Pan) (*) يوم الفزع ،
and he is like to the God Chim (pan) in time of herror,

(*) رب الغابات والمراعى والرعاة عند الاغريق وهى قبيح الخلقة · معجم المصطلحات الأثرية لحمد كمال صدقى — (المترجم) ·

فلا يستطيع أحد أن يفلت من قبضته ·
and no man can save himself from his arm.

وكل الشعوب والبلاد أصبحت خدما له ·
all the peoples & countries became his servants.

وكل من يكرهون الملك أصبحوا أسرى لقواه السحرية ·
They that hated the king have become subject to his magic powers,

نعم ، فهذا آكيد ، فقواه السحرية تطولهم حتى آخر فرد فيهم ·
Yea to the very last of them

الجارح وما جرح ، (لا يستطيع جيش أن يوقف تقدمه) ·
His hands give wounds, and no arm can stay him.

ففي ظل أنفاسه — وحدها — تكمن الحياة ·
only in his breath is life.

ملك الملوك ، أمير الأمراء أتى الى هنا بكل سكان المعمورة ·
The King of Kings, the prince of princes has brought hither the inhabi-tants of the utmost ends of the earth.

فهو وحده ينصر من ينصره ، ويؤمن به كالشمس في السماوت
He is the only one, and a champion for those who extol him and acknowledge him as a sun in the heavens.

نظرته مرعبة في الحروب
His glance is terrible in the day of battle.

لا حد لسطوته على الناس والشعوب
No bounds are set to him to the number of the people.

اتحد الغرباء ، لكنهم سقطوا على الأرض من شدة الحرارة ، لأن فمه يزفر نارا محرقة (لأن فمه كالنار المحرقة)
The strangers unite, they fall to the ground at the heat, for his mouth is like a Consuming fire.

لم يفلت منهم أحد ، والذين خروا لم يقوموا
None of them escape, those who fall do not arise.

انهم كأعداد باسمت (ديانا) فى طريق ...

They are like the adversaries of Bast (Diana) on the way of ...

لكن آمون أعطاه الصحة وباركه لانه يعرف أنه ابنه وأنه خرج واياه من جسد واحد ليحكما كل ما ألقت عليه الشمس نورها من شعوب الأرض وبلادها .

But Amon gives health & blessing to him hwo Confesses that he is his son, Sprung from one body with him, to rule whatever the sun encompasses, the people and countries of earth.

فحالما ينظر الى كل هذه الشعوب والبلدان تغدو ملكه بفعل جبروته وقوته .

As soon as he beholds them, they are his possession through conquest and mighty strength

انه الملك الذى يجد المسرة فى قلبه بفضل أعمال الأرباب ، وبناء معابدها واقامة التماثيل (الصور) لهما ، ويجد المسرة لزيادة الأضحيات الطازجة والخبز والجعة بوفرة ، والحمام والدجاج اليوم وكل يوم والى الأبد . و (الأضحيات) من الثيران والمعز فى الأعياد حيث لا مجاعة .

That is the king who finds pleasure in his heart for the works of the gods, the building of their temples, the setting up of their images, in the increase of fresh' scarificcs, bread and beer in abundance, doves and winged fowl for to-day and daily for ever. Of oxen and goats in their seasin (the festivals) there is no lack.

انه يهب المعبد للاله (معبد فيلة للاله خنوم) مزودا بكل شىء : كثير من الثيران والأبقار والدجاج .

He gives the Temle (i.e. the Temple of Elephantine to the god Chnum), Provided with all things, oxen, Claves, and fowl in abundance.

وهذا المعبد مزود أيضا — تأكيدا لعظمته — بالقرابين ، وبالخبز والجعة والنبيذ .

This temple also is provided for in its greatness with offerings, with bread and beer and wine.

وقد أعاد تجديده ليحظى باعجاب البشر واعتراف كل الشعوب ويظل للآباء والآلهة فترة طويلة من الزمن بعد ذلك » .

That which the fathers and Gods long after, he has instituted a new to the admiration of men and the acknowledgment of all peole.



لقد وجد برجش باشا هذا التسجيل الجميل والشائق بينما كنا نمارس الصيد واتخذنا قرارا بضرورة أخذ هذا الجرانيت الأسود عند عودتنا الى أرمنت قادمين من أسوان ·

وواصلنا رحلتنا دون مزيد من التأخير وسرعان ما وصلنا الى نقطة انثنى عندها النيل ثنية حادة ، وتقترب الجبال من المجرى فى الضفتين ، وعند منطقة الجبلة Gebeleh تنحدر الجبال بشدة نحو النهر · والمسيلات (الوديان الصغيرة) ، والصخور والمنحدرات الصخرية لجبل نساح Nissah الشامخ الأجرد شرق النيل – كلها مناظر تتسم بجمال خاص ·

وبينما كنا فوق ظهر باخرتنا النيلية سعداء برؤية الأرض الزراعية الجميلة لمحت جاموسة ميتة على الشاطئ الرملى تحيط بها النسور · واكتشفت – مستعينا – بالتلسكوب نسورا كبيرة زرقاء رءوسها وهى طيور أفريقية خالصة ، الى جانب النسور ذوات الرءوس البيضاء ·

ومما يؤسف له أن الطيور الجبانة لم تسمح لباخرتنا بالاقتراب لتهيئة المسافة المناسبة لاطلاق بنادقنا ، فتوقفنا وذهبت أنا والدوق الكبير الى الشاطئ · واتخذنا من بعض الشجيرات غطاء كافيا وانتظرنا بهدوء آملين أن تعود النسور ذوات الرءوس الزرقاء لاكمال وجبتها ·

يا خسارة ، لم يأت أى منها وانما أتى زوج من نسور الجيف النهمة فأطلقت النار من بندقيتى الخفيفة على واحد منهما ، وأقبل رهط من الفلاحين المستطلعين عند سماع صوت البندقية (لقد كانوا داكنين تماما وغالبهم عراه) ، فعقدت معهم صفقة مؤداها أن يضعوا بعض الجيف – يوميا – فى هذا الموضع وألا يزعجوا الطيور بأية حال من الأحوال · على أمل أن أجرب حظى فى اصطياد النسور ذوات الآذان (الزرقاء رءوسها) عند عودتى ·ووعدنى الناس الطيبون – لقاء الحصول على البقشيش – أن ينفذوا – حرفيا – ما طلبناه منهم ·

وجدفنا عائدين لباخرتنا وتابعنا الابحار جنوبا دون مزيد من التأخير ، وبعد أن مررنا الى الأدنى من تل أجرد فى أعلاه ضريح أحد الأولياء (الشيوخ) القلامى · بدأت الجبال تتراجع عن الوادى فيصبح السهل عريضا شيئا فشيئا ، حتى غدا عند اسنا واسعا حسنة زراعته ·

اسنا :

وقبيل الغروب وصلت سفينتنا الى مدينة اسنا الكبيرة التى تحيطها بساتين النخيل والحدائق الخصبة اليانعة · ولما رست الباخرة ألقينا نظرة

من فوقها استمتعنا خلالها بحيوية الحياة الشرقية وصخبها ، تلك الحياة التي تعج أمامنا على ضفاف النيل ٠

كان المساء بـاردا منعشـا ، بعد أن عانينا من الحرارة الأفريقية الأصيلة التي أعقبت هبوب رياح الخماسين ٠ وبعد أن تناولنا غداءنا غادرنا السفينة فاستقبلنا المدير بحفاوة ، فركبنا الحمير ودرنا حول المدينة لنصل الى معبد شهير بالقرب منها ٠

واسـنا هي مدينة سيني Sini المصريـة القديمة ، وقد أسماهـا الاغريق لاتوبولس Latopolis بسبب عبـادة سـمكة اللاتوس Latus وهي عبادة كانت موجودة في هذه البلدة ، وبها عدد من المعابد والأماكن المقدسـة مكرسة لعبـادة الاله خنوم Chnum ، وثمة بقايا مجاز (ردهة) لا زالت باقية لواحد من أكبر هذه المعابد ، ويقع غائرا الى منتصفه في تربة المدينة الحديثة ٠

ومما يعطي هذا الأثر الذي يعود لزمن الامبراطورية الرومانية أهمية خاصة ما يشير اليه من التقويم المصري القديم القائم على العام السكندري والصور الفلكية في سقفه ٠ وفي ضوء مشـاعل كثيرة رأينا أن صـالة (ردهة) هذا المعبد تبدو بحالة جيدة جدا ، وقد بقينا لفترة طويلة في غرفة مظلمة نستمتع بالمناظر (الصور) الشائقة ، ومما يذكر أن هذا المعبد حديث نسبيا اذا قورن بالآثار الأخرى فهو يعود الى زمن الامبراطورية الرومانية ٠ وفي طريق عودتنا قبلنا دعوة المدير الودود وسرعان ما وجدنا أنفسنا جالسين في الطابق الأرضي لمبنى حكومي جميل ، واسترحنا فوق الكنب divans ودخنا بسعادة وشربنا القهوة وما كدنا ننتهي من تناول هذه التحية التي قلما نعفى منها في (الشرق) حتى فتحت الأبواب ودخلت فتيات خفيفات الخطو ليرقصن مصحوبات بموسيقا مناسبة ٠ لم تكن الفتيات ـ هنا ـ جميلات ، خلا واحدة كانت حبشية ذات ملامح محددة جميلة وبشرة بنية داكنة متالقة ٠ وبعد أن مكثنا فترة يسيرة اسـتأذنا المدير وعدنا للباخرة ٠

الكاب ثم ادفو :

وتابعنا رحلتنا في بكور السادس من مارس وسرعان ما وصلنا الى ممر الكاب El-Kab حيث تقترب جبـال الضفتين من مجـرى النهر بوحشية وشاعرية ٠ لقد كانت المنطقة جميلة ٠ وبعد أن اجتزنا هذا الممر تراجعت الصحراء الغربية (الليبية) لتخلي مكانا لسهل ادفو العريض المزروع بشكل جيد ، بينما استمرت جبال الصحراء الشرقية (العربية)

قريبة من النيل • لقد تغيرت — أيضا — طبيعة الجبال : فبدلا عن التلال المحددة أشكالها والشامخة أصبحنا نرى جبالا من حجــارة رملية تشكل قممها المنخفضة أشكالا ذوات طبيعة خاصة •

وقبـل الظهر وصلت باخرتنـا الى ادفو Edfu فركبنـا عبر بعض الحقول الى قرية بائسة جدا بالقرب منها ، ووصلنا الى أفضل معابد مصر العليا من حيث بقائه مصونا ، وواحد من أفضل وأجمل القطع المعمارية في كل العصور ، وذلك بعد أن مررنا بشوارع ضيقة قذرة حتى وصلنا لهذا المعبد الجليل الذى يقع بين أكوام القمامه والخرائب • وبدانا تفقد المعبد يرشدنا برجش باشا • وادفو هي ديبو Debu او ادبو Edbo المصرية القديمة ، وأسماها الاغريق أبولونوبولس العظيمة Apollonopolis ، ويعد معبد ادفو بالفعل أحد أعظم المعابد وأوسعها ، وقد ظل منذ العصور القديمة حتى الآن محتفظا برونقه ومصونا بشكل يدعو للاعجاب •

والمعبد — بشكل عام — مصمم وفقا للخطة (التصميم) التي ذكرناها آنفا ، ولذا فهو يقدم للمراقب المعاصر أكثر الصور صدقا لبناء المعبد في مصر القديمة •

وهذا المعبد الواسعة أرجاؤه مخصص لعبادة حورس Horu اله النور وهو بمثابة أبولو اليوناني الذى وصفته النقوش بدقة باعتباره اله الشمس في مصر العليا ويتمثل في رأس صقر ويبدو الاله منتصرا على جحافل الظلام ويرمز له بفرس النهر غير المروض • وقد حفرت المناظر في الجانب الداخلي للجدار الذى يمثل الحد الغربي حيث تبين — أي المناظر — معركة اله النور ضد الظلام والشر ، بشكل أخلاقي ، وتذكرنا بالأسطورة اليونانية الشهيرة عن عمال هرقل الاثنى عشر Twelve labour of Hercules • ان ثراء الرسوم والنقوش التى تغطى كل سطوح الجدران الملساء والأعمدة في هذا المعبد تتفوق في محتواها على سائر آثار مصر الأخرى •

فالتفاصيل الدقيقة التي عرضت بها المعلومات تجعلها حقا معينا لا ينضب • انها معلومات تاريخية وجغرافية واثنوجرافية وفلكية ومعلومات متعلقة بنظام الخدمة في المعبد ••• الخ ، وثمة جزء منفصل تماما عن التراث الميثولوجي (الأسطورى) المتعلق بالآلهة ، انها معلومات ثرة يمكن أن تملأ مجلدا سميكا • وطول المعبد — اذا قسناه من جداره الخارجي الذى يحدد حدوده : ٤٣٣ قدما و ٦ بوصات ، وعرض كل جناح : ١٠٠ قدم و٦ بوصات أما ارتفاع كل جناح من الأجنحة فيبلغ ١٠٣ أقدام •

وساحة المعبد وبهوه المعمد يقومان على ثلاثة وثلاثين عمودا ، وهما (الساحة والبهو) يتسمان بالجمال والبهاء ، ويتركان في النفس تأثيرا ، والصالات التي تحاذى اتجاه المحور من الجنوب الى الشمال ، يتلو بعضها بعضا في نظام مفروض حتى تصل الى قدس الأقداس حيث توجد حتى الآن مصلى القداسة الحجرية التي تعود لأيام آخر فرعون وطني
national pharaoh

وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن المبنى كله مشيد على نسق تصاميم قديمة على عهد الملوك البطالمة من سنة ٢٣٧ الى ١٤٢ قبل الميلاد ومن ثم فقد استغرق تشييده خمسة وتسعين عاما ، وذلك وفقا لما تشير اليه النقوش •

وبعد أن تفقدنا كل أرجاء المعبد صعدنا الى سطحه المسطح وألقينا نظرة على النيل والوادى الأخضر وعبر الصحراء التي تبدأ بالقرب من المعبد وعلى ما وراءها من تلال التي تتخذ شكل الأهرامات لقد كان المنظر جميلا •

ولان النسور كانت تحلق فوقنا ، فقد وضعت ذبيحة خلف كومة من الدبش وانتظرت فوق سطح المعبد خلف فتحات في سوره حتى تأتي الطيور الجارحة الكبيرة ، ومما يؤسف له أنه لم يأت الا نسور الجيف فاقنعت نفسي بهذه الغنيمة المتواضعة ، فقد كنا في عجلة لمواصلة الرحلة في موعدها ، فركبنا عائدين الى باخرتنا بعد أن مررنا بقرية بائسة وسلكنا الطريق نفسه الذي وصلنا للمعبد منه •

وما هي الا دقائق حتى واصلت الباخرة ابحارها في مجرى النيل ، وكانت المناظرة مألوفة متشابهة ، وكانت جبال صحراء مصر الشرقية (الجبال العربية) ذات لون أبيض ضارب للرمادى كما كانت منخفضة غير محددة ، وكانت تقترب من النهر كثيرا كلما تقدمنا (صوب الجنوب) فلم تترك بينها وبين النهر سوى شريط ضيق جدا ، وفي بعض الأحيان كان هذا الشريط يختفي تماما •

وجبال الصحراء الغربية (الليبية) منخفضة أيضا ويميل لونها للصفرة وقد اتخذت أشكالا معقدة غريبة • والى الجنوب من ادفو تقترب كثيرا من مجرى النيل باستمرار •

ان الرقعة الخضراء في هذا الجانب أصبحت ضيقة جدا حيث التربة ممتازة لكنها — للأسف — مهملة ، وليس ثمة مدن هنا أما القرى فنادرة •

ومرت أسراب كبيرة من طيور اللقلق فوق الوادى متجهة شمالا وكانت الطيور الجارحة تحلق عاليا أو تتجمع فوق الصخور ، ودجاجات الماء تملأ الضفتين بين الحين والحين • وبعد الظهر استمتعنا بمنظر جبل السلسلة الجميل Gebel-selseleh من فوق ظهر سفينتنا ، وفى المساء — عند غروب الشمس — وصلنا للنقطة الشمالية لجزيرة واسعة كثيفة الزروع • فأبحرت سفينتنا الى الشرق منها وسرعان ما رأينا معبد كوم امبو الصغير ، الا أن موقعه ممتاز • وهذا المعبد القديم يقع على شاطىء النيل فى موضع مرتفع وشديد الانحدار مغطى بالخضرة • ويمكن رؤية هذا المعبد من مسافة بعيدة وليس من مدن قريبة منه ولا حتى أية تجمعات بشرية ، فهو قائم بين النهر والصحراء التى تتقدم هنا على هيئة هضبة مرتفعة الى حافة الشجيرات النابتة على ضفة النهر • وليس ثمة ما يمكن أن يقال له جبل •

معبد كوم امبو :

ولأن الليل كان يزحف ، فقد رسونا الى الأدنى من المعبد : وكان الى جوار سفينتنا دهبية (سفينة أخرى) يشغلها أوربيون • وكان مترجمهم من دالماشيا خبيرا نصحنا أن نذهب بعد تناول العشاء الى المعبد ومعنا عنز نحثها على الثغاء ، ثم تكمن فى انتظار الذئاب ، وأشفعنا قوله بالعمل ، ففى الساعة التاسعة تسلقت مع هويوز الشاطىء المنحدر وتلمسنا طريقنا خلال المعبد المنعزل ، فوجدنا فى جانبه الشرقى عمودا اتخذنا منه غطاء نختبىء خلفه للمراقبة ، وربطنا الماعز — التى راحت تثغو — على بعد عدة خطوات الى الأمام • ولبثنا منتظرين نراقب بحذر بالغ طوال ساعتين • لا شىء يتحرك ولو تحركا يسيرا ، كان المرء يحس بالرهبة رغم جمال المناظر ، فالمعبد القديم بممراته العابسة والصحراء الممتدة لا يحد من امتدادها واستوائها شىء سوى بعض البقايا والأحجار ، وقد بسط عليها القمر الأفريقى سناه — انه قمر حقا لا كالقمر الأوربى الذى يشبه ضوؤه ضوء المصباح الليلى الشاحب (السهارة) • ففى نور القمر الأفريقى المتألق كنور النهار يمكنك أن ترى أصغر حصاة ، فنور القمر الأفريقى لا يكفى الصياد والرياضى فحسب ، وانما يمكن للفنان أن يرسم ويلاحظ ويتأمل فى الليالى المقمرة •

ولسوء الحظ فان الأوربيين القادمين من الدهبية (الباخرة المجاورة لباخرتنا) كانوا يمارسون الصيد بالقرب من مكمننا ورجعوا عائدين متجاوزين المعبد ومعهم دجاجات تصسيح كانوا قد أخذوها معهم لجذب الطرائد ، ومن ثم تلاشى أملنا فى صيد ثمين فأسرعنا عائدين لباخرتنا •

ولا يمكن أبدا أن أنسى هذه الليلة المقمرة فى كوم أمبو (الاسم يعنى تل أمبو ، واسمها الهيروغليفى نوبى Nubi وتعنى مدينة الذهب ، أما الاغريق فأسموها أمبوس (Ombus) ببقايا معبدها ذى الجمال والجلال ، والمطمور الى نصفه فى الرمال ، لا يمكن أن أنسى عاصمة الاقليم الذى حمل فيما بعد اسم أمبيتس Ombites . وهذه المدينة وهذا المعبد كانا مكروهين من سائر المصريين الآخرين ، ففى هذه المدينة كان ست set (يقابل تيفون فى الأساطير الاغريقية) يعبد فى أحد أشكاله (تجسداته) الرئيسية his chief embodiments لذا فان عديدا من تماثيل التمساح ، وهو الحيوان الدال على هذا الاله (ست) ــ موجودة هنا ، كما أنها مذكورة فى الكتابات المنقوشة .

وعند الشروق غادرت سفينتنا كوم أمبو الجميلة متابعة رحلتها الى أسوان . لقد أبقتنا روعة المشاهد على ظهر السفينة ، فقد كانت التلال المنخفضة ذوات التكوينات الجميلة تقترب اقترابا شديدا من ضفتى النهر فى مواضع كثيرة بحيث لا تترك مجالا للزراعة أو تترك مجالا ضيقا . وهنا وهناك متعنا أعيننا برؤية بساتين النخيل الرائعة والشجيرات الكثيفة وخلفها ترتفع الجبال كتلا صخرية وقطعا حجرية مكونة طبقات ذوات طبيعة خاصة .

وكلما اقتربنا من أسوان تغيرت صورة الأرض عما كانت عليه قبل ذلك حول النيل ، وأصبحت المدن أقل ، والقرى أكثر ، ولاحظنا بعض المستوطنات الزنجية Negro لقبيلة أتت من الجنوب ، مندفعة نحو الشمال (المقصود نحو مصر) وثمة أكواخ بائسة من القش على شكل الخيام تحت نخيل البلح ونخيل الدوم date and Dom thepan palms . لقد وطن هؤلاء السود أنفسهم فى مناطق خصبة . لقد كانت صورة للحياة الأفريقية الخالصة قدمت من أعماق القارة ، فقد لاحظنا هؤلاء الناس من خلال التلسكوب : كانوا سودا كالفحم ، وكانوا يجيئون ويروحون بين الأشجار الخضراء وهم عراة تماما .

ويبدأ منظر الأرض حول ضفاف النيل يتغير كلما اقتربنا من الساعة الحادية عشرة ليصبح أكثر تطرفا وأقل استواء ، فقد بدا النيل أمامنا وكأنما طوقته كتل صخرية جبلية : كتل من الحجارة والركام من الصخر تدنو حتى حف النهر ــ الذى أصبح مجراه يضيق شيئا فشيئا ــ من الجانبين . والجبال على الضفة اليمنى (الشرقية) أخلت مكانها ليحل محلها سهل متفرد خال ، تتناثر فوقه كتل الصخر ويظهر خلاله بين الحين والحين أشكال مخروطية مثلمة (غير ملساء) ، وعلى الضفة الغربية تل مرتفع

بشكل ملحوظ يتغمس سفحه فى مياه النيل ، وفوق قمته مبنى قديم ذو طابع معمارى اسلامى ، وسرعان ما ظهرت النخيل ، ومن ثم الحدائق الخضر التى ترقد فى أحضانها مدينة أسوان الصغيرة المضغوطة بين الصحراء والنيل ٠

جزيرة فيلة وأسوان :

وهنا يتشعب النيل الى شعبتين ، وحيتنا جزيرة فيلة Elephantine — المعروفة بغطائها النباتى المدارى — بابتسامة عند اقترابنا ٠ كانت تحيط بالجزيرة الجذابة دائرة من الحيود الجرانيتية السوداء الغادرة ، وكانت النتوءات الصخرية الحادة تبرز من بين أمواج النيل حولها ، وتلك أول اشارة (أو دلالة) للشلالات (الجنادل) القادمة ٠

صخور ذوات شقوق وصدوع ، وصحراء وعزلة ، جلال فى الملامح ، بهاء فى الألوان بين النهر المندفع ، والتكوينات الصخرية الرائعة المهيبة ، ومدنية اسلامية خالصة حيث يختلط الاسلام (*) وأجناس مختلطة من داخل القارة جنبا الى جنب ، وآثار مصرية عريقة وجزيرة جميلة ذات طابع مدارى — كل أولئك أمامنا فى هذه اللحظة ٠ وحملقنا باعجاب فى المنظر الرائع الذى يمثل المرحلة الأخيرة لرحلتنا ، بالقرب من مدار السرطان ، حافة المنطقة المدارية ٠

واتخذت السفينة طريقها ببطء وسط العوائق التى تعترض القناة ٠ وما هى الا دقائق حتى رست عند شاطئ طينى شديد انحداره ٠ وكان معنا فى المرسى باخرة بريد وعدة دهبيات (بواخر نزهة) ، وبمجرد وصولنا غادرنا سفينتنا لنزور المدينة ونتفقدها تفقدا كاملا ٠ انها — بالتأكيد — من أكثر المواضع تشويقا وجاذبية على مدى رحلتنا النيلية ٠ انها مدينة عربية ذات طابع سامى Semitic غالب حقا فى مبانيها وسكانها ، وواحدة من آخر المراكز التجارية ٠ انها مدينة اسلامية فالاسلام دين الدولة من الناحية الرسمية ، لكن من الناحية الواقعية فانى أشك فى ذلك بالنسبة لهذه المدينة (*) ٠

منازلها مشيدة من طين ولها — تماما — طابع مدن مصر القديمة فالشوارع ضيقة وعفنة ٠ الا أن الشوارع الأقرب للنهر تضم بعض المنازل الاعلى ، وبها سوق جديرة بأن يراها المرء ٠ أما الأحياء الأخرى (البعيدة

(*) يستخدم الارشيدوق كلمة الاسلام فى أكثر من موضع للدلالة على الجنس او العرق وليس مجرد دين ، وهذا — كما لا يخفى — غير صحيح — (المترجم) ٠

نسبيا عن النهر) فتتكون من مساكن طينية بائسة وبها أركان تتخذ كل الأشكال غير المنتظمة • ويحيط بجزئها الشرقى سور تهدم فى أكثر من جزء من أجزائه وتلتصق به بقايا مقابر اسلامية تشغل منطقة واسعة •

وكان السوق هو أول مكان نتوجه لزيارته • انه طريق محفوف من الجانبين — تماما — بالزرائب والاصطبلات ، ومسقوف بالألواح الخشبية لحجب الشمس • والتجار فى المحلات عرب بأثوابهم الشرقية الطويلة وعمائمهم • والبشر الذين يتحركون جيئة وذهابا ويحضرون بضائعهم للسوق ويتعرضون لغش الساميين الماكرين Cunning Semite وخداعهم — ليسوا شرقيين ولا حتى فلاحين • والبدو أيضا لا وجود لهم هنا ، الناس من جنس أفريقى خالص : كثيرون منهم زنوج negroes ونوبيون داكنو البشرة ، وسلالة الاثيوبيين القدماء والعبابدة والبشا Beshas ، وكل القبائل الصغيرة ذات الأصول الكوشية Kushite .

لقد وصلنا لطرف الشرق القصى ، فهنا يزدهر المكان كمدينة تجارية لنقل المنتجات الأفريقية شمالا من خلال نهر النيل • .

والمنتجات الشرقية الأصيلة كتلك التى رأيناها فى الموسكى فى القاهرة غير موجودة هنا ، أما المواد الخام المدارية فمطروحة بكثرة فى محلات ضيقة •

ريش نعام أبيض ورمادى ، قرون الوعل ، جلود الأبقار الوحشية وجلود الغزلان ، وأغطية من جلود النمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ، وبيض ، وفواكه مدارية وصمغ وبهارات وأسلحة أفريقية ، وعصى يستخدمها الجمالون ، وحلى كالتى يلبسها الزنوج وأدوات للابس النسوة النوبيات — مثل خيوط يصنعون منها حبالا منقوعة فى سوائل ذات رائحة بشعة لطرد الذباب ، وقبعات من قش ترتديها القبائل المتبربرة وبعض الأشياء التافهة المختلفة •.

ورأيت على أبواب بيوت كثيرة تماسيح صغيرة محنطة (محشوة) ومثبتة بالمسامير ، كما رأيت قرودا مستأنسة تجلس عند مدخل بيوت أخرى • وقد اشتريت بنفسى واحدا منها أمتعنا كثيرا وسلانا ، ومما يؤسف له أنه مات بعد ذلك فى القاهرة •

العبابدة :

لقد كانت الحياة فى السوق شائقة جدا ، وقد لفت نظرى — على نحو خاص — العبابدة بمنظرهم المحارب فهو مدججون بالسلاح ملتفون

بأسمالهم القليلة ، وقد صففوا شعورهم بطريقتهم الخاصة التى ذكرناها آنفا ٠

وراح الجميع ينظرون الينا نظرات وحشية فضولية ، وقد باعنا العرب الماكرون بلؤمهم البارع بضائع أفريقية بأسعار باهظة ٠ لقد ربحوا — بدهاء — من وجودنا بينهم ٠

وفى ساحة مكشوفة بين المساكن والمرسى رقص العبابدة أمامنا رقصة الحرب ٠ وهذه الرقصة لا تعدو أن تكون قفزا وحشيا هنا وهناك ، يمارسها قوم متوحشون فى أدنى درجات التطور ، والموسيقا المصاحبة لا تزيد عن كونها قرعا مرعبا بنواقيس معدنية ذكرتنى بالصلصلة المصاحبة لرقصات العبيد الزنوج فى مراكش ، لكن الرقص نفسه يشبه الرقص غير المنضبط الذى يمارسه قراصنة منطقة الريف فى الساحل الشمالى الغربى لأفريقيا ٠

لقد كان العبابدة المحترمون يقفزون بكل ما أوتوا من قوة ويصلون بقفزاتهم الى ارتفاعات لاتصدق، وهم — أثناء ذلك — يصيحون ويصرخون ٠ ويهزون سيوفهم ويدفعون رماحهم بعنف عاليا ، ويضربونها بشدة فى تروسهم الجلدية ، ويقوم الواحد منهم بهجوم غير حقيقى على رفاقه ٠

لقد كان هؤلاء البشر (المخلوقات) ببشراتهم البنية الداكنة وملابسهم القليلة حتى انه ليمكن وصفهم بأنهم أنصاف عراة ، وبشعرهم الذى تتخلله قطع خشبية ، والمستشزر فى كل اتجاه كأنه أشعة ، وبالحلقات المعدنية فى آنوفهم وآذانهم وحول أذرعهم — يبدون وكأنهم صورة خيالية تمثل خليطا وحشيا ٠

وبعد هذا العرض ركبوا جمالهم بسرعة غير مألوفة ، وقد اشترك الشباب منهم فقط فى هذا العرض ، أما كبار السن فقد وقفوا وقد ظهرت أسنانهم البيض المتالقة من بين شفاههم الداكنة وابتسامة الرضا تشع من وجوههم ٠ وبعد فترة عدنا للباخرة محملين بالبضائع التى اشتريناها وبفيض من الانطباعات الجديدة ٠

وأثناء تناولنا الافطار حلقت الحدءات بأعداد كبيرة فوق السفينة ، اذ كانت نهمة تبحث عن قطع الخبز الملقاة فى الماء ، وحتى طلقات البنادق لم تستطع ابعاد هذه الطيور النهمة ٠ وبعد انتهاء وجبتنا بدأنا فورا — مرة أخرى — نزهة الى المحاجر التى حققت شهرة منذ الأزمنة القديمة ٠ فركبنا بسرعة ومررنا خلال المدينة ، وعند آخر كوخ بائس بها كانت الصحراء الخالصة فى انتظارنا برمالها البيضاء وانعكاساتها الحارقة ٠

الوادي عند أسوان عريض لكنه غير مستو وتحيطه التلال حيث أضرحة الأوليـاء ٠

وهنا أيضا مقابر الخلفاء وبعض الطواحين وثمة بعض شواهد القبور لكنها ـ أى الشواهد ـ بائسة لا تدل على الفخامة ، وقبور الأولياء قبابها تشبه قباب المساجد ، لكنها ـ أى القبور ـ غير مصونة صيانة جيدة ٠

لقد ركبنا في الشمس المحرقة على طول الجانب الشمالى (؟) للوادى العريض خلال المقابر غير المنظمة ، لكنها أكثر جاذبية طبيعية من مقابر القاهرة الواقعة أدنى القلعة ٠ فالتلال الجرداء التى تقترب من الوادى والصحراء ذات الأحجار البيضاء والصخور الصلدة ، والألوان الزاهية التى زاد بهاءها أشـعة شمس الظهـيرة الأفريقية ـ كل أولئك قد طبع المكان بطابعه ٠

لقد ركبنـا في الحرارة اللاهبة على طول الجانب الشمالى للوادى العريض خلال مدينة الموتى التى تعج بفوضى هائلة ٠ وبعد برهة أضحت المقابر شيئا فشيئا أكثر تفرقـا وتبـاعدا حتى اختفى كل أثر من عمل الانسان ٠

ليس من بادرة عشب هنا تسعد العين ، فلا شيء سوى الأحجار العارية والرمال والغبار ، وفي الوقت نفسه فان الصحراء ليست مستوية وانما اتخذت شكل تلال يتلو بعضها بعضا ٠

وثمة بعض الكتل الجرانيتية ذوات الأشكال المتفردة مما يشـير لقربنا من المحجر ٠ وسرعان ما وصلنا لمنحدر صخرى شاهق ، أدناه مغطى على نحو ما بالأحجار المكسرة حيث توجد مسلة ، وأترك صـديقى برجش يحدثنا عنها وعن أسوان بشكل عام :

« أسوان (بالمصرية القديمة سوان Suan وباليونانية سين Syene) تمثل آخر مدن مصر صوب الجنوب ، ويسكنهـا الآن العرب والمصريون ويزورها خلق كثير من قبائل الصــحراء التى تجول فى صحراء مصر الشرقية حتى سواحل البحر الأحمر ٠ وصخور المنطقة الجرانيتية التى تبدأ من هنا مغطاة بكثير من النقوش التى تعود لمختلف الحقب والتى تؤكد بوضوح مرور المسئولين المصريين عبر هذه المناطق ٠ وبناء على أوامر الملوك الفراعنة فان المحاجر الثرية الواقعة الى الجنوب الشرقى من أسوان (والتى تعرف باسم الجبل الأحمر) قد عمل بهـا آلاف العمال راحوا يقطعون منها الأحجار لعمل المسلات والتماثيل والمعابد والألواح الحجرية

المختلفة . وثمة مسلة لم تكتمل مطروحة هنا تنتظر ــ عبثا ــ تعليمات منشئها .

ومنذ أيام الفراعنة تعرضت هذه المحاجر للاهمال ، فالمنحدر الصخرى المهشم وكتل الصخر المتزوعة منه تحمل شواهد على حضارة انتهت منذ عهود سحيقة كانت موجودة فى هذه المنطقة منذ آلاف السنين .

وعند مدينة الموتى (المقابر) انقسمت مجموعتنا الى قسمين : مجموعة ركبت عائدة للباخرة ، بينما تسلقت أنا مع هوبوز تلا متوسط الارتفاع صخريا أجرد تماما يحيط بالوادى قرب أسوان .

وعلى قمة التل يقع قبر أحد الأولياء (الشيوخ) على شكل مبنى له عقود دائرية ، وكنا قد وضعنا فى وقت سابق ذبيحة (طعما) الى جواره لجلب النسور التى تحلق عاليا .

وكنا فى موقع ممتاز ، وما هى الا دقائق حتى راحت الحدءات ونسور الجيف تأكل فى الخروف الميت ، ولم تصل الجوارح الكبيرة فاكتفيت باطلاق بندقيتى على واحد من نسور الجيف فلم يكن لدينا الوقت الكافى للانتظار .

وخرجنا من القبور العابسة فاستمتعت عيوننا بمنظر سنى تماما ، فالى الشمال ــ أدنى منا مباشرة ــ يقع وادى النيل الضيق تحيطه الجبال ، فالنهر يشق طريقه خلال شقوق الجنادل (الشلالات) شقا ، وخلفنا جزيرة فيلة المدارية وأسوان ذات الموقع الجميل ، ومدينة الموتى العابسة ، وحول كل ذلك ــ غير بعيد عنه ــ ما لا حصر له من الجبال والوديان والسهول والهضاب والتلال المنعزلة الجرداء وصحراء الرمال الحقيقية ــ كل أولئك قد لمسته أشعة الشمس الحمراء ، فغدا أبيض محمرا ، لا يقطع هذا اللون ويحول دون استمراره سوى بعض الصخور البرتقالية أو الجرانيتية السوداء ، هنا وهناك ، ومن فوقنا سماء زرقاء خالصة الزرقة رائقة كالبلور لا تعكرها سحابة . وعدنا بسرعة الى أسوان .

وساحسن صنعا فاترك برجش باشا يحدثنا عن جزيرة فيلة :

« فيلة بمقياسها الذى يعود للعصر الرومانى ، وبآثارها التى تعود لبواكير التاريخ المصرى ــ لا يزورها المسافرون الآن الا للاستمتاع لموقعها الجميل المتميز عند مدخل بوابة الجنادل (الشلالات) ، فقد ولت عظمتها السابقة منذ انمحت عاصمة منطقة النوبة ــ التى كانت قائمة فوق الجزيرة ــ بما فيها من تماثيل ومعابد :

.. ففي هذه البقعة كانت توجد حتى العصر الروماني حامية قوية ، كان منوطا بها حماية المنطقة من الغارات القادمة من الجنوب • والسور القديم في الطريق من أسوان الى جزيرة فيلة شيد للغرض نفسه ، فهو بمثابة متاريس ضد غارات السلب القادمة من الجنوب ، وبقايا هذا السور ـ المطمور نصفه في الرمال ـ يمكن حتى الآن تتبعها » •

وغادرت مع هويوز ـ مرة أخرى ـ سفينتنا ، فقد كانت الشمس تغرب وماجت المنطقة في فيض من الألوان الجميلة •

وقادنا رجل نوبي في ثوب أبيض ويحمل بندقية طويلة ، ومعروف كصياد في أسوان ـ قادنا خلال المدينة حتى وصل بنا الى أبعد منازلها ، ونصحنا أن نكمن هناك لدقائق قليلة لأن الحيوانات المفترسة تنتظر طرائدها خارج أسوان كل ليلة بعيد الغروب •

الكلاب تنبح ، والأطفال يصرخون ، وجماعة من العبابدة يصيحون وهم في طريقهم لمساكنهم في الصحراء ، ورغم كل ذلك ظهر واحد من حيوانات ابن آوي على تل صغير واختفى سريعا بين الأحجار • ولأن حمرة الشفق آخذة في التلاشي فقد أسرعنا داخل مدينة الموتى (المقابر) ، كان ابن آوى يجرى غير بعيد فأطلقت بندقيتي فتمدد • وبالقرب من منفج التل ـ الذي أطلقت فوق قمته بندقيتي بعد الظهر فأصبت واحدا من نسور الجيف ـ وغير بعيد عن آخر القبور ، يوجد حوض قديم تحفه التلال الرملية في واد صغير •

وكنا قد أمرنا بوضع طعم (ذبيحة أو حيوان ميت) في هذا المكان ، وكنا في موضع مجوف ، كان القمر مرتفعا يغمر بنوره المنظر الجليل المخيف ، فقد كان الصمت والموت يحكمان المكان ، صحراء ومقابر شيوخ (أولياء) قدماء وقباب وشواهد حزينة • ليس من صوت يقطع حبل الصمت سوى نباح كلاب القرية وعواء حيوانات ابن آوى •

لقد مكثنا ـ بشق الأنفس ـ حوالي نصف الساعة في هذا المكمن غير المريح فأحسست بحفيف حيوان يأتي نحوى ، ورأيته يتحرك كالظل أكثر من مرة ، فلما اقترب وظهر شكله الخارجي صوبت بالدقة التي أستطيعها وأطلقت لأجرب حظى ، فكان صوت عواء مرير حزين هو اجابة طلقتى ، فلما أسرعت اليه وجدت أنني أصبت ذئبا يبذل قصارى جهده ـ بالم ـ ليزحف بعيدا ، فالقمت الحيوان المتين العنيد طلقة أخرى فانطرح أرضا •

وحملته في حقيبتي وسرت نحو رفيقي مائة خطوة فقد كان يكمن في مكان آخر ، لقد كان الذئب الذي يبدو وكأنه مات ـ ثقيلا ، وكانت حرارة الليل شديدة ، فطرحت حملي وانتظرت حتى يأتيني الصياد النوبي •

وما هي الا ثوان بعد أن طرحت حملي على الأرض حتى تحرك الذئبه مرة أخرى وناضل حتى وقف على قدميه لكن طلقة ثالثة أخمدته للأبد •

وسرنا الآن بغنيمتنا الكبيرة المكونة من ذئب وواحد من حيوانات ابن آوى ، وعدنا للسفينة حيث تناولنا عشاءنا ، أما بالنسبة للدوق الكبير واشنباخر فقد كمنا في مبنى على شكل قبة في الجانب الآخر من المقابر ، لكنهما لم يحققا ــ لسوء الحظ ــ نجاحا •

وفي الثامن من شهر مارس بدأنا في الساعة السابعة صباحا ، فركب معظمنا حميرا ، أما أنا وهوبوز ففضلنا أن نجرب ركوب الجمال ، ودرنا حول أسوان ووصلنا سالكين طريقا موجزا ــ عبر المقابر ــ الى الصحراء • كانت الوديان والتلال والرمال والصخور والمسيلات تتعاقب تعاقبا بعث فينا البهجة •

وأدى بنا مسيل عميق الى الوادي الضيق للنيل الذي تحفه تلال مختلفة خشنة على جوانبها كتل جرانيتية سوداء ، ومن موقع وقفنا فيه ــ كيفما اتفق ــ طالعت عيوننا منظرا رائعا : كتل صخرية داكنة عابسة ، النهر يندفع بسرعة خلال المضــــايق ، جزيرة فيلة الخضراء ، والبقايا الشامخة لمعابدها ، والى الجنوب يصبح الوادي عريضا وعلى ضفتيه زروع كثيفة • كل هذا تجلى أمامنا في لحظة • اننا في النوبة ، وبالقرب من الجزيرة تقع قرية نوبية بائســة من أكواخ طينية • انها قرية شـــلال Shallal ، وخرج كل أهل القرية بثيابهم كاملة أو بثيابهم الداخلية ــ من مساكنهم البائسة •

ومررنا على طول صخور داكنة وأشجار جميز حزينة ونخيل حتى وصلنا لسهل صغير فوجدنا بعض القوارب ، وثمة بعض الجنود النوبيين في ثيـــابهم الرسمية يقفون للحراسة ، وكانت ملابسهم بيضــاء خالصة ومصممة تصميما أوربيا • وللوهلة الأولى سعدنا بقربنا من جزيرة فيلة الجميلة التي قدمت لنا نفسها محاطة بكتل صــخرية ملونة تنبثق من الماء ، وركبنا قاربا كبيرا مرتفعة جوانبه وجدف بنا عدد من النوبيين راحوا يغنون وعبروا بنا للجزيرة •

أما شكل القارب فقديم ربما يعود تصميمه الى أيام كليوباترا • كانت مقصورة القارب بأرائكها الناعمة وستائرها الحمراء التي تحمي من الشمس قد جعلتنا نضحك من هذا القــارب الذي يقوم بدور البارجة النيلية •

وفي غضون دقائق قليلة وصلنا لشاطيء الجزيرة المنحدر وأسرعنا صاعدين المنحدر ــ بشجيراته الكثيفة ــ نحو المعبد الجميل ٠

ومباني المعبد في هذه الجزيرة الجميلة التي كانت معروفة لدى المصريين القدماء باسم بيلاك Pilak ــ تعد حديثة نسبيا ، فقد تم تشييدها في ظل البطالة والرومان على نسق التصميمات القديمة ، وقد تم تشييد المراسي الحجرية للسفن في الجزيرة بطريقة تنبيء عن معرفة عملية بطبيعة النهر (عمارة النهر river architecture) ــ خاصة ان الجزيرة غير بعيدة عن المساقط المائية waterfalls والتيارات المائية العنيفة ٠ ومع أن أبنية المعابد في الجزيرة ذات قيمة غير عالية ــ على نحو ما ، الا أن تأثيرها الكلي وصفوف أعمدتها ، ومبانيها ذوات الصحون (الباحات المكشوفة) ، وسط بقايا المنازل المتهدمة والنخيل والشجر الأخضر الجميل ــ كل ذلك حباها جمالا لا يمكن التعبير عنه ٠ فسطوح المعبد ترتفع في تناقض مدهش مع الكتل الصخرية الداكنة التي تحيط في هذا الموضع بالجانب الآخر من مجرى النهر ٠ وفوقنا القبة السماوية الزرقاء في بلاد الجنوب هذه بنورها المتالق الذي يغمر المشهد كله ٠ كل شيء من بقايا العالم القديم لم ينمح تماما ــ يموج في النور ٠

راعية بلاد النوبة ــ الربة ايزيس Isis ــ كانت تحظى بقداسة خاصة في هذا المكان ٠ فالمصريون والنوبيون ــ على سواء ــ كانوا يضحون على مذبحها ويوقرونها ٠ ويقدم معبدها برسومه المتالقة على الجدران والأعمدة ــ حتى الآن ــ فكرة واضحة عن هذه العبادة ــ بألوان زاهية ! ٠

وعندما هجرت معابد ايزيس وغمرها النسيان ، شيدت المسيحية الوليدة هنا احدى أقدم كنائسها وكان البرابرة النوبيون Nubian Barabras يزورونها (يحجون اليها) بحماسة دينية ٠ أما الآن فانهم قد هجروا عقيدة آبائهم المسيحية وذكرى عقيدتهم الأولى التي لم يبق لها أثر الا في كلمة من كلمات لغتهم وهي كلمة كيراي Kiraye (باليونانية Kyriake) وتعني يوم الأحد ٠

فالبرابرة (النوبيون) أصبحوا الآن مسلمين بكل ما في الكلمة من معنى ، لكن موطنهم القديم ــ وجزيرة فيلة في وسطه ــ بقي كما هو ٠

وبعد ان زرنا كل أرجاء المعبد اتجهنا الى أقصى الطرف الجنوبي للجزيرة عبر بقايا كثير من الجدران والأسوار القديمة ٠

وفى الطرف الجنوبى للجزيرة ثمة درجات من أحجار داكنة تفضى للنهر ، من بينها منبسط (حجر منبسط) يعود للتاريخ المصرى القديم ، وثمة حشائش طويلة وشجيرات كثيفة تنمو حول هذا الحجر الداكن •

وبقلب حزين آسف تسلقت ـ بجهد ـ آخر حدود المنحدر ـ وألقيت نظرة على النيل المقدس والوادى العريض وحقول النوبة • لقد وصلنا لآخر نقطة قررناها لرحلتنا فى هذه الأنحاء صوب الجنوب •

مدار السرطان ، حـــدود النوبة ، والكوكبـة الجنوبيـة Southern Cross ، والقبـــة السمــاوية الزرقاء الصافية ـ كل أولئك كان يغرينا بالاستمرار جنوبا لكن كان علينا أن نعود متجهين شمالا ، فعدنا راجعين لعيد ايزيس ، وقلوبنا مثقلة حزينة •

★★★

تعليقات المترجم عـلى الفصل الرابع

(١) عالم ألماني في الآثار المصرية ، عمل ناظرا لمدرسة اللسان المصري القديم (اللغة الهيروغليفية) التي أنشئت سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٦ ، وقد تخرج في هذه المدرسة بعض علماء الآثار منهم أحمد كمال باشا ، وقد أثرى بروجش باشا هذه الرحلة بترجمة كثير من النصوص الأثرية المهمة ·

عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٠٥ ·

(٢) نجد في كتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية دراسة مفصلة عن الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين ، وفيما يلي موجز لهذه الآلات كما وردت في الترجمة العربية التي قام عليها الأستاذ زهير الشايب (ج ٩) ·

ــ العود :

قدم بعض علماء الحملة الفرنسية دراسة تفصيلية عنه ذات طابع تاريخي وفني ، ورغم الاختلاف في التفاصيل فلا نجدها تختلف عن الآلة المعروفة بيننا الآن بهذا الاسم ذاته راجع التفاصيل في ترجمة زهير الشايب ج ٩ (صص ١٥ ــ ٤٠) ·

ــ الطنبور التركي الكبير :

يطلق اسم الطنبور على آلة موسيقية تشبه الماندولين في أوربا ، وأوتار الطنبور معدنية ولها ملامس ثابتة تتكون من ثقوب عدة ويستخدم العازفون عليها ريشة عزف من قطعة خشب ملساء أو ريشة نسر جافة ــ (ص ٤٢) ·

ــ الطنبور الشرقي :

وصلت هذه الآلة لمصر ــ غالبا ــ من آسيا ، وربما من فارس بالتحديد وهو يشبه الكمثرى ويميل الى التسطح بعض الشيء ، وبها ٢١ ملمسا ، وخمسة أوتار ثلاثة منها من النحاس الأصفر واثنان من الصلب (صص ٦٣ــ٧٢) ·

ــ الطنبور البلغاري وهي بالتمام الماندولين البلغـاري ، وهي آلة تغطى بكثير من الزخارف ، وهو أصغر حجما من الطنبور التركي الكبير ، والطنبور الشرقي ، وله ١٢ ملمسا من أوتار معي الحيوان ، ولها ثلاثة أوتار من الصلب ووتر من النحاس ــ (صص ٧٥ ــ ٧٧) ·

ــ طنبور البزرك (بفتح الباء والراء) :

وكلمة بزرك تعني بالفارسية الكبير ، لذا فهذه الآلة بمثابة ماندولين كبير فارسي ، وهي أكثر تعقيدا من الطنبور الشرقي وأكثر بساطة من الطنبور التركي الكبير ، وبه ستة أوتاد (عصافير) وستة أوتار وسبعة وثلاثون ملمسا وهو يشبه نصف ثمرة الكمثرى (ص ٨١) ·

ـ طنبور البغلمة (بفتح الباء) وهو مصغر الطنبور البزرك (ص ٧٩١) .

ـ الكمنجة الرومى (اليونانى) ، وهى الكمان المعروفة **Violon** .

ـ القانون .

ـ السنطير (وتكتب بالصاد ايضا) ، وهى الة يشيع استخدامها بين المسيحيين واليهود ، ويتكون من صندوق مسطح مصنوع من الخشب على شكل معين وله جانبـان مائلان وله وتران من معدن ينقران بعصاتين صغيرتين من الخشب ـ (صص ١٤٢ ـ ١٤٣) .

ـ الكمنجة العجوز ، والكمنجة الفرخ أو الصغيرة ـ (صص ١٥٠ ـ ١٧٧) .

ـ ربابة الشاعر (بوتر واحد) وربابة المغنى (بوترين) (ص ١٨٢) .

ـ الكيسار (القيثارة الاثيوبية) ، وهى منتشرة بين الاثيوبيين والنوبيين الذين يعملون كبوابين وحراس للمحال . وتسمى أحيانا جيزركة فى النوبة (صص ١٩٥ـ٢٢٠) .

ـ المزمار المصرى (صص ٢٢٥ـ٢٤٧) .

ـ البوق (أو النفير) صص (٢٦٣ ـ ٢٧٥) .

ـ الناى المصرى ذو المنقـار (شبابة) (صص ٢٧٥ ـ ٢٨٠) .

ـ مزامير القرب ـ (ص ٣٢٦) .

ـ آلات الايقاع الصاخبة ، وسنطيل العرض فى هذه الفقرة من الحاشية لأن الالات المذكورة هنا هى التى اشار اليهـا الامـير عنـد زيارتـه لفرق الدراويش او الطرق الصوفية ، الصلاصل أو الجلاجل أو الصنوج والضارب على الصنوج يسمونه (صناج) . وتستخدم الراقصات المصريات الكاسات والمفرد كاس وتسمى ايضا الصاجات ، ومنهاك الدفوف وهو على أنواع منها الطار والرق . وثمة سبعة أنواع من الطبل يهمنا منها طبلة المسحر وطبلة الشيخ وتسمى طبلة المسحر باسم الباز ويتم الضرب عليها بعصى صغيرة من الخشب ويسعى كثير من الطرق الصوفية (طوائف الفقرا) الى تنظيم حركاتهم ورقصاتهم أو اذكارهم على صوت هذه الالة ، وهو ما تفعله على سبيل المثال طرق الملاوية (نسبة الى جلال الدين الملاوى من ملاو بالغرب) والشناوية (طريقة أحمد البدوى) والعلوانية (يضربون انفسهم بالسكاكين والاحجار فى مناسبات بعينها) والبرهامية (طريقة ابراهيم الدسوقى) والسعدية (نسبة الى سعد الدين الشيباوى من العراق) والخلوتية (اسسها ابو اليزيد البرهامى) ... الخ .

(٣) لا يختلف رأى رملف فى الراقصات المصريات عن رأى علماء الحملة الفرنسية ، يقول فيوتو أحد علماء الحملة . « ... انهن يقمن بالغناء بمصاحبة نوع من الدفوف تسمى بالعربية : طار أو دربكة ... والراقصات العموميات يسمون بالغوازى ، ويظهرن فى الاماكن المطروقة كثيرا ... ورقصاتهن لا تقيم سوى مشاهد مثيرة للغاية ... ومن العسير أن نصف هذا النوع من الرقص بلغتنا فى دقة فلا أحد يستطيع أن يتخيل مدى فحش حركاته ، ويعبر هذا الرقص الذى لا تكاد تسهم فيه سوى القدمين وأعلى الجسم بأكبر التبذلات جسارة ـ عن الانفعالات الجامحة التى يمكن أن تحدثها الشهوة فى النفس ، والافعال التى يمكن أن تؤدى الى تصاعد عاطفة شبقة ودغدغة بالغة القوة لرغبة حسية ملحة ... وتكاد تحاكى تشنجات الوصال ... وتمثل كل ما فى الخلاعة من عهر ... انه

بمثابة تمثيل صامت خليع .. ويصاحب الرقص رنات الأجراس النوبية .. وتمسك الراقصات بالصناج بين أصابعهن ... » .

وصف مصر جـ ٨ ص ١٥٥ ـ ١٥٨ .

(٤) تشير كتب التاريخ القديم المتداولة الى أن سيزوستريس هو سنوسرت الثالث ، من الأسرة ١٢ ، وأنه أمن حدود مصر الجنوبية حتى ما وراء الجندل الثاني وأسس لذلك قلعتي سمنة وقمنة ، وأنه طهر مجرى النيل الى منطقة الجندل الأول لييسر ابحار السفن وأنه وصل النيل بالبحر الأحمر بقناة عرفت باسمه « قناة سنوسرت » وأسماها اليونانيون قناة سيزوستريس وهو اسم سنوسرت باليونانية .

(٥) يقول دى بوا أحد علماء الحملة الفرنسية بصدد حديثه عن القصير وما حولها : « . . . ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة (الصحراء الشرقية) شعب يستحق ـ بسبب تشابهه مع سكان الكهوف القدامى ـ أن ندخل فى بعض التفاصيل عن عاداته وتقاليده ، ونقصد بهذه المجموعة البشرية : العبابدة ، وهم أبناء قبيلة جوابة تشغل الجبال الواقعة الى الشرق من النيل ، فى جنوبى وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف فيما مضى باسم « سكان الكهوف » Troglody tique .
وتمتلك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن (الشرقى) للنيل أهمها دراو ، والشيخ عامر ، والرديسية . ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العبابدة مبلغ ٢٣ مدينى عن الجمل المحمل ومكيالا صغيرا (١/٢٤ من الأردب) من القمح أو الفول أو الدقيق أو الشعير ـ حسبما يحمل الجمل ـ كما يأخذ العبابدة عينا ١/٢٠ من الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى من تلك الأنواع التى تصل الى القصير . وقد أقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحى هذه المدينة (القصير) بقصد منع أى نوع من التهرب من الاتاوة ، وكان العبابدة ملزمين فى مقابل هذا بالسهر على تأمين الطريق وحماية القوافل ، ولكنهم لا يتعهدون مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب عربان الحويطات الذين ينتشرون فى هذه الصحراوات حتى قلزم السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين (العبابدة والحويطات) حرب مستمرة منذ زمان لا تعيه الذاكرة .

وفى وقت معين عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى التى يقدمها التجار أكواما هائلة وسط المخيم ، يكثر عدد العبابدة الذين يجتمعون لتقسيمها بينهم ولا يخلو الأمر من مشاحنات .

وعدد الخيول لديهم قليل ، فهم لا يركبون الا الهجين ... ولا تشبه سروجهم السروج المستخدمة فى مصر اذ تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة بسيور من جلد ... وفى العادة يبسط فوقه فرو خروف .. ومن فوق هذه السروج لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصانا ، ولكنه يكون جالسا وساقاه ممتدتان للأمام : تستقران أو تتشابكان فوق رقبة الحصان . ويربى العبابدة عددا هائلا من الجمال ... والعبابدة مسلمون ، ولكن البلاد التى يقطنونها والحياة النشطة التى يحيونها على الدوام لا تمكنهم من اتباع كل مبادىء الاسلام بدقة واخلاص ... ويتباهى العبابدة بأنهم شعب محارب ، فاذا سألت أى واحد منهم عن نفسه بادر قائلا : أنا جندى ... ويزعمون أنه يمكنهم تجهيز ألفى رجل رجل تحت السلاح وقد يكون فى هذا مبالغة .

... ويختلف العبابدة اختلافا تاما فى تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم وبنيتهم عن القبائل العربية التى تشغل ـ مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة

يحلقون رؤوسهم ويرتدون العمامة ولديهم أسلحة نارية ورماح يبلغ طول الواحد منها من اربعة الى خمسة امتار وسيوف مقوسة ... اما العبابدة فسود البشرة لكن ملامحهم تتشابه كثيرا مع ملامح الاوربيين وشعرهم جعد بشكل طبيعي لكنه ليس كوبر الصوف وهم يحتفظون به طويلا يتدلى على اكتافهم اذ هم لا يحلقون رؤوسهم مطلقا ، (لم يشر الى قطع الخشب فى رؤوسهم كما تحدث ردولف ، ولعل ردولف رأى طائفة منهم على هذا النحو) وتنحصر ملابسهم فى قطعة من القماش يعقدونها اعلى الكليتين ولا تتدلى لأبعد من منتصف الفخذين ... ويدهنون اجسامهم بالدهون ويضعون كمية منه فوق رءوسهم .. وشيوخهم هم وحدهم الذين يرتدون العملمة فى بعض الاحيان بالاضافة الى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب . وليست لدى العبابدة أسلحة نارية على الإطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحد منهما ١٦٠ الى ١٨٠ سم وبسيف مستقيم ذى حدين وبسكين مقوسة يعلقها الواحد منهم فى ذراعه اليسرى ويحمل ترساً مستديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ما بين ٦٠ و ٧٠ سم . ويعرف العبابدة اللغة العربية بالاضافة الى لغتهم الخاصة ، وربما كان العبابدة منحدرين من اصلاب تلك الشعوب الجوالة التى كانت تمتلك هذه المناطق فى الزمن القديم والتى حدثنا عنها المؤلفون القدامى مثل استرابون وديودور الصقلى (هذا الاستثناء يناقض ما ذكره ردولف وذكر انه سمعه منهم وهو انهم كوشيون من أصول آسيوية) فالصفات التى ذكرها المؤلفون القدامى تنطبق عليهم ، فقد وصفوهم بانهم سكان الكهوف وانهم كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد ورماحا وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكليتين ، كما كانوا يمارسون الختان . وأخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون الحجارة فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام ، ولازال العبابدة حتى اليوم يمارسون الطريقة نفسها فى الدفن .. وقد لفت البعض نظرى فى وادى القصير الى أكوام عديدة من الحجارة كانت هى مقابر لبعض العبابدة الذين قتلوا فى المعارك ، ورأيت أيضا فى منتصف الطريق – على بعد ثلاثة فراسخ من القصير – تلالا من الحجارة ، وقيل لى انه من المحتمل ان هذه الأحجار تغطى جثة أحد اثرياء التجار قتله العربان .... ولم نشاهد اية خيمة فى معسكر العبابدة بالقرب من القصير . ففى أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس يضع الرجل منهم سرج جمله ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثل السرج – فى الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ثم يبسط فوق ذلك كله جلد خروف . وهكذا ينهض البيت الذى قلما يبلغ ارتفاعه فى الواقع اكثر من اربعة أو خمسة ديسيمترات ، ولا يستطيع الرجل بداخله الا أن يكون راقدا ، ويحتمى آخرون من الشمس فى كهوف صغيرة كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم أشاهد فى هذا المعسكر نساء على الاطلاق ، ومن المحتمل – الى حد كبير – أن تكون الاكواخ والخيام فى المعسكرات التى توجد بها النساء أكثر من تلك اتساعا .... وليس للرقص عند العبابدة اية علاقة بذلك الرقص الشهوانى الخليع لدى المصريين . فهو يتخذ على الدوام صورة المعارك والمبارزات ، فيتسلح الراقصون بالرماح والدروع ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة وتتجلى المهارة فى الدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس . وفى كثير من الاحيان يندفع أحد الراقصين نحو واحد من الشاهدين ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى أن يجيب عليها بكلمة : عبابدة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه .... » .

وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب جـ ٢ ، ص ص ٢٥١–٢٥٦ .

(٦) عن البرك التى يتحدث عنها ردولف فى هذا الموضع وفى مواضع اخرى ، يورد علماء الحملة الفرنسية أن نظام الرى المصرى القائم على الغمر أثناء الفيضان ، وعلى التحكم فى توزيع مياهه ــ أى الفيضان ــ من خلال سلسلة من الجسور الترابية ، يؤدى الى تكوين سلسلة من البرك مع انحدار النهر ، وبعد انحسار مياه الفيضان تظل بعض هذه البرك او التجمعات المائية فى الاماكن الاكثر انخفاضا او فى الأماكن ذات التربة غير المسامية التى لا تسمح بتسرب المياه ·

انظر تفصيل ذلك فى دراسة ب·س· جيرار فى كتاب وصف مصر الانف ذكره . ترجمة زهير الشايب ج ٤ ص ١٥ ·

(٧) الكاب الحالية بالقرب من ادفو بمحافظة قنا ، واسمها القديم نخب ، وكانت عاصمة لملكة الوجه القبلى او مملكة الجنوب قبل أن يوحد مينا (نارمر او نعرمر) مصر فى مملكة واحدة وكان شعارها زهرة اللوتس ، ولون تاج ملكها ابيض ·

الفصـــل الخامس

من فيله الى اسيوط ـ نظرة على اسوان ـ النوبيون ـ ارتطام بقاع النيل ـ كوم الأمير ـ الكاب ـ كلاب مصر ـ ارمنت ـ الوصـــول للأقصر ـ مقابر الملوك ـ نقـوش يقرؤها برجش ـ قنا ـ سوهاج ـ الى اسيوط ـ ركوب القطار من اسيوط ـ الوصول للبدرشين ـ منف وحديث اثرى ـ عن الأهـرامات وأبى الهول ـ خلاف مع أغـا (طواشى) فظ ـ وعدنا للقاهرة الجميلة ـ رسوم الفنان بوسنجو ـ تعليقات المترجم •

تناولنا افطارنا ـ الذى جلبناه معنا ـ فى أحد الأجنحة القديمة للمعبد الذى كان لا يزال محتفظا برونقه القديم ، ويقع جناح المعبد هذا على جسر مرتفع ، وثمة شرفة أمامه ترتفع شامخة الى أعالى من مستوى النهر ذى الأمواج التى تخللها الزبد •

لقد استمتعنا بالقـــاء نظـرة من أعلى على جمال فائق غير مألوف ، وذلك من خلال بوابة احدى القاعات ذات الأعمدة • ان الصحراء تنشد أشعارا رائعة لا يمكن وصف روعتها ، ويشع عبق التاريخ من بقايا مضت عليها عصور سحيقة من جزيرة ذات خضرة بهية تقبع وســـط المجرى المقدس • ان فيلة صورة لا يمكن أن تنسى وانما تقبع للأبد ـ كبقعة نور ـ فى الذاكرة •

لقد هبطنا من المعبد الى الشاطىء واتخذنا سبيلنا فى النهر تجاه الجنادل فى قارب قديم طرازه ، وصـــفناه لتونا • وظللنا لفترة نتأمل الجزيرة الصخرية والجرانيت الأسود والنباتات المزهرة ، والمعبد الشامخ، وغنى المجدفون ذوو البشرة الداكنة أغانى حزينة تشكل تكاملا هارمونيا مع عظمة المنظر المثير للعاطفة •

وقبل أن نصل بالفعل للجنادل التى تقسم النهر الى مجار متعددة رسونا بقاربنا وسرنا على طول الشـــاطىء الصخرى حتى وصلنا لبقعة يمكننا منها أن نلقى نظرة على الصخور الشامخة والمياه المتلاطمة أمواجها ، ولا تسبب هذه الجنادل شلالات وانما منحدرات تتسبب فى تدفق المياه تدفقا سريعا rapids • ان آلاف الجزر الصخرية الصغيرة والجروف

Cliffs • والحيود riffs تملأ مجرى النهر لأكثر من كيلو متر ، ويبدو النهر ـ وكل ذلك يعترض طريقه ـ يرغى ويزبد ويزأر وهو يشق طريقه ، انه بلا شك منظر مهيب يزيد من جماله ذلك اللون الأسود وأشكال الحيود والمخاضات بين الصخور التى ترتفع بين المياه ذات الزبد الأبيض ، انه لأمر شائق أيضا أن ترى النيل الوديع الهادىء قد تحول فى هذه المنطقة من المجرى الى نهر جبلى عنيف •

النوبيـــون :

وفى اللحظة التى وصـــلنا فيها الى أفضل نقطة تمكننا من رؤية المشهد ، ظهر عدد من النوبيين العراة وقفزوا بين الأمواج متجنبين الصخور والقوا بأنفسهم بين أكثر الأمواج صخبا وأشد التيارات سرعة • وفى ثوان قليلة وصلوا للشــاطىء وكأنهم ســهام انطلقت من أقواسها ، ثم زحفوا خارجين من الماء ليصلوا الينا طالبين البقشيش وهم يقطرون ماء وقد أحدثوا جلبة وصخبا • وعدنا للقارب وجدفنا مسافة قصيرة صاعدين فى النهر ثم ركبنا الحمير التى كانت فى انتظارنا وعدنا الى أسوان من الطريق نفسه الذى قدمنا منه صباحا •

استغرقت الرحلة طوال النهار ، ولم نصل الى ياخوتنا الا قبيل الغروب فتناولنا غداءنا ، وبعد ذلك ذهبت أنا وهويوز Hoyos ـ مرة أخرى ـ عند الشفق عند مواضع القنص التى كنا فيها البارحة • وقد اضطرنا مساعد الصيد التابع لى لذلك لأننا عندما كنا فى فيله استنتج وجود ضباع ـ عند ملاحظته لآثارها حول بقايا بعض الجيف •

كان الليل لطيفا واقترحت الا نطلق النار على أية طريدة أقل من ضبع ، فلننتظر اذن حتى تظهر الضباع حتى لو قضينا شطرا طويلا من الليل • وظهرت بعض حيوانات ابن آوى فتركناها تمر بلا ازعاج منا وبينما كان منتصف الليل يزحف مقتربا ـ وكنت أخوض معركة شرسة مقاوما النوم ـ رأيت بفضل نور القمر الساطع بعض البشر يزحفون غير بعيد عن مكمنى ، وسرعان ما سمعت بعد ذلك عدة طلقات قوقأة (بفتح القاف وتسكين الواو) الدجاج ـ ذلك الصوت المألوف • لقد وقعت دجاجات فى شرك هؤلاء البشر الزاحفين •

والآن لقد أخلت هذه الضجة بما يتطلبه قنص الضباع من هدوء وسكون كاملين . وبدلا من أن أضيع وقتى هباء رجعت الى مقر اقامتى وقابلت المترجم بولووتش Paulowich لقاء عابرا ، وكان لسوء الحظ مع البارون سكيندورف Seckendorf فى البقعة نفســها التى كنت فيها •

وكان هويوز Hoyos قد قتل ابن آوى وجرح آخر فى مكمنه القريب من المدينة . كما أن كـلا من الدوق الـكبير ، وايشـنباشر Eschenbacher قـد أحاطت بهما حيـوانات ابن آوى وهى تعـوى . وحدث هذا فى الوقت نفسه . فاضطر كل واحد منهما للانطراح أرضا بشكل غير ملائم لاطلاق النار . وبينما كنت عائدا فى منتصف الليل تمكنت من القاء نظرة على مدينة أسوان ، ونهر النيل وجزيرة فيله . انه منظر رائع فى حاجة الى ريشة فنان ، لقد بدا المنظر — فى فيض نور القمر المتألق السحرى — لا ينسى .

ارتطام فى قاع النيل :

وفى الساعة الثامنة صباح اليوم التاسع من شـهر مارس غادرت السفينة البخارية أسوان . ان هذه المدينة الواقعة وسط أفريقيا ، والمتسمة بالبهـجة تسـتحق اهتماما كاملا من الناحية الاتنوجرافية ، لقد انطلقت باخرتنا فى النيل بأقصى سرعة ورأينا مناظر اضحت معروفة لنا ، ومر الوقت سريعا وانتهزنا فرصة رحلة العودة هذه لترتيب ما جمعنـاه من ملاحظات ، وفى الظهر جلسنا فى القمرة (الكابينة) وتوقفت السفينة فجأة وبعنف ، ولم نستوعب كيف أن سفينة بخارية كبيرة يرتطم قاعها فى طمى قاع النهر . لقد ارتطمت سفينتنا بقاع النهر ونحن نبحر فى وسط المجرى صعدا . وكنا قد تحاشينا الابحار قرب الشاطىء لأن كل البواخر النيلية تجنح عند رمال الشاطىء — وعلى أية حال فان ارتطام سفينتنا فى المرات السابقة لم يكن بالحدة نفسها التى كان عليها الانتظام هذه المرة نظرا لأننا كنا فى طريق العودة حيث ينحدر النهر من الجنوب للشـمال .

واعلن ربان السفينة العجـوز أن الأمر يتطلب ساعتين على الأقل لتطفو السفينة من جديد . لذا فقد انتقلنا للشاطىء عند بقعة تسمى كوم الأمير Kom el-Emir حيث تقترب الجبال العالية الصخرية من المجرى وتنحدر عليه انحدارا حادا ، لكن شريطا ضيقا جميلا من الأرض المزروعة جعل للمكان روحا كروح السهول .

وتفرق جمعنا فى مختلف الاتجاهات يتريضون ، وقد حاولت — فى البداية — أن أزحف صاعدا الصخور الجرداء لأصـل الى بعض الطيور الجارحة لكننى لم أفلح ، لذا فقد فضلت أن أمارس الصيد بين أشجار السهل وعلى شاطىء النهر . لقد اصطدت خلال هذه الرحلة القصيرة يمامة صغيرة كانت ألوانها مدهشة ، انها حقا من طيور وسط أفريقيا .

وكانت في حجم القنبرة ، ولها ذيل طويل • يالها من مخلوق مداري جـذاب ! •

وبينما كنت أبحث على الشـاطيء الرملي عن الطيور لاحظت أن سفينتنا البخارية أصبحت جاهزة لمتابعة الرحلة بعد ساعتين من محاولات تعويمها ، فركبنا قواربنا وجدفنا عائدين وتابعنا الرحلة التي قطعتها هذه النزهة الباعثة على السرور •

الـكاب :

وفي المســاء ــ بعد غروب الشمس ــ رست سفينتنا عند الكاب El-Kab (١) على الشاطيء الشرقي • ويفصل ــ هنا ــ شريط ضيق من الارض المزروعة بين النهر من ناحية والصحراء وما يليها من جبال عالية من ناحية اخرى ، وحالما وصلنا قررنا أن ننتهز الليل الذي يغمره ضوء القمر لصيد الحيوانات المفترسة فتفرقنا في مختلف الاتجاهات لاختيار مراكز اقامتنا •

فسرت ومعي بوسنجر Pausinger ومعنا الفلاحون عبر الحقول وتجاوزنا قرية بائسة حتى وصلنا للصحراء • ورأينا بقايا مدينة نخبت Nechebt المصرية القديمة (يسميها اليونانيون ايليثيا Eilethyia) ، وان كان المنظر ضبابيا غير واضح • ويشمخ مبنى متين خارج السور من طوب لبن فوق كل شيء ويشير بوضوح الى انه بقايا قلعة ذات شأن • ويوجد هنا أيضا على افريز الجبل (الافريز هنا هو ما نتأ من الجبل) بعض القبــور الحجرية • وقبر حجري أسسه بطلميــوس يورجيتس Ptolemy Euergets وعلى البعد يوجد حرم (معبد) أمنحتب الثالث وهو مخصص للالهة نخبت Nechebt .

والصحراء في هذا الجزء مشبعة بكربونات الصوديوم ، وفي كل خطوة يسمع المرء صوت طقطقات القشرة الأرضية • لقد ذهبنا بالقرب من سفح الجبل واختبأنا بين صخرتين كبيرتين ، وربطنــا عنزا صغيرا راح يثغو أمامنا على بعد خطوات قليلة • وما كادت تنقضي ربع ساعة حتى ظهر بدوي ملتف بعباءة بيضاء راكبا جملا ويغني اغاني حزينة ، وبدا هــذا الراكب الغريب مثيرا للدهشة في هذه الصحراء الخالية • وظهر أن الماعز الذي يثغو قد لفت نظر البدوي ، فتوقف وتطلع حوله وراح يجري حوارا مع نفسه بصوت يكاد يكون مســموعا ، ثم استمر في طريقه دون أن يكتشف مكمننا •

ولما عم الهدوء مرة أخرى سمعت حفيف حيوان يزحف ، وأصدر الماعز ما يشبه الأنين وقفز عاليا خوفا وفزعا ، وعقب ذلك مباشرة رأيت جسدا أسود أكبر من الكلب يقترب من الشرك (العنز) ، فصوبت باحكام وأطلقت النار ، وأسرعت الى حيث الطريدة ولكنني لم أجد شيئا خلا آثار زحفها الى الجبل ، فاعتراني غيظ وخيبة أمل من جراء ذلك لكنني حسبت أنني أصبت ضبعا فعدنا الى سفينتنا البخارية ، وطلبت من مساعد الصيد التابع لى أن يعود فجر اليوم التالى ليتتبع آثار الحيوان الجريح ٠

ولما عدنا للباخرة كان سائر أفراد المجموعة قد سبقونا بالعودة ٠ وكان الدوق الكبير قد رأى حيوانات ابن آوى لكنه لم يصب — لسوء الحظ — أيا منها أما هويوز Hoyos فقد حالفه الحظ فأصاب أحدها ٠

وفي العاشر من الشهر ارتفعت الشمس في كبد السماء قبل أن أستيقظ وأبحرت بنا السفينة هابطة في النهر لأكثر من ساعة ، وسألت عن مساعد الصيد التابع لى فعلمت أنه وجد الحيوان الجريح على بعد مئات قليلة من الخطوات من موضع اصابته ، لكن — وياللأسف — انه لم يكن ضبعا وانما كان أحد كلاب القرية ، والكلاب في مصر تكاد تكون متوحشة، فالكلاب في مصر تتجول طوال الليل حول المدن باحثة عن فرائس ، كما رأى مساعد الصيد التابع لى وشقا lynx ضخما حجمه ، على بعد خطوات قليلة منه سرعان ما اختبأ في ثقب في جدار الكاب El-Kâb العتيق ٠

كــلاب مصر :

وليسمح لى القارىء أن أذكر في كلمات قليلة فكرة عن الكلاب في مصر ٠ لقد أجريت ملاحظات استطلاعية خلصت منها الى أن كلب القرية the village dog والولف الأفريقي African Wolf (Cains lupaster) وأبو الحسين Abu el-Hossein أو (الديب) كما يسميه العرب وابن آوى ، Canis aureus والثعلب المصري والواوي Waui السورى — كلها قد اختلطت معا فنتجت عنها سلالة مخلطة (*) ٠

فلم يحدث أن أصبنا اثنين من حيوانات ابن آوى ولا اثنين من الذئاب (الولف) الا ووجدنا بينها تشابها تاما ، سواء في الحجم أو اللون ٠

(*) عن مدى صحة ذلك لابد من الرجوع لعلماء الحيوان ، فما يذكره — غير صحيح — فيما يبدو — (المترجم) ٠

وفي فلسطين نجد أن هذا الاختلاف أكثر وضوحا • وبشكل عام فان حيوان ابن آوى الآسيوى أضخم من حيوان ابن آوى في شمال افريقيا ، الا أنهما متشابهان ، وقد اقتنصت احد هذه الحيوانات لا يمكن مقارنته بالنماذج السابقة سواء في الحجم أو اللون بل ولا يمكن وصف هذا المخلوق غير العادى بأنه ذئب •

وعلى أية حال ، فان كلاب الشرق تحمل غالبا دلائل تشير لأصلها المتوحش وهذا لا يثير الدهشة عندما يتذكر الانسان أنها حيوانات غير مروضة لا صاحب لها • وتظل تجوس طوال الليل من الغسق الى طلوع الفجر مع الذئاب وحيوانات ابن آوى ، في المناطق المحيطة بالمدن والقرى •

بل انني أود أن أذهب لأبعد من هذا وهو أنه في هذه الانحاء من افريقيا وآسيا حيث الكلاب والذئاب وحيوانات ابن آوى تقطن منطقة محدودة وان ابن آوى الخالص (غير المختلط) لا وجود له في الواقع (*) أما الكلاب والذئاب فأجناس حافظت على نوعها بطريقة أفضل أما ابن آوى Canis aureus كما ورد في الكتب العلمية فقد بحثت عنه عبثا قام أجده كجنس أو سلالة محددة •

دعنا الآن نعد لمغامرات رحلتنا • لقد تابعت السفينة مسيرها حتى الساعة العاشرة صباحا حتى توقفت في الدبابيه Dabbabieh عند شاطىء رملى ، ورأيت على مكان مرتفع نسرا ضخما ، وعندما رسونا وجدنا الفلاحين الذين كانوا ينفذون أوامرنا حرفيا •

وأقاموا كوخا صغيرا من البوص ، وقد أظهرت عظام الخراف والكلاب أن النسور قد تناولت وجبتها اليومية ، وقد وجدنا صعوبة كبيرة في ابعاد الفلاحين المحبين للاستطلاع عنا ، فقد كانوا راغبين في موافقتنا لأنهم كانوا فخورين بما أنجزوه في سبيل مساعدتنا •

وسرعان ما ظهرت بعض نسور الجيف وتبعتها ثلاثة نسور ، لون رءوسها مختلف عن لون سائر أجسامها hooded vultures ، وهذا النوع الافريقى من النسور متوسط الحجم أسود ورأسه صلعاء • لم يحدث أن رأيت أبدا هذا الطائر البشع منظره قبل ذلك ، فأسرعت — لذلك — باطلاق النار ليكون لدى واحد من هذه الطيور • وأسرع الفلاحون قادمين من كل ناحية بمجرد سماع طلقتي وراحوا ينظرون لصيدى باستغراب وراحوا يثيرون جلبة وصخبا بطلب البقشيش

(*) لا أدري مدى صحة ذلك ، والأمر متروك للمتخصصين — (المترجم) •

لقد كان النسر الكبير يحوم دائريا فوق رءوسنا ، وكانت اللحظة مناسبة لمتابعته وكان يمكننا أن نحقق نجاحا كبيرا ، ومع هذا فقد كنا مضطرين للتراجع بقدر ما نستطيع لنحمى أنفسنا من الناس فقد وصل عدد آخر من الفلاحين من كل اتجاه ، فاستدعينا سفينتنا البخـارية الى الشاطىء وواصلنا رحلتنا ٠

أرمنت :

وفى أرمنت Erment التى وصلناها بعد الظهر كان علينا أن نبقى لبعض الوقت لنحمل معنا قطعة الجرانيت الشهيرة ، وخـلال هذه الفترة اليسيرة نجحت فى اصطياد ست وأربعين حمامة من حمامات الحقول كانت تعبر النهر من جانب الى آخر مارة فوق سفينتنا ٠

وسرعان ما تابعنا رحلتنا فوصلنا الاقصر مرة أخرى عند الغروب ، وبمجرد أن لمست سفينتنا مرساها أسفل الفندق حتى ظهر خليل ومعه بعض الحمير ، فركب بعض أفراد جماعتنا بأقصى سرعة واتخذنا سبيلنا الى طريق الكرنك الشهير لنكمن للضباع فى عدة مكامن ٠

واتخذت لنفسى موقعا بجانب احـــدى البرك pond (٢) القديمة أستمتع بجمال الماء ، ورحت أشد ريش الدجاجة الحيـــة التى كنت قد أحضرتها معى ــ بين الحين والآخر ــ عسى أن يجذب صياحها الحيوانات المتوحشة ٠ ولسوء الحظ ، فبدلا من أن تجذب حيوانات ابن آوى ، ظهر بعض الرجال الانجليز فنظروا الى بدهشة ، وسرعان ما واصلوا طريقهم مبتعدين ٠

ولما عم الظلام ، انقض طائر ضخم على البركة Pond كالشبح ، فاطلقت عليه النار فوجدته طائر مالك الحزين (البلشون) وقد تمدد ميتا على الشاطىء ٠ وبعد ذلك غادرت مكانى وركبت عائدا الى الأقصر فوجدت أن رفاق الرحلة قد عادوا دون أن يصيدوا شيئا ٠

مقابر المـــلوك :

وفى بكور صباح اليوم التالى جدفنا الى الشاطىء الغربى (تعليق المترجم : يسمى الأرشيدوق الشاطىء الغربى للنيل باسم الشاطىء الليبى Libyan shore) ، لزيارة مقـــابر الملوك ٠ وركبنا البغـــال ، وفى بداية الطريق عبرنا سهلا خصبا ، وكان الفلاحون يعملون فى حقولهم بهمة بينما كانت نسور الجيف تتحلق بكثرة حول الأكواخ الطينية المتناثرة ، بينما ترعى الجمـــال والماعز ــ ذوات الآذان الطويلة ــ والجواميس والحمير

والأغنام كلا اعترته صفرة • وكان الطريق يمر بنا بين بعض البرك ظل الماء باقيا فيها منذ أيام الفيضان وعبرنا ترعة ضحلة بها رمال الى قرية صغيرة فقيرة ، تشكل نخيلها واشجارها الحد الفاصل بين الأراضي المزروعة والصحراء ، وسرعان ما وصلنا لسفح الجبال الشامخة لينتهي الوادى عند منحدرات جبلية حادة ، وأصبحت المنحدرات الصخرية أمامنا مباشرة . ويؤدى ممر خاص الى الأسفل الى مقابر الملوك ، وقد اختار رفاق الرحلة أن يسلكوا هذا الطريق •

فكان من رأيي أنا والدوق الكبير أن نصل الى مقابر الملوك بأن نسلك طريقا قصيرا عبر الجبل ، وبالفعل فقد استعنا بمرشد عربي معروف بأنه رياضي ممتاز وتسلقنا بعض التلال الرملية التي اختلطت بها أحجار مكسرة ، ثم هبطنا من الناحية الأخرى •

وكان الممر الضيق يلف مرتفعا على طول المنحدرات الصخرية بين كتل وجلاميد صخرية ، والى اليمين واليسار كنا نرى ما لا يحصى من القبور والكهوف الجنائزية funerat caves فالمنحدرات الدنيا لكل خط الجبال الى الغرب من طيبة القديمة بها تجويفات عميقة فتجويفات أعمق فأعمق وهكذا ، واتخذت هذه التجويفات مقابر على مدى القرون •

وقد خرج ذئب من بين هذه القبور وانسل صاعدا المنحدرات ولسوء الحظ فان المسافة كانت بعيدة لا تمكنني من اطلاق النار عليه بطلقة صغيرة ، اننا الآن في طريقنا لتسلق الجبل صاعدين ممرات مختلفة آملين أن نتمكن من اطلاق النار عليه •

وسرعان ما وصلنا للقمة فتجلى أمامنا منظر جميل في وادى النيل الأخضر متمثلا في مدينة الأقصر وآثار الكرنك ، وفى الناحية المقابلة الجبال العربية Arabian mountains : قمم وذرى ومسيلات ووديان ومنحدرات صخرية وأكوام من رمال وأحجار مهشمة وكتل حجرية صلدة وكتل من أحجار جيرية ، جميعها بيضاء أو اعترتها الصفرة دون أثر لخضرة ، وانما جرداء تتلألأ وقد عكست أشعة الشمس الأفريقية • قلما يتخيل المرء صورة أكثر عظمة وجهامة من جبل صحراوى حقيقى • وفى الرمال وجدت آثار ضباع وذئاب وحيوانات ابن آوى وما لا يحصى من جحور الحيوانات البرية ، وكمنت النسور فى ظلال الصخور وحلقت العظاءات Swift فوق قمم الجبل القضية •

وجرى ذئب عبر الممر أمامى لكنه كان بعيدا لا تؤثر فيه طلقتى ، وضاعت فرصة مماثلة ـ لاقتناص ابن آوى ـ من الدوق الكبير للسبب نفسه ، وسرنا فى ضيق وهبطنا بصعوبة فى الوادى الرئيسى لنقابل الحمير

في الموضع المتفق عليه سلفا • وركبنا الحمير عبر واد منعزل تحيطه جبال بيضاء عابسة ، لنصل الى مقابر الملوك عند بيبان الملوك Biban-el-Moluk حيث يوجد ممر مسدود من منتهاه Cul de sac ومنحدر على نسق انحدار الوادى الذى يشقه (اى الطريق) وينتهى بنهايته وثمة شق (هوة) مظلم يفضى الى مدافن الاسرات (الفرعونية) الأولى ، وحملنا المشاعل ودخلنا أضرحة الماضى •

وانى مدين لبرجش Brugsch باشا لكثير من الملاحظات القيمة عن هذه البقعة ، وسأتركه الآن يفضى بما عنده : « مقابر بيبان الملوك تقع في واد جانبى فى الجبل توحى طبيعته نفسها بسكون الموت ، وهنا تم دفن الأجيال المتعاقبة من أكثر ملوك الأسرات الحاكمة فى طيبة شهرة ـ وذلك فى كهوف عميقة ، ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة فصاعدا • وتجد قبر سـيتى الأول Seti I الذى يمثل معبدا (ضريحا temple) حقيقيا لميت قد نحت خارج الصخرة ، ويعد هو الأجمل بين هذه الآثار الجديرة بالملاحظة • وتفضى الدرجات (السلالم) التى تهبط بشـكل ملحوظ الى مجازات يمر بها حاملو الجثث ، فى ظلمة شديدة ، من ممر الى ممر ، ومن حجرة الى حجرة ، ورغم غارات النهب على هذه المقابر الا أن الرسوم والكتابة لاتزال تحتفظ ببهاء ألوانها كاملا • لقد تابعنا رؤية مناظر متتابعة مستعينين بالضوء الباهت فحملتنا هذه المناظر الى عالم الموتى وجعلت مناطق العالم السفلى المختلفة أمام نواظرنا مصورة نعيم الفردوس وعذاب من يستحقون اللعنة ، والسماوات ذوات النجوم ورحلة مراكب الشمس السرية من الغرب الى الشرق ومن الموت الى الحياة خلال الليل والظلمة • لقد تجلى كل ذلك أمامنا فى صور • وتجلى بتفصيل كامل ، ونشرت أمامنا صفحات غامضة للحياة بعد الموت ومفتاح عقائد المصريين القدماء المتشـابكة هو فكرة بعث الروح بعد موت الجسـد The resurrection of the soul after the death of the body ، وعودتها الى مصدر النور ، فيحظى الطيب بالنور والسعادة ويجازى الشرير بالظلمة والألم •

وفى غرفة ــ تم اغلاقها باحكام قبل ذلك ــ فى ضريح سيتى الأول Seti I (حوالى ١٣٥٠ ق•م) رأينـا ما يشـبه بقرة السـماء Cow of heaven ، ويجاورها شريط من كتابات هيروغليفية طويلة ذات أهميـة فائقة ، اذ تتناول ابادة الجنس البشرى واعادة تشـكيل نظـام عالمى جديد ، مما يقدم لنا مفتاحا للفهم الصحيح للعقيدة المصرية القديمة ـ وفيما يلى ترجمة لهذا النص الغامض :

« كان لمصر العليا والدنيا ملك هو اله النور رع Ra لم يولد (هو موجود بذاته) ، وبينما هو يحكم اتحد الملوك البشر والآلهة في كيان واحد (*) وبدأ البشر في حبك المؤامرات عند اله النور رع ليتخلصوا منه ، ولأن عظمته الملكية قد غدت عتيقة عريقة فان عظامه كانت من فضة ولحمه من ذهب وشعره من ياقوت نقي ورأى بعظمته الملكية كيف يمكر به البشر ، فدعا اليه خدمه قائلا : « احضروا لي عيني ورب السحاب شو Shu وربة المطر تافنوت Tafnut ورب الأرض كب Keb وربة السماء نت Nut وأحضروا الأب والأم اللذين اتحدا معي وقت أن كنت ونفسي في المياه الأولى (المياه التي هي الأصل والأساس) ، وكذلك رب المياه الأولى نن Nun الذي يحمل ألوهيتي (ربوبيتي) في نفسه ، دعوه يحضر حاشيته معه . وقولوا له : « أحضرهم هنا بلا توان أو تأخير . لا تنظر للرجال (البشر) ولا تدر أرواحهم بعيدا . تعال الى قصر هليوبولس مع الأرباب الذين وافقوا على خروجي من الماء الى المكان الذي أشغله الآن » وبالفعل تم احضار الأرباب فألقوا بأنفسهم على الأرض اظهارا لولائهم لعظمته حتى يلقى كلماته لوالد أكبر الأرباب الذي خلق البشر وأنجب النبلاء . وقال الأرباب لعظمته : « تحدث الينا حتى نفهم » .

« فتحدث اله النور رع Ra لرب الماء الأول نن Nun قائلا : « أنت الأكبر بين الأرباب ، منك خرجت ، وانت أصل الألوهية ، فلتسمعني الآن : الرجال الذين خلقوا من عيني يتحدثون ضدي ! فقل لي : ماذا أنت فاعل ؟ حقيقة اني سأنتظر ولن أحطمهم حتى اسـمع رأيك في هذا الموضـوع » .

فتحدث نن Nun وقال : « يا بني . أنت رع اله النور أنت اله أعلى درجة منـه فهو أبوك وانت أعظم منـه ، أعظـم من الذي أنجبـك Who begat thee فأين أقيم (أجعل) البشر الذين يقولون هذه الكلمات عنك ، ذلك أن فزع أولئك الذين يحيكون المؤامرات ضدك سيكون عظيما كبيرا ، سيكونون الى جوارك لأنك ستطبق عليهم جفونك (عيونك) .

وقال عظمة رع اله النور : اذهب اليهم ، فقد هربوا للجبل لأن أرواحهم كانت مليئة بالرهبة من قربي » .

وتحدث الأرباب الآخرون لعظمته : « أرسل عينك . دعهـا تضرب عنك أولئك الذين حاكوا المؤامرات باعتبارهم أتوا أمرا شريرا .. » .

(*) اصبح اللاهوت والناسوت في كيان واحد ، وهي الافكار نفسها التي تسربت بعد ذلك لبعض ديانات التوحيد — (المترجم) .

فأرسـل اله النور رع عينه his eye فهبطت متقمصة (متجسدة) شكل الربة هاتور Hathor ، وعادت بعد أن حطمت البشر (الذين تحدثوا ضد رع) على الجبل .

وتحدث عظمة الاله (الرب) فقال : « ابشر . لقد تم تنفيذ ما كان يجب تنفيذه .. لقد أوردنا البشر موارد التهلكة » .

وتحدثت هذه الربة (الالهة) فقالت : « انني أقسم بك انني نفذت حكمك في هؤلاء البشر ، وهذا يسعد روحي » .

وقال اله النور رع : « سوف أنفذ حكمي (قضائي) على البشر من خلالك في المستقبل » .

وهذا هو أصل اسم الهة الانتقام . الربة سخط Sokhet (٢) .

وهكذا تحدثت نت Nut ربة السماء أمام أبيها نن Nun رب الماء الأول . وعندئذ تحولت ربة السماء نت Nut الى بقرة ضخمة وحملت على ظهرها عظمة اله النور رع .

« وبعد أن علم البشر الذين ذهبوا صاعدين في المجرى ما حدث وقفوا ونظروا اليه (رع) وهو جالس على ظهر البقرة » .

وتحدث البشر وقالوا له (رع) : « أنت اله النور رع لا تتخل عنا ، سنقتل أعداءك الذين يحيكون المؤامرات ضدك .. سيقتلون » .

وذهب عظمته الى قصره لكن الذين تبعوه بقوا مع البشر (الرجال) حتى غرقت الأرض في الظلمة ، الا أنه عندما أنارت الأرض وأشرق الصباح هب البشر (الرجال) مسلحين بالأقواس والرماح وأطلقوها على أعداء الاله (وهذا هو أصل فكرة الأضحية) وتحدث هذا الاله الى الالهة نت Nut السماوية : « لقد حملت نفسي على ظهرك فارفعيني الى أعلى » وفهمت ربة السماوات المعنى فتمطت . وهذا أصل العبارة القائلة : اطرح نفسك فوق ظهرها تمدد (تمطى) ذاتها .

وقال عظمة هذا الاله : « والآن وقد فارقت البشر ، سأصعد الى أعلى وأراقب » .

وراح عظمة الاله يراقب (الأمور) من الخارج ، وقال : ابحثوا لي عن حمالين أشداء : « مجموعة من البشر » وهذا هو أصل عبارة « مجموعة رجال mass of men) .

وقال جل جـــلاله hir royal majesty : « يا له من عمــل مفعم بالسلام أن أقيم حقلا واسعا ! » وهذا أصل اسم (حقل السلام) . سوف أنزع (؟) الأعشاب فيه ، وهذا أصل اسم (pluckfield) وســأمد السكان بكل شيء ...

وتوقفت السفينة هناك ، وفوقها مجاديف ومعبد صغير ، وفوقها قرص الشمس ، ووقف اله النور رع فيها أمام رب السحاب شو shu ، وبجانب يده (قراءة أخرى : خلفه الى جوار يده) .

وتم وضع ضرع البقرة الى جوار فخذها الأيسر ، وفي الوسط . فالكتابات الموجودة عند منتصف ساق البقرة الخلفية كالتالي : « السماوات الخارجية » و « أنا حيث أكون I am where I am » و « أنا لا أدعها تعود I do not let her turn back » ، والكتابات الى أسفل السفينة في المقدمة : « لا تسترح يا ولدي » والكتابات في الاتجاه المعاكس (المقابل) : « حملك كالحياة Thy bearing is life like » و « ابنك هنـــالك Thy son is yonder » و « الحيــاة والسعادة والصحة ، كل ذلك ممنوح لمنخريك » والكتابات خلف شو رب السحاب بالقرب من ذراعيه هي : « حارسها Her guardian » والكتابات خلفه عند قدميه في الاتجاه المقابل : « الحقيقة » وكتابة أخرى : « هم يدخلون هنـــا » وأخرى : « انني الحامي كل يوم » .

والكتابات تحت ذراع الشكل (الرسم) الكائن بين الساق اليسرى وخلفها كالتالي : « منهي كل شيء » .

والكتابات فوق الرســم عنـد الربع الخلفي من البقرة بالقرب من الساقين هي : « حارس خروجها Guardian of her going out » .

والكتابات خلف الشـــكلين التي تمتد من ساق البقرة الى رأس الشكلين هي : « الرجل كبير السن الذي يسبح عند خروجه » و « الرجل كبير السن الذي يتعبد عند قدومه » .

والكتابات فوق رأس الشكلين والكائنة بين الســاقين الأماميتين للبقرة « المستمع » « المصغي » و « تقلد سلطان السماوات العلا » .

« وقال عظمــة هذا الاله للرب توت Thot (رب الفهـــم) : « اســـتدع لي عظمة كب Keb رب الأرض بهذه الكلمات : « تعـــال بسرعة » .

وجاء عظمة كب Keb رب الأرض وقال عظمة اله النور رع : فلتقم معركة بسبب ديدانك (البشر) الذين يسببون لك الازعاج ، فمن أجل سعادتهم يجب أن يخشونى طالما أنا موجود as long as I exist لذلك سأتركك لك مهمة معرفة صدقهم وطهارتهم · كن مستعدا واذهب حيث أبونا الذى هو رب الماء الأول ـ نن Go where my father the God of the primordial water, Nun

وقل له :

احفظ الديدان (المقصود البشر أو الكائنات الحية) على الأرض وفى الماء واكتب فى التو واللحظة لكل مكان (منطقة) يقطن فيها ديدانك وقل : « ان حافظكم (ربكم) هو الذى يحيط بكل شيء » · اذا كانوا سيعرفون أننى ذهبت بعيدا ، فمن أجل سعادتهم أن أرتفع فوقهم كضوء الشمس · الشفاء ضرورى · انه الآب (الأب) الذى هم فى حاجة اليه · كن أننى الأب على هذه الأرض » ·

وهم أيضا سيكونون محميين (محروسين) بسبب أفكارهم الحكيمة وسوف يكون فى حكم أفواههم خـــلاصهم their Salvation ذلك لأن حكمتى قضت بالخلاص · وسيكون الشكور آمنا ، والا لن أقدم لأحد حمايتى بسبب العظمة (الجلالة) الذى أعطى له أمامى (قبلى) ·

سوف أوحدهم مع ابنك أوزوريس وسوف أحفظ أطفالهم ، وستتجلى فضائلهم فى أنهم يعملون وفقا لما يقتضيه حبهم للعالم كله وفقا للأفكار الحكيمة المبثوثة فيهم ·

وقال عظمة الاله : استدع لى الرب توت ـــ رب الفهم ، فلما حضر قال عظمة الاله له : « انتبه ! عظيمة هى المسافة من السماء حيث أقيم عرشى وحيث يتحتم أن أقيم لأوزع أشعة الشمس (بالعدل dispense) أنت رب عظيم فى الأعماق وفى عالم القبور حيث أنت الذى تكتب وتعاقب من يسكنون هناك ومن يقترفون الخطايا فابعد عنى أولئك الذين يتبعون الآثام who followed evil الذين يملأون قلبى بالخجل (الحسرة) ـــ اجعل نفسك مكانى ـ ممثلى ، والا فلمــاذا سميت توت Thot ممثل الشمس ؟ اننى سوف آمرك أن تستدعى الأمراء باسمك » · وهذا هو أصل ابيس Ibis رسول توت « سوف أدعك تمد يدك لوجه الأرباب القدامى (الآلهة القدماء) الذين هم أعظم منك · وسيكون حسنا اذا ما ظللت (رويت) طمثى » وهذا أصل طائر الماء التابع للرب توت · « وسأدعك تحتضن السماء والأرض بالعظمة كشعاع من نور » ومن هنا أتى اسم « مغلف enfolder » للقمر · « وسأدعك تجبر كل البرابرة على التقهقر » ومن هنـــا أتى اســـم « الطـــارد expeller » للقرد الذى

يحمل رأس كلب ، وهذا أصـــل المهمة المنوطة ـ كقائد للجيـــوش • « لكنك أنت ـ على هذا ـ ممثلي لكل الأشياء المرئية التي يمكن التجلي من خـلالها •• that through thee may be manifested وكل البشر سيتخذونك كاله » •

« واذا ادعى أى شخص هذه المرتبة لنفسه ، اجعله يحك جســده أولا بالزيت والدهان ، ودعه يرفع المبخرة (وعاء العطر) بيديه الى خلف أذنيه » •

« واجعله يغســل فمه بالصـــابون المقـدس ، ودعه يرتدى ملابس نظيفة » •

« واجعله ينظف نفسه بماء الفيضان ، واجعله يلبس فى قدميه صندلا (نعالا) بيضاء لامعة • وستنطبع صورة ربة الحقيقة خضراء على لســـــانه •

واذا كان يسره أن يقول ذلك (الحكم) للرب توت فاجعله يطهر نفسه تسع مرات كل يوم طوال ثلاثة أيام •

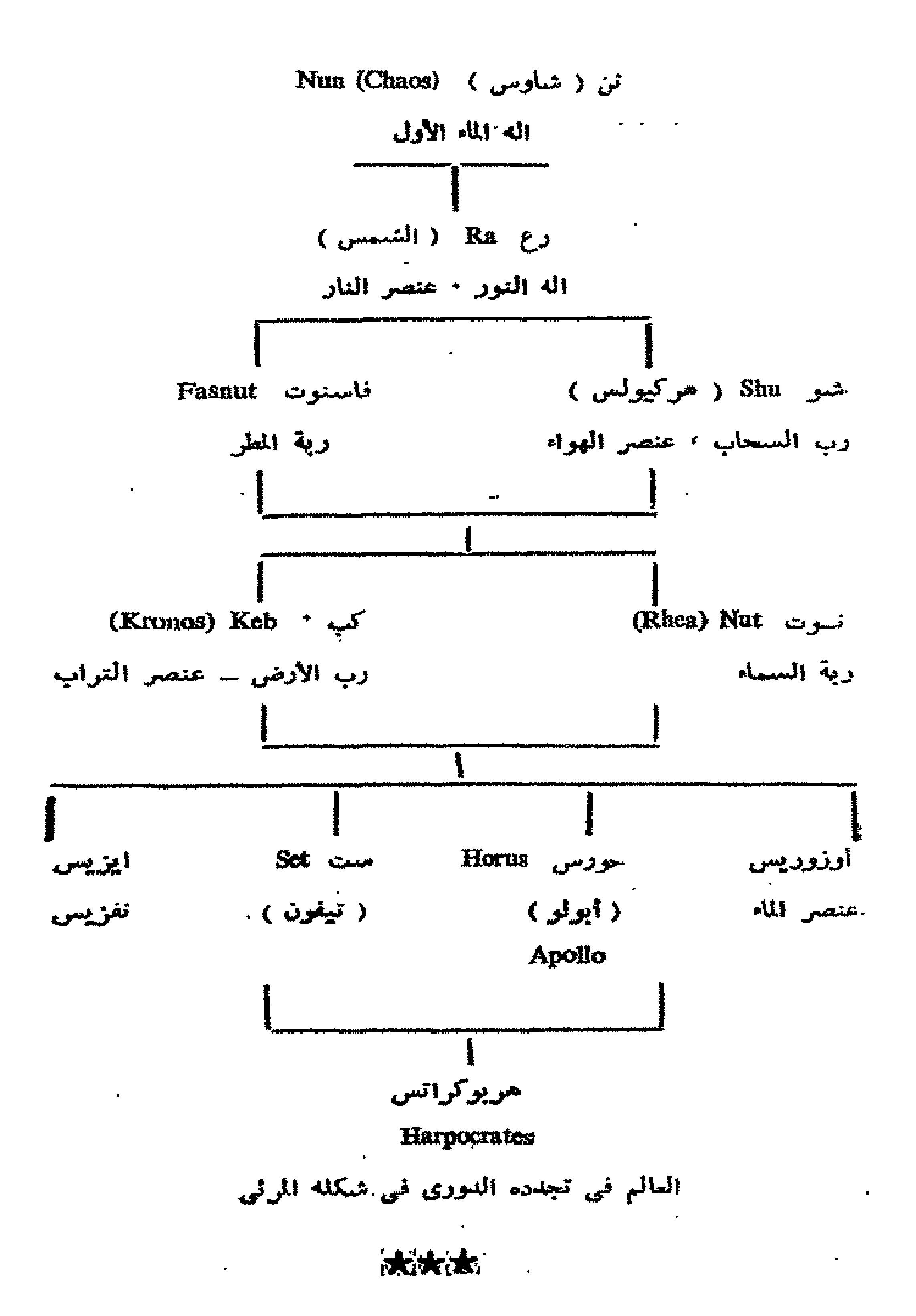
وليفعل الشيء نفسه الكهنة والناس والآخرون ، واذا كرر انسان ذلك ، فليراع التعليمات التالية :

اجعله يقف فى دائرة تفصله عن الآخرين •

اجعله يركز عينه عليها ويدير كل أطرافه نحوها • ولا يجعل قدميه قادرتين على التحرك للأمام • فاذا كان الانسان (الرجل) على هذا النحو فقل له انه لو كان كذلك لكان مثل اله النور رع فى يوم ولادته • لا تتناقص عناصر الخير فيه ، ولن يفقد بيته شيئا وانما يبقى فى الطريق السوى مليون مرة » •

وهكذا ينتهي الوصف الدقيق للبقرة الســـماوية وما يحيط بها وما حولها من كتابات •

ان سلالة (الآلهة والأرباب) التى يرد ذكرها فى عقائد هذا الدين الذى مضى عليه آلاف السنين جديرة بالاهتمام ، كما أن الوصف التفصيلي الرائع يميز هذه العقائد المتعلقة بأهل الجنوب خاصة الشرقيين • وأود أن أضيف هنا شجرة نسب للآلهة المصرية القديمة مستخلصة من هذه الآثار :



Nun (Chaos) نن (شاوس)
اله الماء الأول
رع Ra (الشمس)
اله النور ، عنصر النار
شو Shu (هركيولس)
رب السحاب ، عنصر الهواء
Fasnut فاسنوت
ربة المطر
نوت (Rhea) Nut
ربة السماء
كيب Keb (Kronos)
رب الأرض ـ عنصر التراب
أوزوريس
عنصر الماء
حورس Horus
(أبولو)
Apollo
ست Set
(تيفون)
ايزيس
تفزيس
هربوكراتس
Harpocrates
العالم فى تجدده الدورى فى شكله المرئى

★★★

وبعد أن تفحصنا كل غرف أهم مقابر الملوك تناولنا افطارا متواضعا خارج المدخل ، وبعد راحة قصيرة صعدنا بشق الأنفس من خلال ممر ضيق ، لنعبر الجبال الى مدينة حابو Habu فوصلنا مرة أخرى الى صحراء جرداء صخرية وأصبحنا الآن عرضة لشمس الظهيرة المحرقة . وكان علينا أن نتسلق بعض الصخور شديدة الانحدار لنعبرها فلم نصل لقمتها الا بعد جهد جهيد وبعد ذلك مباشرة وصلنا لمنطقة القبور الحجرية ، ومررنا خلال خرائب وبقايا ومنازل قديمة آيلة للسقوط ، كلها تعود لعصور اسلامية فوصلنا لأرض مزروعة فتركنا خيولنا في ظل جدار ، وأوصلنا طريق أطول من الطريق الذى قطعناه صباحا الى تمثال ممنون الضخم اللافت للنظر Collesus of Memnon الذى فاق كل توقعاتنا ، ثم وصلنا الى شاطىء النيل ، ومن ثم وصلنا لسفينتنا البخارية مستخدمين أحد القوارب في فترة بعد الظهر ، وتناولنا غداءنا . وتبعنا بعض العرب كمساعدى صيد لزيارة بقعة بالقرب من مدينة حابو Habu في المساء بحثا عن الطرائد . وركبت بعد الغداء — يتبعني مساعدو الصيد وسلكنا مرة أخرى طريقا طويلا عبر أرض زراعية ومررنا بتمثال ممنون حتى وصلنا لقرية حابو التي لا تزيد عن كونها بضعة بيوت طينية . وثمة سهل صحراوى عريض على نحو ما يفصل بين الأرض الزراعية وسفح الجبل — يمتد مباشرة خلف القرية (قرية حابو) .

وكانت آثار أقدام الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى كثيرة ومتتابعة تربط بين الجبل والمساحة التي نمارس فيها رياضتنا فاختبأت خلف بعض الأحجار الضخام . كانت الشمس تغرب وكانت الرمال والصخور والجبال والآثار والنخيل وقرى السهل تفيض بأزهى الألوان وواصلت بومة فرعونية بنية — يعترى لونها البنى صفرة — كبيرة الحجم — طيرانها الصامت ، بحثا عن فريسة ، وسرعان ما أطلقت النار على ابن آوى تتبع آثار أقدام الحيوانات الآنف ذكرها ، وراح يتقدم قافزا للأمام وكأنما لا يحيق به خطر ، الا أن طلقتى طاشت فقد كان ابن آوى — لسوء الحظ — بعيدا ، وتشقلب الحيوان واضطرب واتخذ سبيله مسرعا عائدا للجبل مرة أخرى . وقد وجدت حقا خطأ أحمر — وهذا حقيقى ، ولم يجد البحث السريع الذى لم يستغرق وقتا كافيا عن نتيجة فسرعان ما حل شفق الغروب وكان على أن أعود للمنطقة الملائمة لصيد الضباع .

وركبت قاطعا الصحراء يدلنى رجل غربى ، وكانت الصحراء تمتد وتمتد داخل السهل حتى وصلنا الى تل رملى صغير . كان المشعل الذى نحمله من النوع الجيد وكان الحمار الميت قد وضع بشكل واضح فى الرمال البيضاء .

كان السكون العميق يسود المنطقة المحيطة بنا ، وتظهر في الظلمة غير الدامسة الخطوط التي تحدد أشكال الجبال وبدت الصحراء الصفراء شاسعة لا نهاية لها ٠

وسمعت أكثر من مرة صوت تسلل ابن آوى ورأيت ظلالا سرعان ما مرت سريعا ، وميزت شكل ذئب ، لكن الضباع وهي ما نرغب في صيده كثيرا لم تأت ٠ فأفضل الأوقات لصيد الضباع هي الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، لكن في ذلك الوقت يهاجمني النوم فلا أستطيع مقاومته بعد الســـاعة الحادية عشرة ، فغادرت مكمني ، وتركني العربي اذهب لمســافة قريبــة واقترح أن نبقى في انتظــار الضبع ــ بينما هو مسلح ببندقيته ٠

ان امامي مسافة طويلة لكنها لطيفة بالنسبة لي فليل مصر المقمر يحفر في الذاكرة كاروع المناظر الساحرة ، وقد حملت ذاكرتي هذا المنظر من أرض الفراعنة العظيمة ٠ وكانت تماثيل ممنون Memnon منتصبة كالاشباح ، زاد الليل من ضخامتها ٠ وجرى ذئب بالقرب من النيل أمامي على بعد خطوات قليلة لكن بندقيتي لم تكن معمرة لسوء الحظ ٠ ولم أصل للباخرة الا متأخرا جدا وحان وقت راحتي التي كنت تواقا لها ٠

وفي بكور اليوم الثاني عشر من الشهر ركبنا جميعا وسرنا في الطريق نفسه لقرية حابو ، وأطلقت النار من فوق حماري على طائر الشنقب Snipe وطائر زمار الرمل Sand pipers ، وكانت صفوف طويلة من اللقالق (جمع لقلق Stork) تقف على الشواطىء الرملية وفي البرك ٠ وصلنا لقرية حابو بعد ساعة حيث كان الصياد العربي في انتظارنا ليخبرنا انه فقد ــ بسعادة ــ الضبع ، حوالي الساعة الواحدة ليلا ٠ ولم أصدقه وقررت أن أعاين المنطقة بنفسي وأن أركز اهتمامي أيضا على النســـور المتجمعة بأعداد كبيرة وفقا لما ذكره العربي ٠

ولسوء الحظ ، وجدت أن هذه الطيور الجارحة ــ بمجرد وصولي ــ كانت قد أنهت بالفعل وجبتها وجمدت ــ غير قادرة على الحركة ــ في مكان غير قريب على بعد مئات قليلة من الخطوات في الصحراء ٠ لقد كان الحمار الميت قد مزق اربا ، وتم التهامه بالكامل تقريبا وما تبقى منه كان مغطى بريش النسور وأقذارها ٠

وأخطأت كما أخطأ العربي ، فسرعان ما وجدت أثر الضبع يؤدي من جانب واحد للجيفة ، ويؤدي من الجانب الآخر للصحراء ٠ وفي طريق العودة لقرية حابو لاحظت آثارا حديثة تماما لقدمي غزال ٠

وبمجرد أن وصلت لستراح رفاقي في الرحلة حتى بدأنا زيارتنا لمبـد الرامسيوم Ramesseum المـدهش الجميل ، وهو معبد جنـائزى temple of the dead لازال يحتفظ ببهائه ، ويقع بالقرب من قرية جابو ٠

وانى مدين لصديقي برجش Brugsch ببعض الملاحظات عن هذا الجزء من طيبة أوردها هنا بكلماته هو : « الجزء الغربي من طيبة لا يقل ثراء في الجبال عن الجزء الشرقي للمدينة ، وكان يعتبر مثوى للموتى ــ مدينة الموتى necropolis ٠ ففى سهل من الأحجار الجيرية وكذلك في المنحدرات ذات التجويفات والثقوب في الجبال المجاورة ــ وجد ملايين من أهل طيبة ذوى الشأن مثواهم الأخير ٠ ففى السـهل عند سـفوح المنحـدرات الصـخرية تشمخ ــ في كل اتجـاه ــ المعـابد الجنائزية Sepulchral temples وأبوابها دائما مفتوحة ناحية الشرق مما يعطى مدينة الموتى طبيعة أكثر المناطق قداسة ٠ ومعبد الجرنة Gurna الذى لا يزال موجودا عند الطرف الشمالى للسلسلة الطويلة من المعابد ، والذى أنشأه رمسيس الثانى احياء لذكرى جده غير المشهور الذى يحمل الاسم نفسه ، ومعبده الجنائزى المسمى رمسيوم ، يعد مثالا في تصميمه وزخرفته ، على نسق معبد سيتى الأول الجنائزى في أبيدوس (سيتى الأول والد رمسيس الثانى) وقد سبق أن وصفنا هذا المعبد ٠

والرامسيوم في طيبة يعد بالاضافة ــ لكونه معبدا جنائزيا ــ هيكلا لاحياء ذكرى انتصار الملك على الحيثيين Hothites وتخليدا للأعمـال المجيدة التى حققها ٠ وتمثاله العملاق من الجرانيت الأحمر مطروح على أرض المعبد القديم بالقرب من بوابة الجناح الجنوبى ٠

وأبعد الى الجنوب يوجد تمثالا ممنون الشهيران ــ حارسا مدينة الموتى ، وقد شمخا منعزلين تحت سماء طيبة الزرقاء الصافية كشاهدين صامتين على تاريخ المصريين العظيم الطويل ٠ لقد زين المصريون ــ في وقت من الأوقات ــ المساحة الواقعـة أمام البوابة العظيمة للمعبد الجنائزى للفرعون أمنحتب الثالث ، وقد اختفى هذا المعبد الآن دون أن يترك أثرا في الغالب على سطح الأرض ٠ وهذه الآثار من عمل أحد موظفى البيت الملكى وهو حى Hi بن حابو ٠

ولا زال يوجد الى الجنوب المعابد الجنائزية للفراعين : تحتمس الثالث ورمسيس الثالث تقع وسط مكان مرتفع يشبه تلا ٠ ورمسيس الثالث هو الملك رامبسينيتوس Rampsinitus في التراث الاغريقى ، وحقق معبده شـهرة لكثرة ما به من رسـوم وكتابات لتخليد ذكرى انتصاراته ضـد

الحلف الليبى الأيونى واذا تتبعنا المعبد الصخرى الذى أنشأه تحتمس فى الركن الشمالى الغربى لمدينة الموتى العظيمة فى طيبة نكون قد أتينا على كل معابد الملوك الجنائزية التى كان هدفها هو أن تبقى شاهدا للأجيال المتعاقبة حتى لا يضيع الماضى •

ولما انتهينا من زيارة مدينة الأموات الشهيرة تلك ركبنا وعبرنا السهل عائدين الى سفينتنا البخارية • لقد كان علينا الآن أن نغادر الأقصر الجميلة وآثار طيبة العظيمة ذات المائة بوابة • وكان سهل طيبة يرقد متدثرا بسديم حرارة الظهيرة الحارقة تحدوه الجبال الشامخة • لقد كان منظرا مدهشا ، كان خير وداع لنا •

قنـا :

وقضينا فترة بعد الظهر فى رحلتنا فى قضاء ساعات مبهجة فوق ظهر السفينة ننعم بالنسائم الباردة التى يزفها النهر الينا ، وبالمناظر المحببة يتلو بعضها بعضا أمام نواظرنا • وفى الساعة السادسة مساء رسونا فى قنا ، وفى هذه المرة لم يكن رسونا على الشاطىء الغربى حيث دندرة Dendera وانما رسونا على الشاطىء الشرقى بالقرب من المدينة الجديدة •

وقضينا فترة المساء فى الصيد بالمناطق المجـاورة للمدينة ، فقد ركبت أنا وهويوز Hoyos عبر سهل غنى وعريض — فى هذا المكان ثم تتبعنا احدى الترع ، فاصطدنا طيورا مختلفة وعبرنا ونحن راكبون مجرى مائيا فى موضع ضحل وعدنا فى اتجاه المدينة فوجدنا بجوارها حدائق باسمة وغابات نخيل تشمخ بذراها • وكانت الحدءات والصقور والبازات ذوات الأجنحة السوداء والغربان السود وأنواع أخرى من الغربان Crows والبوم الصياح Screech-owl وكل أنواع الطيور الصغيرة — تبحث لها عن ملجأ فى هذه الغابة • أما وقد علمنا ذلك فقد اختبأنا خلف أشجار النخيل وفزنا بصيد وفير •

ولما ظهر الشفق الأحمر بعد غروب جميل ركبنا عائدين بموازاة سور حتى دخلنا المدينة الكبيرة نسبيا •

وكانت الطرق الضيقة على جانبيها منازل طينية ، بالاضـافة الى زيناتها المعمارية ومآذنها السامقة — كل ذلك ينبىء عن أهمية المكان الذى ينبض بالحياة • وقادتنا الصدفة السعيدة خلال الشوارع المزدحمة الى سـوق عامرة مغطاة بالحصـير ومضـاءة بشكل جيد ، وتجارها المشغولون

يتحلقون حولنا بطمع محدثين جلبة وضوضاء • وقد هربنا من الأتربة والأبخرة والروائح النتنة التى تنتشر ــ خاصة فى المساء ــ شرقى المدن ــ متتبعين المرابط Stalls التى كانت تكون خطا طويلا ، وأسرعنا عائدين الى باخرتنا ، وقد عاد رفاقى الآخرون ببعض الصيد ، لقد كان حصاد صيدنا فى قنا وفيرا •

وتابعنا رحلتنا فى اليوم الثالث عشر من الشهر فى جو جميل ولم نتوقف من مشرق الشمس حتى منتصف النهار فوصلنا حيث جبل طوق Tuk يقترب اقترابا شديدا من مجرى النهر وســعدنا برؤية المنطقة واقترحنا أن نتريض بعض الشيء بعد أن نرسو على الشاطىء المهشم ، ولم يكن ثمة قرية ولا منزل قريب ، فلم يكن الا الشقوق والصدوع فى الجبل الصخرى التى يفصلها عن مجرى النهر مرج أخضر لا يتعدى عرضه مائة خطوة فى أقصى اتســاع له • ولما زحفنا بين أكوام الصخور وعلى المنحدرات الجرداء وجـدت كثيرا من آثار حيـوانات ابن آوى وبعض الجحور ، ومن ثم فقد أتيت بكلابى من نوع الدشهند وتركتها تبحث فى الأخاديد والشقوق العميقة ، ولسوء الحظ فان هذا كان بغير نتيجة •

وفشلت جهودى كذلك فى الزحف الى الطيور الجارحة المستقرة فوق قمم التلال والصخور ، وأثناء هذه المحاولات المنحوسة وجدت بعض القبور القديمة المجوفة ، ووجدت فيها بالاضافة للعظام بقايا مومياء محنطة ــ ربما كانت مجرد لحم وعضلات حمصتها حرارة المناخ الجاف ، وأثناء عودتى من الجبل أطلقت بندقيتى على بعض طيور السمانى التى لجأت الى المرج الضيق مرهقة بسبب رحلتها الطويلة •

سوهاج :

وبعد توقف لم يدم أكثر من ساعتين واصلنا رحلتنا ، وعند اقتراب الساعة الثانية وصلت باخرتنا الى مدينة سوهاج وهى مدينة كبيرة ذات موقع جيد ، فرصت ليتاح لنا فرصة كشف المناطق القريبة منها •

وذهبت أنا والدوق الكبير فدرنا حول أبعد أحياء المدينة بالقرب من ثكنات عسكرية لحامية صغيرة وبحثنا عن بعض البرك الكبيرة لاصطياد أنواع الطيور المختلفة • واضطررنا للابتعاد لتزاحم المتطفلين والقادمين ومعهم جواميسهم وجمالهم لتشرب ، وسرنا متتبعين الطريق الموازى لبحر يوســف الشــهير Famous Canal of Joseph فمررنا بمنــازل متناثرة وحقول يانعة وبســاتين ووصلنــا الى غابة من أشــجار الجميز والطرفاء والنخيل • لقد كان هذا المكان غطاء ممتازا تأوى اليه أعداد كبيرة من

الطيور ، وبعد غروب الشمس مباشرة أطلقنا بنادقنا على الطيور التى كانت قد شرعت فى النوم ففوجئت ، فوقع فى أيدينا فى غضون دقائق قليلة نسر صغير ، وحدءات كثيرة ، وصقور وبومتان وكثير من الحمام واليمام • ومن ناحية المنظر ، فان هذه الغابة تشتمل — فقط — على الأشجار الأفريقية مما أعطاها شكلا جذابا ، وقد غادرناها — غير راغبين فى مغادرتها — تاركين روائحها العطرة ، وثراءها وظل خضرتها ، انها تذكر المرء بحكايات الليالى العربية • وتتبعنا الطريق ذاته فوصلنـــا — سريعا — للمدينة فركبنا وعبرنا طرقا ضيقة ومزدحمة •

الى اسيوط :

وتفضل المدير على باشا فأعارنى حماره الضخم الأبيض كالثلج ، واسمه — أى الحمار — أبو جبل ، وهو حمار عربى من سلالة عربية نقية وغمرنى السرور وأنا أركبه فقد كانت خطواته ممتازة ، فلما رأى على باشا مبلغ سرورى به أهدانى اياه • وكان يجب علينا الآن أن نجد مستقرا للحمار على ظهر السفينة ، فأنشأنا له مربطا وسرعان ما دخل منزلنـا المتحرك (يقصد السفينة البخارية) ، وشرعنا فى بكور اليوم التالى فى مواصلة الرحلة الى أسيوط ، وتوقفت الباخرة عند آخر محطاتها ، فوصلنا الى أسيوط عند الظهر ، وسلكنا طريقا تحفه الأشجار أدى بنا الى داخل المدينة • ومدينة أسيوط هى أكثر مدن مصر أهمية جنوب القاهرة ، فهى مقر المدير وبها تجارة مزدهرة ومبان ممتازة ، حقيقة ان المنازل — حتى هنا — مشيدة من الطين ، لكنها أكثر ارتفاعا وبها زينات وزخارف عربية أفضل مما هو موجود فى المدن الواقعة الى الجنوب منها : فالمآذن والبوابات الجميلة تلفت نظر المسافر ، والطرق التى تحفها أشجار الجميز والبساتين المثمرة تحيط بالمدينة من ناحية النهر •

وركبنا دوابنـا وسرنا فى بعض الطرق الضيقة ، وبين المرابـط Stalls الممتدة بطول احدى الأسواق المهمة التى ينتهى اليها طريق قافلة دارفور — وكانت السوق عامرة بريش النعام والعاج • وللأوانى الفخارية الأسيوطية الحمراء والسوداء خصوصيتها ، وكانت المناظر فى السوق شائقة جدا بما فيها من حركة ونشاط • وكان كل سكان وادى النيل من مختلف المديريات بأزيائهم البهيجة المختلفة — موجودين هنا جنبا الى جنب مع الفلاحين الحقيقيين الذين يمارسون التجارة •

وعبرنا المدينة ووصلنـا لسفح جبال منحدرة بعد أن مررنا ببحر يوسف المعروف • وفى أسـيوط تقترب الجبال من النهر أكثر فأكثر ويضيق السهل الزراعى كثيرا جنوب المدينة وشمالها بحيث لا يتجاوز

بضع خطوات • وصعدنا ممرا منحدرا ضيقـا لنلقى نظرة على الكهوف والمعابد الجنائزية Sepulchral chapels المقامة فوق الجبال بين الصخور والأحجار فى منتصف المسافة بين السفح والقمة •

وكان لهذا المكان اهمية خاصة فى التاريخ القديم ، وقد اتخذت اسيوط Ossiut ــ أكبر مدن صعيد مصر وأكثرها أهمية ــ اسمها الحالى من الاسم القديم سيوط Siut • وكان لأنوبيس Anubis ــ الربة التى تحمل رأس ابن آوى ــ معابدها ومذابحها هنا • لقد كانت كل حيوانات الفصيلة الكلبية ــ خاصة الذئب ــ هنا ، لذا فان الاسم الاغريقى للمدينة هو ليكوبولس Lykopolis وتعنى مدينة الذئب • وفى كهوف الجبال التى تقع خلف أسيوط والتى تشكل أنوفا فى سلسلة تلال الصحراء الليبية (المصرية الغربية) تجد حيوانات الأسرة الكلبية لا تزال ــ حتى الآن ــ محنطة وبحالة جيدة ، وبالقرب القريب منها جبانة مشهورة تعود لأيام الأسرة الثالثة عشرة (٢٠٠ ق٠م) والمخصصة لكبار موظفى الدولة فى هذه الفترة • وقد دخلنا احدى هذه الغرف المحفورة فى الصخر فوجدناها واسعة وبصرف النظر عن شكلها الخاص ، فاننا لم نجد بداخلها ما يستحق الرؤية •

وقد انقسمت مجموعتنا الآن ، فذهب بعض الرفاق يتجولون ببنادقهم صوب المدينة ، بينما تسلقت أنا خلال ممر ضيق الى الحيد ، وحظيت بالقاء نظرة على المدينة الجميلة ووادى النيل والجبال العربية (جبال صحراء مصر الشرقية) بينما كانت الهضبة الليبية (صحراء مصر الغربية) خلفى •

وهبطت للوادى مستخدما ممرا آخر حيث الصخور تنحدر بشدة ، وبين آكوام من الأحجار والكتل الصخرية ، واجتزت بعض الكهوف الجنائزية funeral Caves وبعض الهيـاكل العظميـة وأخيرا وصلت للمقـابر الاسلامية • كانت مدينة موتى اسلامية واسعة بها كثير من الآثار الجميلة الجديرة بأن يزورها المرء • انها تمتد الى الغرب من أسيوط وتصل عند أحد طرفيها الى حدائق مزهرة وأرض زراعية ، كما تصل عند طرفهـا الآخر الى قفر صحراوى •

وسرت عائدا فى المدينة وتلكأت فى شوارع الأحياء البعيدة ملاحظا أساليب الناس وطرائقهم ، وفى الوقت نفسه أطلقت بندقيتى على بعض نسور الجيف بين المنازل ، وبعد الظهر عدت مخترقا أفضل أحياء المدينة لأتناول غدائى على ظهر السفينة •

وعند الغروب ركبنا جميعا مرة أخرى الى سفوح الجبال وتمركزنا عند نقاط مختلفة ، فذهب بعض الرفاق الى المقابر ، بينما أخفيت أنا نفسى فى أحد مبانى الأضرحة الاسلامية • كان المساء جميلا • السكون يعم المكان فلا تسمع الا همس النسيم الخفيف يداعب الأوراق فى قمم أشجار الجميز •

ولسوء الحظ ، لم تأت نحو مكمنى أية طريدة من ذوات الأربع ، لكننى رأيت أكثر من عشرين نسرا كبيرا على البعد ، أتت واحدا اثر الآخر ، لتحط فوق جرف عال ، وكان أمرا مسليا أن أراقب كيف تتعارك هذه الطيور لتهيئة مجثمها الليلى ، فلم يكن أى منها براغب أن يجثم الى الأدنى من النسور الأخرى ، ومضى العراك بينها فترة طويلة قبل أن تنجح فى تنظيم نفسها بأن تجثم جميعا متجاورة ، فى شق طويل فى الصخرة •

وبعد ساعة كان على أن أغادر المقابر فقد اقترب وقت متابعة الرحلة ، فالتحقت برفاقى عند بحر يوسف ، وكانوا قد رأوا واحدا من حيوانات ابن آوى وذئبا كبيرا ، لكنهما ــ لسوء الحظ ــ كانا بين الصخور وبعيدا عن مجال البنادق ، وكان الدوق الكبير قد رأى أيضا واحدا من طيور النزافيات Vampire (وهو طائر فى حجم الغراب) فى اللحظة التى كان فيها هذا الطائر المقرف خارجا من احدى المقابر •

الوصول للبدرشين :

وركبنا بسرعة عائدين لمرسى سفينتنا ، وودعنا بحرارة أدميرالنا الأسود المحترم ، وودعنا أيضا سفينتنا الشجاعة التى كانت مسكنا لنا طوال الأيام الممتعة الماضية • انها أيام جميلة لا تنسى ، وذهبنا الى محطة السكة الحديد القريبة • وسرعان ما اتجه القطار شمالا مغادرا أسيوط وسرعان أيضا ما غشانا النوم اللذيذ ، وعندما استيقظت فى بكور اليوم الخامس عشر من الشهر ، كانت الشمس تتغلغل فى عرباتنا وكنا قد وصلنـــا بالفعل لمحطة صغيرة مهملة هى محطة البدرشين • فتنــاولنا افطارنا فى غرفة انتظــار قذرة ، ثم بدأنا الركـــوب الى منف (ممفيس Memphis) • وكان الطريق يمر بين برك سبخة وحقول جيدة وغابات نخيل حتى وصلنا لقرية ميت رهينة Mitrahenne الراقدة بين خضرة كثيفة يانعة ذات طابع خضرى أفريقى •

وسأترك برجش يحدثنا عنها :

« لقد ولت للأبد حكايات بهاء مدينة منف Memphis القديمة وعظمتها ، أو كما سمتها النقوش المصرية ، ممنوفر Mem-nofir وتعنى (المرعى الخصب Good pasture) فمعابد منف وقصور ملوكها القدماء الذين اتخذوا منها عاصمة قد محيت من فوق سطح الأرض ، وليس ثمة حجر واحد مما بقى منها يذكرنا بمؤسسى المدينة الأول • أما الآن فالمنطقة محاطة بأسوار طينية مهدمة تمتد على طول حزام النخيل المحيط بقرية ميت رهينة (وهى مينات ــ را ــ هانو القديمة old Minet R. hannu) الى الشمال والى الجنوب محددة ــ أى الأسوار ــ زمام ممفيس (منف) الواسع ، الحاضرة السالفة للوطنية المقدسة (الحرم الوطنى) فهنا كانت توجد معابد الاله بتاح المبدع العظيم وصانع كل الأشياء المخلوقة • وحرم هذا الاله كان محميا بخطوط قوية محصنة ، وكانت هذه التحصينات تشكل قلعة المدينة التى يقع بداخلها ما يعد بمثابة تمثال ربة الحكمة أثينا الذى ارتبطت سلامة طروادة بسلامته ، فقد ارتبطت سلامة الامبراطورية المصرية بسلامة ما بداخل قلعة منف ومن ثم فقد دافع المصريون بشدة عن المدينة ضد الأعداء الداخليين والخارجيين خلال حقب التاريخ المصرى •

والآثار القليلة التى لا تزال باقية ممتدة على أراضى هذه البقعة المقدسة تعود لمبانى عصور متأخرة : معابد أراد بعض الملوك الذين ترجع أصولهم الى طيبة ، بانشائها ، أن يقدموا الدليل على تعاطفهم وولائهم للحرم المقدس القديم للمملكة (المصرية) ، فرمسيس الثانى والد (سيدنا) موسى بالتبنى Adoptive father ، ويسمى أيضا سيزتورا Sestora أو (سيزوستريس Sesostri) ولد سنة ١٣٥٠ ق•م • يعد على رأس هؤلاء المؤسسين الملكيين • وبقايا المبانى الأولى التى أسسها والتى كانت تعد على نحو ما امتدادا لخرائب معابد أقدم ــ مطروحة الآن ومبعثرة فوق الأرض • وتمثاله الضخم الذى كان ــ ذات يوم ــ شامخا أمام بوابة معبد بتاح العظيم Ptah ــ يعد (أى هذا التمثال) واحدا من روائع النحت المصرى ، وهو منحوت من حجر جيرى جميل Limestone يشبه الرخام ، وهو (أى التمثال) • مطروح الآن فى منطقة يغمرها ماء النيل سنويا فى موسم الفيضان •

وملامح هذا الفرعون العظيم تذكر ــ بحيوية ووضوح ــ بتمثاله الجميل فى متحف تورين Turin • والقطع العديدة حول تمثال رمسيس ــ والتى تحمل أسماء خلفائه خاصة ابنه الملك مينبتاح Mineptah (الفرعون الذى خرج اليهود فى عهده ــ من مصر) ــ تبين

ان هؤلاء الملوك قد قدموا القرابين المختلفة أنواعها لاله مصر (لرب مصر الأعلى Supreme divinity) في بواكير التاريخ المصرى ٠

فالثور المقدس أبيس (هابو Hapu كما أسماه المصريون القدماء) كان مكرسا للاله نفسه ـ يتاح باعتبار هذا الاله تجسد (حل) في جسد الثور ، وكان الثور أبيس قائما بجانب المعبد العظيم في احدى الباحات الخارجية الملحقة بالمعبد ، وكان يحظى بالتقديس والعناية الفائقة ٠ وعند موت الثور المقدس جرت له مراسم دفن مهيبة تكلفت تكاليف كثيرة ، وحملت جثته المحنطة المزينة بزينات كثيرة ـ في عربة ، وجيء بهـا الى مقبرة أبيس Apis » ٠ وركبنا من منف خلف الأراضى الزراعية صاعدين في صحراء مصر الغربية (الصحراء الليبية) الى أهرام سقارة بعد منزل ماريت Mariette الى مقابر أبيس ٠

المنطقة هنا تشبه تماما منطقة أهرام الجيزة ٠ اذ يمكن رؤية أهرام الجيزة عندما يكون المرء عند أهرام سقارة ، وكذلك يمكن رؤية القاهرة وقلعتها ، وجبال المقطم ٠

وتوغلنا ـ مزودين بالمشاعل ـ في شبكات طرق مقابر أبيس تحت الأرض ٠ لقد بدت لا نهاية لها ، وكان هواؤها جافا مقبضا ٠

« وقد كانت الثيران ـ في أكثر فترات التاريخ المصرى ازدهـارا وكذلك في الفترة المتأخرة ـ توضع في تابوت ضخم من الحجارة الصلدة وتطرح في حجيرات منفصلة في ممرات تحت الأرض ، وكانت ترتب في مواضعها ترتيبا زمنيا (كرونولوجيا) ، ولكل حجيرة (قبر) نقوشها الخاصة بها ٠ ومقابر أبيس في منف التى هيئت الآن بأفضل الوسائل ليزورها الأجانب ـ تضم الآن أربعة وعشرين من هذه التوابيت الضخام ٠ وسلسلة الثيران المقدسة المدفونة هنا تبدأ من منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد وتنتهى زمن الامبراطور أغسطس Augustus .

أما الثيران التى عاشت قبل هذه الفترة فقد دفنت في هرم سقارة المدرج ، ففي داخل هذا الهرم توجد مساحة واسعة مقنطرة بها محاريب وممرات منفصلة ٠ وبقايا عظام الثيران التى بقيت تشير بوضوح الى الهدف من انشاء هذا الهرم » ٠

وتناولنا افطارنا في منزل صغير بالقرب من مقابر أبيس وكان عالم المصريات الشهير ماريت Mariette ـ الذى توفي مؤخرا ـ قد أقام هذا المنزل لأغراض الدراسـة ، وبعد ذلك ذهبنـا الى المدرجات الدنيا للهرم الشهير لاصطياد حيوانات ابن آوى ٠ وما كاد العرب يبدءون في تسلق

المدرجات حتى مر ــ كالبرق ــ واحد من حيوانات ابن آوى ، هابطا المدرجات ، ولم أتمكن من اطلاق بندقيتى تجاهه • وبعد جولة الصيد الصغيرة هذه زرنا الأهرامات الأخرى القريبة ، وكان الصغير منها قد افتتح مؤخرا وهو يعود الى الملك بيبى الأول Pepi I •

عن الأهرامات وأبى الهول :

وليسمح لى القارىء أن أقتبس بعض الملاحظات عن الاهرامات بشكل عام فى منف والجيزة ، وأيضا عن (أبو الهول) تفضل بها صديقى برجش :

« اله منف الوطنى القديم ، بتاح ، بقدرته الخاصة كملك للموتى ، وحام للراحلين (الموتى) حمل اسم سوكار Sokar . وهو بقدراته الخاصة تلك يعد مماثلا تماما للاله أوزوريس الذى هو بمثابة اله لكل مصر • والأماكن المخصصة لعبادته تقع فى قرية سقارة الحالية التى تحمل الاسم المصرى القديم نفسه الذى يعنى (بيت سوكار house of Soker) • وقد اشتق الاسم العربى للقرية من الاسم المصرى القديم • ويحمى اله الموتى مقابر أهل منف الكائنة حول الأهرام بشكل منظم ويعود أقدمها الى زمن ملوك منف • وقد أقيمت مدينة الموتى الجنائزية مشيدة بالحجارة وتسمى « بيوت الخلود houses of eternity » ويشكل ما بين صفوف هذه المعابد شوارع مدينة الموتى • وتحت هذه المعابد توجد الغرف الحقيقية التى ارتاح فيها الموتى راحتهم الأبدية فى توابيت حجرية أو خشبية • وأفضل قبر من حيث بقائه فى حالة جيدة من أيام ملوك منف ، هو هذا القبر الذى يعود لمصرى ذى مكانة رفيعة اسمه ثى Thi ، وقد عاش فى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد وقد جهز لنفسه معبدا بالقرب من اهرامات هؤلاء الملوك الذين تولى فى ظلهم منصب آمر الدولة officer of State .

وتعتبر الرسوم الثرية فى ألوانها والدقيقة والرقيقة والمتقنة على جدران هذه المقابر والمعابد ذات قيمة عالية لكثرة ما بها من مشاهد عن الحياة لدرجة أنها تضع أمام نواظرنا بشكل حى تماما أحوال الزراعة والصناعة ومراسم تقديم الأضحيات فى هذه الحقب الموغلة فى القدم من تاريخ الانسانية •

ويرجع وجود هذه الرسوم الى الاعتقاد بأنه فى العالم الآخر ، ستبقى الممتلكات الخاصة بالأثرياء وملاك الأراضى المميزين تابعة لأصحابها كما كانت فى الحياة الدنيا • ولم تترك هذه الرسوم مظهرا من مظاهر الحياة ولا منشطا من مناشطها الا سجلته : الملاحة ، توليد الماشية ،

الزراعة ، فيضان النيل ، الحرف وأصحابها بدءا من مصلح الأحذية حتى النجار ، الرسم والنحت ، مما يجعل هذه الصور سجلا للحياة فى الغاية من الدقة • وللزوجة والأطفال مكان بارز فى هذه الرسوم ، فالزوجة تحظى بالتقدير بسبب صفاتها الجديرة بالاطراء والتى تبلغ الأوج فى التعبير القائل : « جمالها مضرب المثل وحلاوتها فى لطفها مع زوجها » •

وفى مدن الأموات فى منف ــ التى تمتد بغير انقطاع من أبو رواش Abu-roash الى الفيوم ــ نجد أن المقابر القديمة لملوك منف مرتفعة تبدو من بعيد عند حافة الهضبة الصحراوية • وقد حكم هؤلاء الملوك فى مصر من سنة ٤٠٠٠ ق•م الى ٢٥٠٠ ق•م•ورغم أن العدد الكبير من هذه المقابر قد سوى ــ قبل الآن ــ بالأرض ، فان ما بقى منها فيه الكفاية لتمكيننا من تكوين حكم صائب عن أسلوب بنائها ووسائل تنفيذهـا • ولغرفة الدفن غالبا سقف مستدق يقوم على عمودين حجريين ، يقف كل عمود منهما مقابل الآخر ويميلان الى الأعلى فى اتجاه النقطة المستدقة ، ويجب النظر الى هذه النقطة باعتبارها النقطة الجوهرية فى أى هرم • وكتل الغطاء الحجرى فوقها تأخذ شكل هرم ، وكانت زوايا الشكل الهرمى بالمصرية القديمة بيراموس Pir-am-us ، ومنها أخذ الاغريق كلمة Pyramis ويضاف للهرم وفقا لطول فترة حكم الفرعون الذى بناه ، فكلما ازدادت فترة حكمه ازداد حجم الهرم ، فالهرم ينمو بزيادة فترة حكمه ، والاختلاف فى ارتفاعات الأهرامات تمثل ــ وفقا لهذا ــ الاختلافات فى مدد حكم مؤسسيها ، بينما ترتيبها الموضعى بحيث يتبع بعضها بعضا من الشـــمال الى الجنـــوب فيمثل فى عين المراقب ترتيبهـــا الزمنى (الكرونولوجى) أيضا •

والدخول للأهرامات يكون ــ دائما ــ من الشـــمال • ويغلق باب الهرم بكتلة جرانيتية ، وبعد المدخل يوجد انحدار ، ثم ممر مستو ينتهى بغرفة الدفن نفسها حيث موميـاء الفرعون فى تابوت عادة ما يكون من الجرانيت ، فى الجانب الغربى من الحجرة •

وأحجار الأهرام التى تشبه درجات السلم منعمة من الخارج وعندما تثبت معا تبدو ذات سطح أملس ، فيبدو الهرم بأحجاره تلك ككتلة واحدة من القاعدة الى النقطة المستدقة فى أعلاه ، متخذا شكل مثلث •

وقد فتح الباحثون عن الكنوز معظم الأهرامات منذ وقت باكر • فقد بحث الفرس بقيادة قمبيز ، وكذلك الرومان ثم الخلفاء العرب عن كنوز مدفونة داخلها ، وفى أيامنا تلك جرت محاولة أخرى للتوغل داخل أهرامات سقارة •

ووفقا لما ذكره برجش باشا ، فقد كنا أول أوربيين يزورون هرم الملك ببى منذ فتح ٠

وحتى في الأزمنة الكلاسية فان أهرامات الجيزة العظيمة كانت تعد من بين عجائب الدنيا ، ولا زالت هذه الأهرامات تثير اعجاب معاصرينا حتى الذين لا يعجبهم العجب منهم ٠ فالكتل الحجرية الضخمة المستخدمة في تشييدها ، بل وحتى طريقة توزيعها في هذه المباني العملاقة ليس لهـا نظير في أى مكان آخـر ٠ وهرم الجيزة الأكبر كان ارتفاعه ــ في البـداية ــ أربعمـائة قدم وخمسـة عشر قدما (٤١٥ قدما) ، وقدرت احجاره بما لا يقل عن خمســة وســبعين مليـونا من الأقـدام المكعبة (٧٥٠٠٠ر٠٠٠ قدم مكعب) ، ومن التقديرات أن الأحجار المستخدمة في بنائه تكفي اقامة سور بارتفاع ستة أقدام حول فرنسـا ٠ وقد حددت النقوش اسم صاحب الهرم ٠ انه خوفو Chufu ويكتبه المؤلفون الكلاسيون Cheops الذى حـكم مصر سنة ٢٧٠٠ ق٠م ٠ أمام هرم ابنه وخليفـ خفرع Chafra (وهو Chephres بالنسبة للاغريق) فقد تم انشاؤه في اتجاه الجنوب الغربي من الهرم الأكبر ، ولا يزال هذا الهرم الثـاني (هرم خفرع) يحمل غطاءه الملاطي old Coating الخارجي ٠

وعند سفحه كان يوجد هرم خاص على شكل معبد شيد من كتل حجرية كلسية وجرانيتية ومرمرية (الابستر) ، ووجد طريق يمتد الى الشرق ربط هذا المعبد بما يسمى معبد أبي الهول Temple of the Sphinx وبقايا هذا الطريق لا تزال واضحة ويدل على أنه بحالة جيدة ، ، وقد تم تنظيفه مؤخرا من رمال الصحراء ٠ وأرضية معبد أبي الهول يوجد بها في قاع بئر ممتلئة الآن بالماء ــ عدة تماثيل للملك خفرع تم اكتشافها ٠ وتحظى باهتمام خاص من السائحين الأوربيين ٠ لكن ليس من نقوش على الجدران الجرانيتية والمرمرية لهذا المبنى العملاق ، وظل الهدف من انشائه لغزا لم يحل ! ٠

وفيما يلي قائمة بالأهرامات ومشيديها من الملوك

المكان	الهرم	مؤسسه	الاسم باليونانية	الأسرة
ابو رواش Roash	خا Cha	سنفرو Snefru	سوريس Soris	الرابعة ـ ١
الجيزة Gizeh	خوت Chut	خوفو Chufu	Cheops	الرابعة ـ ٢
	وير Uer	خفرع Chafra	Chephren	الرابعة ـ ٣
	هير Hir	منقرع Menkara	Mycerinus	الرابعة ـ ٤
Zauit el-Arian	كيباه Kebeh	Scheps-Kaf شبسسكاف	Sebercheres	الرابعة ـ ٧
Rigah	اب ست Ab-set	أوسركاف Userkaf	Usercheres	الخامسة ـ ١
ابو صير Abusir	خابا Chaba	سحورع Sahurah	سيفر Sephres	الخامسة ـ ٢
	؟	keka كيكا	؟	
	؟	Nofra نوفرا	؟	
	مشست Menseet	رانوسر Ranurer	Rathures	الخامسة ـ ٦
سقارة Sakkara	نوتر ـ ست	منكاهور Menkahor	Meruheres	الخامسة ـ ٧
	نوفر	تاتكارا Tatkara	Tatcheres	الخامسة ـ ٨
	نوفر ـ ست	Unas اوناس	Onnos	الخامسة ـ ٩
	تات ـ ست Tat set	Teta تيتا	Othoes	السادسة ـ ١
؟	؟	اوسركارع Userkara	Usercheres	
	من ـ نوفر Men-Nofer	ببي الاول Pepi I	Phiops I	السادسة ـ ٤
	خا نوفر Cha-Nofer	هيونماسوف Hunemsaf	Menthsuphis	السادسة ـ ٥
	من ـ انه Men-Anoh	نوفركارع Noferkara (Pepi II)	Piophs II	

والنصف الأدنى من (أبو الهــول) مغمور فى الرمال وتســـمية النقوش هو Hu، وتصفه باعتباره تجسيدا رمزيا لاله الشمس باسمه هورماشو (هورماخو) Hormachu (حورس) ، وملامح التمثال التى اعتراها ــ لسوء الحظ ــ تدمير شديد ، تمثل موجده الملكى . its royal author

وثمة شريط طويل من النقوش بين القدمين الأماميتين لجسم الأسد ، لكن هذه الكتابات مطمورة الآن فى الرمال وهى تسجل حلما مدهشـــا لواحــد من الفراعين المصريين الأواخر · فقــد نسب الى تحتمس الرابع Thutmes IV (دفن حوالى ١٥٣٠ ق·م) هذه الرؤيا :

« انظر ، لقد كان ميالا ليصطاد ــ للترفيه عن نفسه ــ فى زمام مقاطعة منف ــ جنوبا وشمالا ــ حيث قذف بسهامه النحاسية على الهدف ، فاصطاد أسود وادى الغزال ·

لقد أتى هنا فى عربته الملكية التى تجرها خيول أسرع من الريح · وكان معه اثنان من خدمه لا أحد يعرف عنهما شيئا ·

وانظــــر اليه عنــدما يحين وقت الراحــة ، ذلك الوقت الذى يهبه لخــــادميه ، فانه يكرس هــذا الوقت لتزيين (أبو الهــول) الخــــاص بالاله هورماشو Hormachu ، الى جوار معبد الاله سوهـــــار Sohar فى مدينة الموتى ، والربة رانتوتى Ranuti ، بتقديم القرابين من القمح والزهور ، ويصلى لايزيس Isis التى أمر من أجلها ببناء السور الشمالى والسور الجنوبى ، ويصلى للاله سخمط Sochet فى جزايس (سخا) وللاله سوتيك Sutek من أجل السحر الجليل الباقى من عصور مضت فى هذه البقعة المقدسة ، بل وحتى للمناطق التى تقطنها آلهة بابليون (القـــاهرة القــديمة) وحيث يوجد الطريق المقدس للآلهة فى الجانب الغربى من هليوبولس Heliopolis · من أجــل مشــاهدة أبى الهول الاله العظيم الشــامخ شبر Cheper الباقى فى هذا المكان ، الأعظم بين الأرواح والأكثر عظمة · الذى اليه يتوجه كل قاطنى منف وكل مدن مصر بالعبادة رافعين أيديهم نحو وجهه ، ولتنحر له الأضاحى ·

« لقد حدث ذات يوم يوم أن الأمير تحتمس أتى هنا فى رحلة فى منتصف النهار تقريبا وبعد أن استظل بظل هذا الاله أخذته سنة من النوم فرأى فيما يرى النائم فى اللحظة التى تكون فيها الشمس وقفت فى السمت ، لقد بدت له كما أن هذا الاله الجليل تحدث اليه بفمه حديث الأب لابنه قائلا : « شاهدنى ، وانتبه لى جيدا أنت ابنى تحتمس · أنا

أبوك هورماشو ، أنا الاله شبر ــ را ــ تم • سأهبك الملك • ستلبس تاج مصر على عرش اله الأرض كب Keb ، ستصبح الأرض كلها لك بطولها وعرضها يغمرها نور العين المشعة لرب العالمين Lord of all ستأتيك الثروات من المناطق الداخلية وستجبي كثيرا من كل الناس وستنعم بعمر مديد • وستحظى بالأفضل لأن وجهي قد استدار لك وقلبي تعلق بك • رمال الصحراء قد غطتني • قل انك ستفعل وفقا لرغبتي ، عندئذ سأعرف أنك ابني المدافع عني • اقترب مني ودعني أتحد بك » •

« عندئذ استيقظ الأمير وكرر ما سمعه للتو • لقد فهم قول هذا الاله ووعاه في نفسه ، بينما هو يقول :

« في الحق اني أرى الناس في معابد منف • يقدمون الأضحيات لهذا الاله دون أن يفعلوا شيئا لحمايته من الرمال عمل الملك خفرع ، الصورة (التمثال) التي رفعها (كرسها) للاله ثوم ــ مورماشو Tom Hormachu ... » .

واعترى النص تشويه بعد ذلك وتعذرت قراءة ما بقي منه • وان كان من السهل تخمين ما حدث بعد ذلك • فقد أزاح تحتمس الرمال من حول (أبو الهول) ومن ثم توج ملكا لمصر • وهي حقيقة ليست ذات قيمة تاريخية كبيرة ، لكن الطريف أنه حتى في القرن السادس عشر قبل الميلاد كان أبو الهول ــ كما هو الآن ــ مطمورا الى نصفه في الرمال العميقة • وسأضيف هنا الى هذه المقتطفات التاريخية بعض الملاحظات عن الفيوم لأنها تمتد الى الجنوب من منف القديمة • يرجع الاسم الحديث الى الكلمة القديمة با ــ جوما Pa-Juma وتعني أرض البحيرة ، والمقصود هو بحيرة موريس Moeris التي كانت شهيرة جدا ــ لكنها الآن تلاشت •

وكانت بحيرة موريس ــ فيما مضى ــ الجزء الجنـــوبي الشرقي من واحة الفيوم ، وكانت بمثابة مخزن طبيعي للمياه متصل بالنيل عن طريق قناة عريضة ونظام للتصريف يؤدي لوصول فائض مياه الفيضان اليها (٤) •

وتستقبل القنوات ما يكفي لري الأجزاء الرئيسية في الواحة (الفيوم) وتحول هذا الحوض (مخزن المياه) الذي كان ذات يوم غير ذي جدوى بمرور الوقت الى حديقة للاله Garden of God ونتيجة لاعمال الحكومة اختفت البحيرة بعد أن وجد ما بقي بها من مياه طريقه الى بحيرة قارون • وكل المنطقة المحيطة بالفيوم كان يعتبر بالنســـبة للمصريين القدماء ــ شيطانيا Satanic لذا فهذه المنطقة لم تظهر أبدا في القوائم المقدسة للمدن ولا قوائم أسماء المقاطعات districts .

فهنا كانت مملكة ست ، وهو بمثابة الشيطان بالنسبة للمصريين ، وهنا مركز عبادة التمساح الذى يكرهه بقية المصريين خدم أوزيريس • وكان يوجد معبد مخصص للتمســــاح فى مدينـــة كروكوديلوبولس Crocodilopolis مجاور لمدينة الفيوم الحالية •

وقبل أن أترك هذه المناطق المصرية المهمة التى لفتت انتباهنا طوال الفصلين الأخيرين للتراث الثالث للمصريين فى عصر الفراعنة سأضيف القوائم التالية (*) •

★★★

وبعد أن تسلقنا هرم الملك بيبى الأول ببعض المشقة والمعـاناة ، غادرنا الصحراء وآثارها القديمة وركبنا عائدين الى الأرض الزراعية •

واجتزنا أثناء الطريق مزارع الأريقة (أشجار نخلية) Areca (**) التى تشـكل بيئة مناسبة جدا الأغراض الصيد فرأينا أن يقوم خدمنا باثارة الطرائد فيها وشاركهم فى ذلك بعض الفلاحين ، ومما يؤسف له أن مالك الأرض ظهر فجأة ورغب الينا ألا ننتهك حرمة ممتلكاته •

وكان هذا الشخص الذى لا يعرف التراجع زنجيا عجوزا ، وكان أغا (طواشيا) ضخما حجمه كأنه جان ، لكنه كان نحيلا ذا ملامح مترهلة وكان يلبس عباءة واسعة وعريضة ـ انه واحد من أبشع واقبح من رأيت على الاطلاق ، وكانت نظرته عدوانية وقد اكتسب من مهنته المحترمة قدرا كبيرا من المـال ، وهو يقضى الآن شيخوخته فى ممتلكاته الواسـعة • وتجنبنا الخلاف معه فركبنا للبدرشين ومن هناك أوصلنا القطار للقاهرة فى أقل من ساعة ، وها نحن مرة أخرى ـ بعد هذه الرحلة الطويلة المليئة بالخبرات الممتعة ـ نعود للقاهرة الجميلة ـ مدينة الخلفاء •

(★) الحقنا هذه القوائم بآخر هذا الفصل ـ (المترجم) •
(★★) يسمى ايضا نخيل الكوثل ـ (المعجم الزراعى) •

الأقسام الجغرافية والادارية لمصر

كما وردت بالآثار

(أ) با — تو — ريس (مصر العليا)

The Political And Geographical Division of Egypt According To The Statement on The Monument.

A. Pa — To — Ris, or The Land of the South.

Province	ARABIC	GREEK	SACRED ANIMAL
1. Tepah	Alfih	Aphroditopolis	Cow
2. Smenhur	Isment	Ptolemais	Ram
3. Chinsu	Ahnas	Heracleopolis Manga	Ram
4. Pimaza	Pemdige	Oxyrinchus	Beaked bandolus (fish)
5. Habennu	Hebe	Hipponus	Dogs
6. kasa	Kais	Cynopolis	Dogs
7. Hibonu	Minieh	Hiu	Ram
8. Chimunu	Aschmun	Hermopolis Magna	Ibis
9. Kus	Kos	Cause	Dogs
10. Siaut	Ossiut	Lykopolis	Dogs
11. Nientbaki		Hieracoupolis	Falcon
12. Shasholf	Sholp	Hypselis	Ram
13. Tebu	Atfi	Aphroditopolis	Cow
14. Apu	Abu	Panopolis	Ichneumon
15. Abidu	Harabat	Abydus	Beetle
16. Hau	Hon	Diospolis Parva	Cow
17. Tentaris	Dendera	Tentyra	Cow
18. Kobti	Kift	Koptus	Ram
19. Ni-amon	Lugsor-Karnak	Thebae	He-goat
20. Nechab	El-kab	Eileithyiapolis	Vulure
21. Teb	Edfu	Apollinopolis M.	Falcon
22. Ab	Assuan	Elephantine	He-goat

(ب) با ـ تو ـ انفت (أرض الشمال ـ الدلتا)

PROVINCE	ARABIC	GREEK	SACRED ANIMAL
1. Kosem (Goshen of Scripture)	Fakus	Phakusa	Hawk
2. Am	Far-ama	Pelusium	Serpent
3. Pibast (Pibeseth of Scripture)	Tell-bast	Bubastis	Cats
4. To-mchit (No-amon of Scripture).	Damiat	Diospolis	He-goats
5. Bindad	Amdid	Mendes	He-goats
6. Chimum	Ashmun	Hermopolis	Ibis
7. Zaan (Zoan of Scripture)	San	Tanir	Falcon Gull
8. On (On of Scripture)	Matarich	Heliopolis	Ox
9. Thabennuter	Samanud	Sebennytus	Falcon
10. Kahebes	?	Cynopolis	Crocodile
11. Hatarihab	Etrib	Athribis	Ox
12. Pusisi	Abusir	Bpsiris	Ram
13. Pitom (also in Scripture)	Tell-el-Kebir	Patumus	Eel
14. Sontinofer	Alexandria	Gyynaecopolis	Crocodile
15. Chasun	Hasse	Sais	Ram
16. Sai	Sa	Prosopis	cow
17. Zokpir	Shebshir	Apis	Crocodile
18. Ni-ent-hapi	?	Letopolis	Ox
19. Sochem	Ausim	Memphis	Hawk
20. Menofir (Noph of Scripture)	Munf		Ox

تعليقات المترجم على الفصل الخامس

(١) راجع تعليق رقم ٧ بالفصل الرابع ٠

(٢) راجع تعليقات الفصل الرابع ٠

(٣) يلاحظ القارىء الكريم ان دلالة الكلمة فى اللغة العربية هى الدلالة نفسها التى يحملها اسم هذه الربة المصرية القديمة ٠

(٤) فى وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ان بحيرة قارون هى نفسها بحيرة موريس ٠

الفصــل الســادس

يوم فى القاهرة ـ حديقة الأزبكية ـ مولد الحسين ـ الى الجزيرة والجيزة ـ الصيد عند الهرم ـ الرحلة الى المنزلة ـ دميـاط ـ بقايا الهكسوس ـ جزر المنزلة ـ بورسعيد ـ البرود الانجليزى ـ ارتطام فى القناة ـ من بورسعيد للاسماعيلية ـ الى القاهرة ـ شجرة مريم ـ مزرعة النعام ـ الحمام التركى ـ القلعة ومسجد محمد على ـ شخصية محمد على ـ مذبحة المماليك ـ بئر يوسف ـ الكتبخانة ـ الحاوى ـ الى القنـاطر ـ الدراويش ـ الرحلة للسويس ـ عن برزخ السويس ـ سيناء ـ عيون موسى ـ لقاء مع دى ليسبس العجوز ـ الى بورسعيد ـ مغادرة مصر ـ رسـوم الفنـان بوسنجر • تعليقــات المترجـم •

ووصلنا من المحطة الى مدينة الخلفاء القديمة (القاهرة) بعـد أن قطعنا طريقا جميلا تحفه الأشجار وعبرنا جسرا ضخما على النيل ، وكانت شوارع المدينة تغص بالحياة ، فالوقت كان عصرا •

السريات والعربجية ، والسائرون على أقدامهم • سرعة ذات طابع غربى ، ونشاط جنبا الى جنب مع قوافل الجمال والنسوة القرويات المحجبات والحمير الناهقة والسقاءون والمتسولون العمى — وكل ما له رائحة الماضى ، وكنا سعداء أن نعود مرة أخرى للاستمتاع بالحياة فى القاهرة • وسرعان ما وصلنا بعد أن مررنا بالحى الغربى وعبرنا جسر ترعة الى طريق شبرا الذى تحفه الأشجار ومن ثم الى مقر اقامتنا فى قصر النزهة •

وبعـد أن استحممنا وتناولنا عشـاءنا شغف بعضنا سحر الليالى الأفريقية المقمرة فاتخذنا سبيلنا الى داخل المدينة بعربات مستأجرة •

حديقة الأزبكية :

وتوقفنا فى حديقة الأزبكية وتجولنا بين الأشجار والنباتات وبالقرب من البرك وحول مساقط المياه الصناعية والصخور والأكشاك •

وكان الناس جالسين فى معظم المطاعم ـ خاصة أهل الشرق الأدنى العاملين فى التجارة ـ ورأينا الشباب يقضون وقتهم فى الشراب والاستماع للموسيقا ولعب الورق ٠

وتعتبر حديقة الأزبكية هذه نعمة عظيمة للقاهريين ٠ خاصة فى فصل الصيف ٠ انها حديقة تلقى العناية ويتم الانفاق عليها بسخاء كما انها مزدهرة ويانعة بفضل المناخ الملائم ٠ ويبلغ تأثيرها أروع درجاته عندما يكون القمر بدرا ، أما بالنسبة لنا فقد بدا لنا قمر القاهرة شاحبا ، ولا غرو فهو بالفعل كذلك اذا قورن بقمر أسوان ٠

مولد الحسين :

ومن حديقة الأزبكية انطلقنا لنجول خلال الحى العربى القديم ٠ وقد اخترنا أمسية مناسبة ٠ وكان ذلك من محاسن الصدف اذ كان المسلمون يحتفلون بمولد الحسين the feast of the great El-Hossein لذا ، فقد استمتعنا بمناظر شائقة للغاية لمهرجان شرقى ليلى كان معقودا فى الشوارع القريبة من المسجد الذى يحمل اسم « مسجد الحسين » ٠

جموع كبيرة من الناس كانت تتحرك فى الشوارع الضيقة غدوا ورواحا ، والحوانيت والمقاهى مشرعة أبوابها والمصابيح والشموع مثبتة الى البيوت ، وقد بسطت سجاجيد زاهية فى الطرقات ، وتتدلى فى الشوارع الثريات الزجاجية معلقة فى حبال ملونة ، وكل المنازل مزينة بزينات غالية أو رخيصة وفقا لمدى ثراء ملاكها ٠ كان كل شىء مبهجا يغمره الضوء ، وكانت الألوان زاهية متعددة ، وكانت المشاهد خصبة خصوبة تفوق الوصف ٠

وراح المسلمون من مختلف الطبقات والمهن يدفع بعضهم بعضهم الآخر (يزغد بعضهم بعضا) ، لقد كان الجميع يتزاحمون وهم فى طريقهم لمسجد الحسين الذى بدا فى أحسن زينة ، وقد تدلت المصابيح من أبوابه الواسعة المشرعة ـ وترى فى هذا الجمع المزدحم المتجه للمسجد ـ الفلاحين التقليديين بأثوابهم الزرق والسقائين وهم يصيحون ، والمتسولين وهم يشكون والعرجان وهم ينتحبون ، كما ترى البدو بعباءاتهم البيض والتجار المكتنزين لحما ، والمحترمين الذين يرتدون ملابس ذات ألوان مفرحة ويضعون عمائم خضرا على رءوسهم بزعم أنهم من سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والجنود وبائعى مختلف البضائع والاشياء ٠

ومن هنا توجه الجمع المزدحم الى الجانب الاعلى من الطريق حيث الحواة الذين يلعبون بالافاعى والمشعوذون والراقصون والراقصات مما أضفى على الطريق روح السوق الشرقية ٠

وكان معنا فى هذه المناسبة برجش باشا Brugsch فنصحنا بعدم الذهاب للمساجد ونحن فى ملابسنا الغربية لكثرة المتعصبين به فى ذلك الوقت ، ومن ثم فقد شققنا طريقنا الى حيث المشعوذين والحواة لنراقب الحياة الوطنية الحقيقية للشعب · الشارع يصعد بنا تصعدا وئيدا ، لذا فلم نتمكن من القاء نظرة فوقية شاملة على هذا الخليط وعلى الألوان الغريبة والأضواء · لقد بدا غريبا ومسعورا بالنسبة للمسلمين الشرقيين وذكرنى بشدة بالباليه البندقى (الفينيسى) الذى يمثل مهرجانا شعبيا صينيا ·

وبعد فترة عدنـا الى الحى الأوربى حيث كانت المقـاهى ومحلات النبيذ لازالت مزدحمة · هنا ــ كما فى أى مكان فى بلاد الجنوب ــ يتحول الليل الى نهار ورأينا الأوربيين الشرقيين من أغنياء وفقراء لكنهم كانوا يضعون الطرابيش فوق رءوسهم ويلعبون البلياردو والورق أو يستمعون الى الفرق الموسيقية ·

زيارة الخـديو :

وفى صباح اليوم التالى زرنا الخديو Viceroy لنشكره للكرم الفائق الذى حظينا به أثناء رحلتنا النيلية · ولم تكن زيارتنا هذه رسمية ، لذا فقد اتجهنا قبل الظهر تماما قاطعين الطرقات غير المزدحمة الى القصر · وقضينا ربع ساعة مع الخديو نشرب القهوة المعتـادة وندخن السجائر الممتازة وسأل (الخديو) بشوق بالغ عما جلصنا به من تجـارب فى رحلتنا النيلية المبهجة ·

الى الجزيرة والجيزة :

وعدنا من القصر سـالكين أقصر الطرق الى قصر النزهة لنرتدى ملابسنا الرياضية ، وبعد فترة راحة قصيرة بدأ جمعنا كله للقيام بنزهة لمقرات Seats نائب السلطان فى الجزيرة والجيزة ·

الحدائق ذات جمال فريد ، ببحيراتها ومحطات مياهها ونوافيرهـا وأكشاكها (ظلاتها الخشبية المعدة للراحة) ومجازاتها المغطاة بالخضرة وطرقاتها الظليلة ، وروعة زروعها ، وكثرة زهورها التى تنثر عطرها على نحو لا يوجد الا فى مثل هذا المناخ · لقد أدت حرارة المناخ بالشرقيين الى أن يحيوا حياة بطالة (حياة غير فعالة) فنتج عن ذلك ذوق مصفى وعادات مترفة فصور مناظر وحكايات الشرق الخيالية ، يراها المرء هنا وقد تحولت الى واقع ملموس ، فالمرء يجد هنا كما يجد في حكايات الشرق أن السعادة والمتعة هما الهدف الوحيد للحياة ، ولم يعد موجودا ــ لسوء الحظ ــ هنا

معرض الوحوش المشهور جدا ــ الذى أقامه آخر نائب للسلطان ، فلم نجد الا اقفاصا خاوية ٠

ولم يكن المنزل (الذى أقمنا فيه) يبعث على السرور كثيرا فقد كان المبنى واسعا ليس له نمط مميز ، وانما كان ذا طابع أوربى تماما لا يذكرنا بالشرق الا من خلال بعض الزينات العربية هنا وهناك ٠ وكان يضم من الداخل كثيرا من السلالم والقاعات ، والأهم من ذلك أنه كان يضم ما لايحصى من الغرف بدت غربية الطابع الا أنها جميعها مطلية بطلاء ذى لون فاقــع وبدت جرداء ٠ وذكرنا أننا فى الشرق بعض الدواوين التى فرشت بشكل جميل وأشغال الرخام والكوات الصغيرة فى الجدران وأوانى الزهور والمياه الجارية والحمامات الجذابة ٠

وثمة أماكن كثيرة داخل القاهرة وحولها تكاد تكون غير مأهولة بالسكان ٠ وتتحمل بعض الأميرات كبيرات السن حياتهن الرتيبة المملة فى هذه القصور حتى النهاية ، ولأن صيانة هذه المبانى تتكلف مبالغ طائلة فانها تترك حتى يعتريها الخراب بالسرعة نفسها التى تم تشييدها وتزيينها فيها ٠ فكما أقيمت بسرعة ، فانها تخرب بسرعة ! ٠

وقد زرنا كل ركن فى هذه الحدائق وتلك المنازل ، ومن ثم اتخذنا طريقنا الى أهرامات الجيزة ٠

كانت الحرارة شديدة وكانت الرياح تقذف برمال الصحراء الى أنوفنا وعيوننا ، لذا فقد سعدنا عندما انتهينا من قطع هذا الطريق الممل الطويل ، ووصلنا الى سفوح هذه المبانى العملاقة ٠

الصيد عند الهرم :

وكان هدفنا من زيــارتنا للأهرامات للمرة الثـانية هو اصــطياد حيوانات ابن آوى ، وتسلق هرم خوفو ، وبدأ بعض العرب فورا فى البحث (بين صخور) هذه المبانى الجليلة ولم يجدوا الا حيوانين من هذه الحيوانات (حيوان ابن آوى) : قتل الدوق الكبير واحدا منهما ، وأطلقت أنا النار على الآخر لكنهما كان بعيدين جدا ، فزحف الحيوان المصاب الى الصحراء ٠

ولم يكن ثمة أحد عند الهرم الثالث الصغير لذا فسرعان ما قررنا تسلقه ، وتحمل رفاقى المشــاق فتسلقوه فى عشرين دقيقة دون وقوع حوادث خطرة ، ورغبت أن أعطى العرب الذين تزاحموا حول السائحين وراحوا يرقبونهم خطوة خطوة ــ الفرصة لممارسة تدريباتهم الرشيقة فرحت أقفز من حجر الى حجر فوصلت الى قمة الهرم فى تسع دقائق ٠

ومن فوق صخرة مسطحة فى أعلى الهرم يمكن للمرء أن يشاهد منظرا جميلا لوادى النيل الأخضر والأرض الخصبة المتاخمة لها حتى الصحراء ذات اللون البرتقالى من الجانبين ، ومدينة القاهرة الجميلة ببيوتها المزدحمة ومآذنها السامقة ·

كانت الشمس تؤذن بالمغيب ، فبدا قرصها ككرة من لهب فى هذا الجو الضبابى المصفر المفعم بالحرارة ، العامر بذرات الرمال — واختفى قرصها فى صحراء مصر الغربية (الصحراء الليبية) وهبطت فى المساء على الجبال الشرقية وظهرت القلعة القديمة وجبال المقطم فى ألوان وردية خفيفة كألوان جبال الألب عندنا ·

وجرى بعض المرشدين العاملين عند الهرم — خاصة البارعين منهم فى الجرى — أملا فى الحصول على بقشيش ، ليهبطوا — فى ثمانى دقائق · قمة هرم خوفو · ويصعدوا قمة هرم خفرع ، مع أن الجزء العلوى من هذا الهرم الأخير خطر جدا ومن الصعب تسلقه فليس به درجات يمكن الصعود عليها ·

وبعد استعراض المهارات هذا هبطنا من محطتنا الشامخة هذه وفى الطريق أخبرنا مرشد شاب ذو ملامح جميلة وسحنة عربية أصيلة أنه ليس مصريا ، وليس واحدا من الفلاحين البؤساء وانما هو يشرف بأنه ينحدر من سلالة جزائرية نبيلة ، وأنه كرجل رأى العالم لا يعرف تونس فحسب وانما مراكش أيضـــا حيث يعيش العرب الحقيقيون لا البشر المخلطون البائسون الذين يعيشون فى وادى النيل · وكان هذا الرجل الطيب يبدو ســاخطا جدا على مواطنيه (المصريين) وتنفس عن مشـاعر السخط هذه بوضوح عندما وجد أن حواره شائق بالنسبة لى ·

وعند سفوح الأهرامات كان علينا أن ننظر بارتياب الى ما يفعله بعض البدو · لقد ركبوا ، ودابة أحدهم خلف دابة الآخر وانطلقوا بأقصى سرعة وأطلقوا النـار من بنادقهم ولم يكن هؤلاء الرجـال ولا خيولهم ولا ملابسهم ولا بنادقهم فى هيئة يمكن وصفها بأنها جميلة أو أصيلة ، فحيثما يذهب المرء يجد ابتزازا وخداعا تحت شعار ما يسمى بالعروض الوطنية ، وتعتبر الأهرامات هى محط أنظار السائحين ، وينتهز البدو فرصة ذلك فيمارسون خداعهم الغبى · انهم ينتمون الى نفس الفئة التى تنتمى اليها الظبـــاء المجترة التى تجســدها مغرورة متشنجة فى غابات سويسرا ·

لقد زحف المساء وكان علينا ان نكر عائدين الى مقر اقامتنا بسرعة سالكين الطريق نفسه الذى أتينا منه ، كما كان علينا — أثناء العودة —

أن نمر بشوارع المدينة التي كانت في هذه الساعة مفعمة بالحركة والنشاط ، ولما انتهينا من تناول وجبتنا اتجهنا للسكة الحديدية لنتجه الى المنزلة ·

الرحلة الى المنزلة :

وتجمع بعض الرجال في محطة القاهرة لوداعنا ، وكان من بينهم صديقنا برجش باشا · وكان البارون ساورما حاضرا وجاهزا ليصحبنا الى بحيرة المنزلة · وفي غضون دقائق أخبرنا هر زمرمان Zimmerman رفيقنا المخلص في كل رحلة قطار أن الوقت قد حان لنبدأ رحلتنا ·

لقد تحدثنا كثيرا خلال الساعة الأولى في القطار ثم شرع كل واحد منا ينسل طلبا للراحة ، وحتى لا يكون هناك سبب لقطع نومنا ، سمح لحافلتنا بالتوقف في محطة دمياط التي وصلناها ليلا · ولما استيقظنا مبكرا في صباح اليوم السابع عشر من شهر مارس وجدنا عربتنا وحيدة على جانب المحطة ·

وبمجرد أن تجمع رفاق الرحلة هبطنا على شاطىء الترعة (؟) وحملنا زورق بخاري للناحية الأخرى ·

دمياط :

لقد سرتني دمياط كثيرا · انها عربية أصيلة وحتى المناطق التي تحد الترعة Canal ذكرتني فجأة بالموانى الهولندية والبلجيكية · وبدت دمياط مثل انتورب Antwerp وقد نقلت الى بلاد العرب بفضل السفن الصغيرة التي راحت تبحر قادمة أو مغادرة بأعلامها وصواريها الجميلة ·

وذهبنا سيرا على الأقدام من الرصيف الى منزل ممثلنا القنصلي وهو رجل عجوز مضحك ومهمل ·انه ــ بالضبط ــ مثلنا ·

وداخل دمياط ذو طابع شرقي واضح فشوارعها ــ اذا أمكن تسميتها بهذا الاسم ــ أشبه قذارة وأكثر ضيقا ، وأكثر تزينا بالزوايا والسلالم الخشبية ، من معظم المدن العربية · وحيث تختفي المياه الجارية بعيدا عن المنازل ، تختفي الروح الهولندية التي تميز مدينة دمياط ·

وعلى أية حال ، ففي دمياط يهب هواء ذو طابع شمالي (أوربي) (ان كانت كلمة شمالي هذه مناسبة لأفريقيا) أكثر مما يحدث في أحياء القاهرة العربية أو مدن صعيد مصر · وفي بعض الأحيان يحس المرء بالبرودة هنا كما أن وجود البحر يجعلنا نحس بالرطوبة ·

والمنازل هنا غير مزدحمة (أكثر تفردا وانعزالا) أسقفها جيدة ، وبتعبير آخر فانها قد شيدت لتمكث فترة أطول ٠

وفي منزل ممثلنــا وجدنــا كل شيء منظما جميــلا ــ غرف أوربية مفروشة بسجاجيد تركية ، وخدم عرب ، ورائحة الشرق ، وعطر الزهور ذو الرائحة النفاذة ينتشر في كل أرجاء المنزل ٠ وفي كل شيء يمكنك أن تلمح أن صاحب المنزل شرقي أصيل ٠

الى بحيرة المنزلة :

وبعد أن تناولنا افطارنا على عجل (وكانت أمتعتنا في هذه الأثناء توضع فوق ظهور الخيول) بدأنا رحلتنا من جديد ٠ وامتطى بعضنا حميرا وركب اثنان من جماعتنا حنطورا (عربة قديمة الطراز) ، وفي غضون دقائق قليلة تحركت قافلتنــا الصغيرة ينظم مسيرتها صيحات الحمارة (بتشديد الميم) ، وسار موكبنا في بعض الشوارع حتى وصلنا الى طريق جيدة تحفها البساتين والمنازل الريفية وبعض غابات النخيل غير الكثيفة ، على طول ترعة حتى وصلنا إلى شاطيء البحيرة ٠ ورأينا ثلاثة أكواخ بائسة للصيادين على الشاطيء الرملي ، وأمامنا امتدت البحيرة العريضة لا تحدها حدود وقد اعترت مياهها الدكنة ، وشواطئها سبخات وكثبان رملية ، وكان منظرها موحشا رتيبا ساكنا سكون النوم ٠

وفي المنزلة لم أستطع ــ حقيقة ــ أن اقنع نفسي أنني لازلت في مصر حيث بهــاء الألــوان وخصــوبتها ٠ ولم يكن الجــو ملائما وكانت الرطوبة محسوسة ، والرياح الباردة غير المحببة أجبرتنا على ممارسة رياضتنا تحت السحب الممطرة الداكنة ، وكانت السماء عابسة تماما ٠ لقد بدا كأننا عدنا للشمال (لأوربا) مرة أخرى وتذكرنا بحسرة شمس أسوان التي لا تنسى ٠ ان هذه البحيرة الكئيبة جديرة بأن تكون احدى بحيرات سهول شمال أوربا ، ورست السفينة (الذهبية) أمام أكواخ صائدي الأسماك ٠ وفكرت أن قراصنة الماضي لم يكونوا يستخدمون قوارب أسوأ من تلك التي يستخدمها صــيادو بحيرة المنزلة ، فقواربنا النمساوية الصغيرة تعتبر فرقاطات (سفنا شراعية حربية) اذا قورنت بها ٠ وكان يتحتم علينا أن نختار لأنفسنا بعض هذه القوارب البائسة ، فاخترت أنا والدوق الكبير والبارون ساورما والقسيس المرافق لنا أكبرها ، وكل اثنين من رفاقنا استقلا قاربا ، وتبعنا قارب آخر يضم الأعلاف والطعام ٠

ويكفي أن أصف قاربــا من هذه القوارب لينسحب وصفي عليها جميعا ٠ لقد كانت جميعا بحالة سيئة ففي المقدمة مكان مرتفع يحيط بالعقل (الصاري) وعلى هذه المقدمة المرتفعة مقاعد من خيزران ومنضدة صغيرة ،

وفى هذا المكان يمكننا قضاء النهار ، وهنا أيضا ينام الصيادان وطاقم القارب بالليل ، واذا رفعت فتحة صغيرة فانك تكون قد فتحت خزانة صغيرة يمكن أن تخزن فيها الأمتعة ، وفى وسط القارب الى الآدنى من هذه المنطقة الأمامية المرتفعة بخطوتين توجد كبينة (قمرة) صغيرة ذات نوافذ زجاجية ، وهذه الكبينة (القمرة) مقسمة الى قسمين — وفى الناحيـــة الخارجية يوجد سريران ضيقان ولا شيء آخر • وفى الحقيقة فان المكان لا يتسع لشيء آخر ، وفى الجانب الآخر يوجد نوع من الخزائن يمكن للمرء بشيء من الحذق والمهارة أن يصعد فوقها لكنها منخفضة جدا لا تتيح للمرء أكثر من الاستلقاء فوقها وثمة حشيتان تملآن هذا المكان الضيق • وفى هذا المكان يتحتم على رجلين ضئيل حجمهما أن يناما جنبا الى جنب ، دون أن تعترض أطراف أحدهما أطراف الآخر • ودفة هذا القارب موجودة عند المؤخرة •

بقايـا الهكسوس :

وكان طاقم السفينة كله من صيادى البحيرة يلبسون ملابس واسعة مبهجة ويضعون العمائم فوق رءوسهم ولم يكونوا على قدر كاف من النظافة وقد عبقوا المكان (بزفارتهم) • ولم يكن لأى منهم طبع العربى وسماته • فجلودهم بنية داكنة ووجوههم عريضة وأنوفهم مسطحة flat (فطساء) وبنيتهم لها طابع رجولى ، ولكنهم ليسوا نحالا جدا ولا عصبيين كمعظم العرب ، ومن النظرة الأولى يمكن للمرء أن يحكم أنهم سلالة أجنبية (غير عربية أو مصرية) ، وفى الحق فان المناطق المحيطة ببحيرة المنزلة يقطنها سلالة الهكسوس القدماء وهم احدى القبائل الكوشية الذين هزموا الفراعنة زمن الأسرة الرابعة عشرة ، وقد احتفظ هؤلاء الهكسوس بجنسهم نقيـا (غير مختلط) • وكان علينا أن نكون فى قاربنـا الصغير هذا بالقرب القريب من هؤلاء الناس • وكان هذا أمرا شائقا من النـاحية العلمية ، لكنهم على المستوى الشخصى أناس لا يحب المرء أن يعيش معهم ان كان له مطلق الحرية فى الاختيار •

وقبل أن نبدأ مباشرة أتوا بطائر بجع أعمى لاستخدامه كشرك ، وكان — على أية حال ينقر بمنقاره هنا وهناك ، كما كان قذرا جدا فأعدناه للشاطىء بعد وصوله بدقائق قليلة وتم ربط كل قارب كبير بآخر صغير ، وبدأت الرحلة : ان هؤلاء الناس يحركون أشرعتهم بمهارة فائقة ، وبمعاونة الرياح الغربية القوية انسابت سفننا بسرعة فوق سطح الماء • وتعد بحيرة المنزلة احدى أكبر البحيرات المالحة فى العالم ، وهى بحيرة هائلة لا يفصلها عن البحر (المتوسط) سوى شريط من كثبان رملية ، وعند شواطئها

الجنوبية والغربية ألسنة طويلة من مستنقعات وسبخات ، أما الى الشرق فنجد مخرجها عند حاجز داخلي لقناة السويس ·

Findr its outlet at the inner dyke of the Suez Canal.

وإذا غادرته دمياط وجدت ـ الى الشمال ـ شريطا من كثبان رملية صفراء ووجدت الى الجنوب ـ لكن على مسافة بعيدة ـ مساحات خضراء ، ووجدت ـ الى الشرق ـ المنظر ممتدا حيث الماء واليابسة يختلطان كما هو الحال عند ساحل البحر · وفي البداية لم نر الا جزرا قليلة لكن مساحاتها كبيرة · وعمق البحيرة التى تبلغ مساحتها خمسا وأربعين ميلا مربعا ـ الآن ـ يزيد عن مفصل فخذ الرجل، وقاعها من طمي متماسك Stiff clay وأثناء العواصف ـ التي تبلغ درجة كبيرة من العنف أحيانا ـ لا يمكن أن يغرق المرء فيها اذ بامكانه أن يقف ويسير على قدميه في كل أنحائها ·

وفي شهور الشتاء تكون هذه البحيرة مغطاة تماما ـ بمعنى الكلمة ـ بكل أنواع الطيور المهاجرة خاصة البط والأوز ، وفي النصف الثاني من شهر مارس لا يجد المرء الا الطيور المحلية وبعض أسراب طيور الشمال التى تأخرت في هجرتها · أما نسور البحر الضخمة التي تصل للبحيرة بأعداد كبيرة شتاء ، فلا تكون موجودة في شهر مارس باستثناء بعض النسور المنقطة قليلة العدد يمكن رؤيتها في بعض جزر البحيرة ·

وقد وافقنا في البداية أن يتفرق جمعنا وأن تتخذ كل مجموعة الطريق الذى تريده شريطة أن نكون جميعا على مرأى من بعضنا وبعضنا الآخر وأن نلتقي ظهرا عند اشارة متفق عليها لتناول الغداء · وسرعان مارأينا بعض البجع يسبح وفشلت محاولتنا الاقتراب منه بقارب صغير ، كما هي العادة ، فواصلنا طريقنا بالذهبية ·

وبعد فترة يسيرة دخلنا منطقة الجزر · ان وسط البحيرة ممتلىء تماما بالجزر المسطحة منها الكبير ومنها الصغير ، ومعظمها ذوات شواطىء رملية ، وفوقها أسراب من البجع بأعداد هائلة · أكبر من الجزر نفسها ، وكانت تتالق تحت أشعة الشمس بألوانها الحمراء التي تخللتها بقع بيضاء ·

واقتربنا ببطء وحذر من احدى جماعات البجع هذه ، وبحثنا بمناظيرنا المقربة (التلسكوبات) بدقة ، فلم نر الا بجعا ، ولم نر بشروش (فلامنجو Flamingo) واحدا ، وكان طائر البشروش هذا هو ما نود رؤيته ·

وعندما كنا على مسـافة لا تقل عن خمسمائة خطوة ، بدأت طيور البجع تضطرب فمدت أعناقها الطويلة وحركت أجنحتها وانطلقت أربع من بنادقها لتقدم لهذه الطيور التي اعترتها الدهشة ـ تحية الصباح • فعم بينها اضطراب شديد ، وضربت بأجنحتها بحيوية وانطلقت محلقة فغطت الجزيرة البيضاء بسحابة هائلة سرعان ما ألقت بظلها على الماء • والآن بدأنا نطلق النار بشكل فردى ، ومن الغريب أن أقول ان هذا كان بدون نتيجة فقد كانت الطلقات تذهب هبـاء بسبب بعد المسافة كما أن هذه الطيور التي تبدو قريبة جدا ومكتظة يوجد بينها في الواقع مسافات • لم تسقط الا بجعة واحدة ـ عندما أطلقنا الوابل الأول ـ هوت ميتة طافية فوق سطح الماء وخاض أحد البحارة لاحضارها •

ولما توغلنـــا في الجزر زاد المنظـر حيوية ، فقد كانت النـوارس Sea-mews وطيور الخطاف Sea-Swallow والبط تسبح بين الجزر بأعداد كبيرة • وكان يسـبح حـــول الجزر أيضـا (أبو ملعقة) Spoon bills والغطاس divers وبط صغيرحجمه لم نستطع تبينها من على البعد • وثمة طيور رمادية وأخرى فضية وطيور البلشون (مالك الحزين) وأسراب من طيور محلية من أنواع مختلفة في أسراب على الشواطىء الرملية (للجزر)، ولم يكن لدينا الوازع القوى للتوقف في أية جزيرة فلم يكن وقت الظهيرة قد حل بعد أن تجمعت سفننا وكان كل من معنا فى الدهبية قد استمتع بطعام افطـار جيد تم اعداده فى السفينة (القـارب) المخصص لاعداد الطعام وحمل المؤن ، وظهرت أمامنا جزيرة أكبر مســاحة مزدانة ببرج أبيض •

هذا قبر شيخ (ولى) يحظى بتوقير كبير فى بحيرة المنزلة • وثمة أكواخ بائسة للصـيادين الى جانب المبنى المهدم بقبته المستديرة ومئذنته النحيلة التي تشبه المنارة ، ويفصل هذه الجزيرة عن جزيرة أخرى صغيرة ممر مائى ضيق • وقررنا أن نتوقف هنا لنمارس الصيد سيرا على الأقدام ، وقد اختـفى طائر البـلشون (مالك الحزين) بمختلف أنواعه عند أول محاولة منا للاقتراب ، ومن ناحية أخرى فقد وجدنا على شاطىء الجزيرة عددا من الطيور الأصـغر حجما ـ أبو مجرفـة avosel or Scooper وهو طائر ملفت للنظر ريشه أبيض وأسود وساقاه طويلتان نحيلتان ، ومنقاره مقوس لأعلى ، وطائر الراف ruff (وهو طائر مائى تتميز ذكوره فى فترة معينة بأطواق ريشـية حول أعنـاقها) وأربعة أنواع مختلفـة أو خمسة من عائلة طيور الشاطىء •

وتفرقت كل مجموعة منا فى اتجاه وسرعان ما دوت الطلقات مرحة وفى أقل من نصف الساعة كنا قد أطلقنا طلقاتنا فى كل أنحاء الجزيرة •

جـزر المنزلـة :

والجزر نفسها لا تستحق الا كلمات قليلة لوصفها فلها جميعا التكوين نفسه • فجميعها ضيقة وطويلة ، وجميعها تغطيه القواقع والأصداف ، وكل سطوحها تكسوها أشجار الطرفاء Tamarisk داكنة الخضرة ، وشواطئ الجزر رملية ومستوية ، وفى بعض المناطق يجد المرء طميا (طينا) على سطوحها ، وريش الطيور متناثر فى كل مكان — زغب البجع كبير الحجم ، وزغب البشروس الوردى ، وزغب أنواع أخرى مختلفة من طيور الماء •

وبعض الجزر — خاصة تلك التى تحيطها شواطئ رملية واسعة تبدو مغطاة تماما بطبقة من زرق (بفتح الزاى والراء) الطيور ويمكن للمرء أن يرى على الطين آثار أقدام كل أنواع طيور الماء وطيور المستنقعات والسبخات ، وفى مكان واحد رأيت أيضا آثار أقدام نمس ، ثم تابعنا رحلتنا شرقا بعد أن مارسنا رياضة الصيد لوقت يسير لكنه مثمر •

وقد رغبنا هذا اليوم أن تواصل الرحلة حتى نصل لمنطقة طائر البشروس (الفلامنجو) ، وفى الحقيقة فاننا سرعان ما رأينا بين الجزر — الشاطئ الوردى الطويل لهذا الطائر الفريد • كان المنظر بهيجا • وكان علينا أن نعبر لسانا ضيقا من اليابسة ، لذا فقد أوقفنا الذهبية ، وحثثنا رفاقنا الآخرين — نظرا لانقضاء فترة كافية على منتصف النهار — أن ينتشروا بين الجزر وأن نلتقى فى هذه البقعة لقضاء الليل •

وتم سحب قاربنا الصغير عبر الجزيرة لقرب أسراب البشروس من الشاطئ المقابل ، ولما أصبحنا على بعد حوالى أربعمائة خطوة منها بدأت تتململ وتتحرك بينما كانت قبل اقترابنا واقفة بلا حراك • وأهدينا لها أول وابل من الطلقات ، فعلتنا سحابة وردية رائعة وابتعدت عنا مخلفة وراءها طائرا واحدا لا يكاد يقوى على الوقوف ولا يكاد يقوى على السباحة ، ورأينا من خلال التلسكوب أن الطائر جريح فسعدنا وجدفنا لنصل اليه فلما اقتربنـــا منه بدأ يضرب بجناحيه وطار فوق الماء بارتفاع منخفض واختفى عن أنظارنا خلف الجزر •

وواصلنا رحلتنا وقد حاقت بنا خيبة الأمل الى جزيرة طويلة ذات شاطئ رملى أبيض ، ومارسنا شيئا من رياضة الصيد ونحن فى سبيلنا اليها • كان هدفنا الآن هو البحث عن أماكن منـاسبة لنتخذهــا مراكز لاصطياد طيور الماء التى بدأت بالفعل تتجمع شيئا فشيئا •

ولسوء الحظ فان هذه الجزيرة الملائمة جدا كانت — بالفعــل — مشغولة فقد كان صائد طيور عجوز رث الثياب جالسا فى كوخ بناه من

فروع صغيرة ، والى جواره ابنه ، وهو ولد صغير غطاه الذباب والبعوض وكل ما يمكن وصفه من هوام • وكان هذا الصياد قد ربط نفسه بحبل متصل ببعض الشباك الكبيرة القريبة من الشاطىء •

وربط الرفاق بجعة بائسة عمياء تدعو للأسى الى عصا — لتكون شركا تهوى اليه الطيور الأخرى ، بالاضافة لحوالى عشرة أو اثنى عشر طائرا من طيور الغاق العمياء • لقد بدت لنا الجزيرة أكثر المواضع ملاءمة فقد كانت أرضها مغطاة بالأسماك المتعفنة وزرق (بفتح الزاى والراء) الطيور والريش ، ومن الصعب أن يبقى أوربى فى مثل هذا المكان طويلا • وبدا صائد الطيور العجوز غير سعيد بالمرة بزيارتنا للجزيرة وراح يتمتم بكلمات تنم عن التذمر أخذت طريقها الى لحيته الكثة المهوشة • ولم نضايقه طويلا وانما جدفنا بسرعة الى جزيرة أخرى طويلة وضيقة فى مواجهة جزيرته • وعند وصولنا خصصنا لكل منا موضعا • وكانت الشجيرات الكثيفة فيها خير غطاء لنا وسرعان ما حل الصمت والسكون فى الجزيرة ، فاقبلت أسراب الطيور من غاق وطيور (أبو ملعقة) وبعض طيور البشروس وطيور مزرة البطائح moor-buzzards وبعض طيور الشواطىء الصغيرة من مختلف الأنواع ، لكنها كانت بعيدة فلم نحقق نجاحا • بل ان طيور البشروس ، فرادى أو جماعات : كل جماعة مكونة من عشرة طيور أو نحوها ، كانت تحلق هنا وهناك لكننا لم نتمكن من اصابة أى منها ، ولم تظهر الأسراب الضخمة حتى بعد الغروب • وكان أكثر أهدافنا مدعاة للسخرية هو اصطياد البشروس وهو طائر ، فقد كانت رقبته الطويلة ورجلاه الطويلتان اللتان تحملانه أفقيا تجعلانه يبدو كعصا طويلة علق بها جناحان •

واشتدت الرياح مساء وراحت الأمواج تضرب الشاطىء بشدة وانقشعت السحب شيئا ما فاستمتعنا بمنظر الشمس الجميل عند الغروب • كانت السماء من ناحية الغرب أرجوانية ، انعكست ألوانها على البحيرة وراح قرص الشمس يتوارى ببطء وراء الأمواج المرتجفة •

وانطلقنا لسفينتنا بمجرد حلول الظلمة ، وكان علينا أن نخوض الى الركبة بين الشجيرات الكثيفة لهذه الجزيرة الطويلة قبل أن نصل الى قاربنا الى الغرب منها •

وبعد عبور قصير وصلنا لجزيرة ضيقة قريبة من الشاطىء حيث ربطت دهبيتنا بشدة • وكان كل رفاقنا موجودين هناك وقد أحضر كل واحد منهم بعض الصيد ، لكن أحدا منهم لم يكن صيده وفيرا ، ولم يكن

من بين صيد أحدهم بشروس واحد رغم الطلقات العديدة التي أطلقوها على هذا الطائر الحذر من مسافات بعيدة ·

كان المساء باردا شيئا ما ، وكان علينا أن نتناول عشاءنا في الذهبية ونحن متدثرون في معطفنا · وكانت بعض الفوانيس تضيء المنظر الغريب : سفن قليل عددها بجانب جزيرة صغيرة في ليل حالك في بحيرة لا حياة فيها بعيدة عن العمران · ولم يكن يقطع السكون المطبق سوى صوت الأمواج وأصوات العرب الغليظة ·

وسرعان ما مات الحوار على شفاهنا ، وراح العرب والأوربيون فى سبات ، وعزفت سيمفونية من غطيط النائمين · ولن أنسى أبدا هذه الليلة التي قضيتها في هذه الخلية الضيقة · لقد سقطنا ضحية لجيوش من الهوام ، وراحت البراغيث تلتهم أجسادنا البائسة ·

وفي الثامن عشر من الشهر غادرنا دهبيتنا ولازالت الظلمة حالكة لننتشر مرة أخرى في الجزيرة منتظرين مرور الطيور صباحا · وجدفت بنفسي الى جزيرة ضيقة ، وزحفت في سدفة الفجر صوب مجموعة صغيرة من طيور البشروس وفشلت في اصطياد واحد منها عندما أطلقت النار عليها من بعد ،فاختبأت بين الشجيرات ، ومرت أمامى طيور مختلف أنواعها فاصطدته ووضعت في حقيبتي أنواعا مختلفة منها ، وكان من بينها طائر بلشون (مالك الحزين) كبير حجمه ، وشكل طائر البشروس (الفلامنجو) سحابة حمراء تضم آلافا من هذه الطيور تتخذ مختلف الاتجاهات ، لكنها كانت أبعد من أن تصيبها بندقيتي ·

وعندما انتهى الوقت المحدد تجمعنا مرة أخرى فى القوارب ، لقد كان هذا النهار عابسا لا يدعو للمسرة فالسماء يغطيها سحاب كثيف ، وريح باردة تأتينا عابرة مياه البحيرة ، وزخات المطر تبللنا بشكل دوري · ولأن الريح وجهتنا الى الجانب الجنوبي من البحيرة فقد رأينا – بين الحين والآخر أسرابا ضخمة من البجع والبشروس (الفلامنجو) على الشواطىء الرملية فاتجهنا بالقارب الى واحدة من هذه المجموعات ، وفي هذه الأثناء عبرت الجزيرة سحابة – غطت الجزيرة – من طيور النورس وطيور (أبو ملعقة) ، ووجهنا طلقاتنا من مختلف الاتجاهات لطائر البشروس (الفلامنجو) مرة أخرى دون نتيجة ، فهبت الطيور مشكلة سحابة هائلة لتستقر على مسافة بعيدة منا ·

وتوقفنا عند احدى الجزر الصغيرة لنتناول افطارنا عند الشاطىء ، ولأن العواصف كانت لا تزال تهب بل وتزداد ، فقد عقدنا اجتماعا وطرحنا خططا أولها أن نعود الى دمياط لكن العرب أعلنوا أنه مادامت

الرياح تهب على هذا النحو فانهم لابد أن يجدفوا وأن يسحبوا قواربنا ، وهو عمل شاق وممل .

وكنا قد وصلنا بالفعل الى وسط البحيرة وأصبح فى امكاننا أن نرى بالعين المجردة صوب الجنوب — على مسافة بعيدة — مآذن مدينة المنزلة الصغيرة ونخيلها .

ونصحنا البحارة أن نلغى برنامجنا وأن نتجه الى بور سعيد وكان هذا تغييرا مهما فى خطة رحلتنا لكنه بدا هو الحل الوحيد المعقول خاصة ان مسئول القيادة الأول وعد أنه يصل بورسعيد مبحرا بأقصى سرعة هذا المساء مستفيدا من الرياح الغربية السائدة .

وأشفعنا القول بالعمل فانطلقت الدهبية الخفيفة بين الجزر لا تلوى على شئ ، واتضح أن الأجزاء الشرقية من البحيرة أغنى بالطيور من الأجزاء الغربية ، فقد رأينا أعدادا كبيرة من طيور أبو مجرفة Shovel-birés وأنواعا كثيرة من البط وأسرابا من النوارس وطيور الغاق . وأطلقنا النار — بنجاح — على مجموعة من البجع وأخذنا منها نماذج باهرة الى دهبيتنا .

وبعد الظهر ظهرت فى الأفق منــازل بورسعيد البيضاء ، ورأينــا — على البعد — بعض أسراب البشروس واقفة ، بينما تحرك بعضها بعيدا . وصفت السماء ، فنعمنا بشمس دافئة واستمتعنا — مرة أخرى — بمنظر الغروب المدهش الجميل .

بورسعيد :

لقد كان طاقم الدهبية ماهرا . انهم رفاق ممتازون ومجدون بشكل غير عادى توثقت صلتى بهم تماما خلال اليومين . وقبل أن يختفى شفق الغروب كنا نستطيع تمييز منازل مدينة بورسعيد والطريق العالى (جسر) لقناة السويس ، ووصلنا لهدفنا قبل حلول الظلام .

لم يكن يفصلنا عن الشاطئ الا مئات قليلة من الياردات لكن الماء كان ضحلا ، لذلك كان لابد أن يحملنا العرب الشجعان المرافقون لنــا لشاطئ القناة . يحملوننا نحن أنفسنا لا أمتعتنا فقط .

وكنا قد أرسلنا مراسل (مشهل) Swiftist الدهبية ليسـبقنا حاملا خطابا ، لذا فقد كان فى انتظارنا — بالفعل — سفينة بخارية على شاطئ القناة . وكان فى انتظارنا قنصلنا وقبطان الميناء وهو دلماشى بالميلاد (يعود فى الأصل الى دلماشيا) . ورأينــا قناة السويس — للمرة الأولى ،

حيث تقع آسيا على شاطئها الآخر • والنظرة الأولى لقارة آسيا لا تنبىء عن جمال كثير ، فقد قدمت لنا آسيا نفسها في شكل جسر (طريق مرتفع) •

وأوصلتنا الباخرة بسرعة الى رصيف غير بعيد عن الفندق • ولم نر في الشوارع الا أوربيين ، وكان كل شيء رأيناه يعطى الميناء طابع الموانى الانجليزية • وكان الفندق كبيرا ومشيدا على الطراز الحديث تماما ، ويحظى بصيانة جيدة ، وذكرنى بسويسرا ، فليس به آية لمحة شرقية • وكنا نحن وأسرة انجليزية — نزلاء الفندق الوحيدين هذا المساء ، وحالما وصلنا قدموا لنا عشاء فاخرا وفي حوالى العاشرة كنا آمنين في أسرتنا •

وغادرنا الفندق في صباح اليوم التالى حيث توجهنا لباخرة قناة السويس ، وكان القبطان — وهو رجل عجوز مجرب — وكذلك كل طاقم الباخرة — من الفرنسيين ، وكقاعدة عامة فان قناة السويس وكل ما يتعلق بها من حصة فرنسا (ملك لفرنسا) •

وأمكننا أن نلقى نظرة من فوق شاطىء القناة على بحيرة المنزلة الى الغرب ، وعلى سهل الفرما Pelusium الاسيوى الى الشرق •

ان فكرة التحرك بين الكتلتين القاريتين (آسيا وأفريقيا) فكرة جذابة لكنها عند التطبيق قد تكون مملة • ووقفت آلاف مؤلفه من البجع والبشروس عند السبخات الجنوبية لبحيرة المنزلة ، فأطلقنا النار عليها عبر القناة ، ولم يكن لطلقاتنا تأثير سوى أنها طارت مكونة سحابة أكبر مما يتصوره العقل •

البرود الانجليزى — ارتطام في القناة :

ولما انتهت بحيرة المنزلة عن أيامننا وجدنا أن الشاطىء الغربى للقناة مهجور وغير مأهول تماما • لقد حجبت الشواطىء العالية كل المناظر ، وكانت أشغال الأتربة والرمال الناتجة عن الحفر تملأ الشاطئين : الأيمن والأيسر ولا تعتبر صورة جذابة بالنسبة لنا مع أنها — على أية حال — اشغال جيدة • وكان التغيير الوحيد هو اصطدامنا بباخرة هندية انجليزية ضخمة اعترضت طريقنا بشكل أخرق وظن قبطاننا أنه يمكننا المرور فتقدم بجسارة فأدى ذلك الى تصادم عنيف وحدوث بعض التلفيات البسيطة في جوانب سفينتنا ، فالتصقنا بالسفينة الانجليزية ، وعانينا لنصف ساعة حتى خلصنا سفينتنا منه • لقد أعطانا هذا القبطان الانجليزى الفظ ظهره وكان الأمر — على الأقل — لا يعنيه وأخيرا تمكنا من تحريك سفينتنا تحريكا خفيفا ، وحدث صرير من جراء الاحتكاك بين السفينتين المتصادمتين ، ثم اصطدمنا مرة أخرى ، وتخلصت سفينتنا ،

بل اننا عملنا على دفع السفينة الانجليزية ، ثم واصلت سفينتنا وسفينته سيرهما فى اتجاهين متضادين •

شاطىء القناة الغربى :

وكنا نذهب بين الحين والآخر لنلقى نظرة من قمرة القبطان على شاطىء القناة الآسيوى نحو الصحراء العربية (ليقصد صحراء سيناء) • ان طبيعتها تختلف تماما عن الصحراء الليبية (يقصد صحراء مصر الغربية) • ان ألوانها غير داكنة ، ورمالها وجبالها غالبا بيضاء ، وكان بها عديد من الشجيرات الصغيرة المستديرة ذوات خضرة فاقع لونها •

الاسماعيلية :

وبعد عشر ساعات وصلنا لبحيرة الاسماعيلية المالحة ومدينة الاسماعيلية أيضا — وهى مدينة ذات طابع أوربى تماما • ووجدنا أن الصحارى الصفراء التى اعترى صفرتها البياض والتى تحيط بالبحيرة مستوية تماما فى غالبها ، وترى على البعد — الى الجنوب — سلسلة جبال عتاقة Ataka الجميلة • والمنطقة بلا شك رتيبة عابسة الا أن لون البحيرة المالحة الأزرق بتناقضه مع لون شواطئها الصحراوى قد خلق مزاجا لونيا يسترعى الانتباه •

وكانت لدينا فرصة — أثناء اتجاهنا لمحطة السكك الحديدية — أن نرى ما يثير اعجابنا بثروة الفرنسيين وصناعتهم وذوقهم الراقى ، فقد نجحوا فى أن يقيموا فى الصحراء منتجعا بحريا للاستحمام ، ومساكن بيضاء نظيفة ذوات ستائر تمنع عنها الهوام Jalousies ، وشوارع جيدة ، وطرقات تحفها الأشجار وبساتين تلقى العناية • ولما بدأ قطارنا فى المسير تجاوزنا بعض السبخات الصغيرة ثم قطعنا الصحراء وهى هنا صحراء عربية خالصة Which is here Completly Arab • ووجدنا بعد ذلك بحيرة صغيرة يحفها الغاب (البوص) والى جوارها بعض الكبائن البائسة ولما أصبحت التلال الرملية بجوار الخط الحديدى منخفضة بما فيه الكفاية رأينا الى الجنوب جبل عتاقة الشامخ وبعده جبال آمون Ammon وهذه السلسلة هى نفسها التى يكون أنفها الغربى (نتوؤها الغربى) جبل المقطم المعروف •

وبعد فترة بدأت الصحراء تتراجع وأخيرا اختفت عن أنظارنا وأصبحنا مرة أخرى فى الأرض كثيفة الزروع لمصر الدنيا • فتجاوزنا مدينة الزقازيق وقرى مختلفة صغيرة وسرعان ما بدت لنواظرنا مدينة

الخلفاء الجميلة تتألق ذهبية فى ضوء الشمس ، ولما وصلناها سلكنا أقصر الطرق الى قصر النزهة ، وكنا فى حاجة للراحة •

عود الى هليوبولس ، وشجرة مريم :

وفى صباح اليوم التاسع والعشرين قررنا أن نمارس رياضة الصيد فى هليوبولس • كان الجو ملائما تماما فالهواء نقى والجو دافئ • وبعد أن قطعنا الطريق السيئ نفسه الذى قطعناه منذ شهر مضى وصلنا الى (شجرة مريم) وأطلقنا كلاب المشهند لتبحث عن الضباع والنموس فى الحدائق الصغيرة وبين أشجار الصبار الكثيفة التى تشكل سياجا قريبا ، لكننا سرعان ما اكتشفنا أن كل ذلك بدون جدوى لأن موسم طيور السمانى (الفرى) قد بدأ منذ فترة وسمعنا طلقـاته تأتى أصواتها من مختلف الاتجاهات ، فقد كان الشرقيون الباحثون عن المتعة يوم الأحد ، وكانوا من أصول شرق أوربية من مختلف الطبقات ــ يفتشون الشجيرات والحقول، لذا فقد بدا أمرا غير مجد أن نطلب اخلاء الأرض منهم •

مزرعة النعـام :

وثمة مطعم صغير بالقرب من شجرة مريم بين الحدائق والأشـجار الظليلة ــ وهو مكان أثير لدى أهل القـاهرة ــ وقد تناولنا افطارنا هنا (فى هذا المطعم) ثم ذهبنا بين الحقول والحدائق لنصل الى مزرعة النعام التى تقع على حافة الصحراء ويعمل بها جماعة يبدو أنها أنجزت عملا جيدا فقد كان كل شئ فيها مرتبـا بطريقة مريحة وكان مدير المزرعـة رجلا سويسريا ألمانيا جعلنا نرى الأماكن المخصصة لهذه الطيور ــ مساحات رملية مفتوحة، ومبايت داخلية والفتحات الصغيرة، وكل الطيور (النعام) هنا من النوع الفخم ، بعضها صغير وبعضها كبير ، والنعام هنا من نوعين (صنفين) مختلفين وبدت هذه الطيور كلها فى الغاية من الجمال بريشها الجميل •

وبعد ان رأينا كل شئ فى مزرعة النعام هذه سلكنا أقصر الطرق الى حدائق البرتقال المشهورة فى هليوبولس ورأينا بعض آثار الذئاب لكنها لم تكن فى جحورها فى هذا الموسم • وعبثا بحثنا بين أشجار حديقة البرتقال الجميلة وفى أرضها ، فلم نجد ذئبا واحدا ، وفى طريقنا توقفنا عدة مرات وبحثنا دون جدوى بين أشجار حدائق مختلفة ، كما بحثنا فى حقل من حقول قصب السكر لكن ديانا Diana لم تتعطف علينا بهذا اليوم فعدنا للقاهرة بحقائب خاوية •

الحمام التركى :

ولما وصلنا لمقر اقامتنا دلفنا الى حمام تركى منعش غاية الانعاش ، ويجب على المرء أن يكون قد خاض هذه التجربة (الحمام التركى) فى الشرق ، فهى تستغرق بمختلف مراحلها بما فى ذلك التدليك ـ ساعة ، وذلك حتى يفهم مدى عشق الشرقيين لهذا الحمام وكل ما يتعلق به ، وخدم الحمامات التركية يشكلون طبقة (فئة) خاصـة يمارسون عملهم بدقة لا مفر منها ، وتجد هذه الحمامات فى بيوت الأثرياء الشرقيين ، وهى تجلب سرورا بالغا وسعادة لا يمكن وصفها ٠

القلعة ومسجد محمد على :

وفى ٢١ مارس اتجهنا صباحا الى قلعة القاهرة الشهيرة ومررنا بعدة بوابات على جـانب منحـدر تلى ٠ واستقبلنا الخفراء بعزف الموسـيقا العسكرية ٠

والقلعة مبنى ضخم محصن تحصينا فائقا من جهة المدينة (القاهرة) بصخور محلية ٠ وبعد أن تحطمت هذه القلعة سنة ١٨٢٣ تم انشاء مبنى حديث فى البقعة نفسها ليحل تماما محل قلعة صلاح الدين التى أنشئت ١١٦٦ والتى أقيمت من أحجار آثار مصر القديمة ٠ وبعـد أن مررنا عبر البوابة الأولى (الباب الجديد) واجتزنا مجازا أدى بنا الى البوابة الثانية (الباب الوسطانى) وقعت أنظارنا على ميدان مربع ثان تحيط به المبانى الحكومية والعسكرية وقصر صغير لنائب الخديو ٠

المآذن ـ شعار القاهرة :

وأكثر أهداف السائـح أهمية وأكثرها مدعـاة للتشويق فى هذه البقعة هو مسجد محمد على الضخم المشيد من الالاباستر (المرمر) الذى يشمخ وسط القلعة ٠ وقد أنشأه مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية ، الذى حظى بشهرة كبيرة ـ انه الشجاع محمد على ، وقد أنشأه فى موضع كان به قصر قديم خرب ٠ ويرى المرء من هنا على البعد مآذن القاهرة السامقة تشمخ عالية ٠ ان هذه المآذن هى شعار القاهرة **an emblem of Cairo** ٠
ودخلنا مبنى المسجد المهيب بعد أن وضعنا نعالنا فى أخفاف (جمع خف) كانت معدة لهذا الغرض ، ويؤثر فى المرء ـ للوهلة الأولى ـ مساحة المسجد المربع ، والقبة المهيبة وما حولها من قباب أخرى صغيرة ، والجدران المكسوة بمرمر (الاباستر) بنى سويف الأصفر ، لكن عند التدقيق يكتشف المرء أن التفاصيل المعمارية أدنى فى مستواها من التفاصيل المعمارية فى المساجد

القديمة ، والنوافير هنا رغم ثقلها الا أنها خالية من الجمال ، وقد فرش المسجد ببعض السجاجيد الجميلة ، كما أن المحراب الذى يشير الى اتجاه مكة (المكرمة) مزخرف بشكل جيد ، ويقع قبر محمد على الى جانب هذه البقعة المقدسة عند المسلمين (يقصد القبلة) (*) • والقبر مغطى بستائر ذوات أشغال ذهبية ومحاط بشبك حديدى وشاهد قبره على هيئة عمامة حجرية – كما تقتضى تعاليم الدين الاسلامى (**) •

شخصية محمد على :

وسمح لنا باجتياز الشبك الذى يشكل سورا حول القبر لننظر الى الضريح الذى يضم رفات الرجل العظيم • ابن أحد كناسى قولة ، الجندى الكامل والشرقي الكامل ذو الروح الاستقلالية المتمردة Wild & undisciplined ذو الطاقة الحديدية ، والمتسم بالقسوة فوق كل هذا ، والذى وهب – بالاضافة لذلك – مواهب عظيمة وذكاء – كان يسعى لتكوين امبراطورية على نسق الخلافة (الاسلامية) الأولى • لقد سار عبر فلسطين على رأس جيشه الباسل ، واضعا الاسكندر الأكبر كمثل له • ولو أن القوى الأوربية لم تتدخل لاستطاع الباشا الثائر – بلا شك – أن يصل اسطنبول ليحاصر الخليفة • لكن التدخل الأوربى أجبره على الاكتفاء بمصر وتوجيه كل عنايته وطاقاته لها •

والقلعة التى بناها محمد على هى آخر آثاره الدالة على قسوته الوحشية • وكان محمد على لا يثق فى المماليك الذين كانوا يخدمون فى مصر كمجموعة مرتزقة مخلصين للسلطان faithful to Sultan •

مذبحة المماليك ، والمملوك الهارب :

وانتهز محمد على فرصة تجمع المماليك فى ساحة القلعة الى جوار المسجد وأمر باغتيالهم جميعا ما عدا مملوكا واحدا كان تركيا شجاعا قفز وعليه كل دروعه بحصانه الجسور فوق الجدار الذى يشكل حدود الساحة واندفع الى منحدر شديد وهبط الى أكوام ناعمة من النفايات

(*) قبر محمد على ليس الى جوار القبلة فى المسجد ، ولعل هناك خللا فى التعبير ، فقبر محمد على يكون الى الخلف من المصلين وليس امامهم كما هو مشاهد حتى الآن – (المترجم) •

(**) هذا من العادات وليس له اية علاقة بالفكر الاسلامى وليس هناك اى نص غيبى (قرآن كريم او حديث نبوى) يعرض ذلك – (المترجم) •

أسفل القلعة ، واستطاع هذا المقاتل أن ينهض بجواده المخلص وكأنما نجا بمعجزة وهرب من ملاحقة الباشا الساخط ٠

ولقد رأينا آثار دماء هذه المذبحة على الأرض وألقينا نظرة من هذا المكان المرتفع على مدينة الخلفاء العريقة ٠ كان منظرصا رائعا بمنازلها ومآذنها ، وعلى البعد رأينا الأرض الزراعية يتخللها النيل كخيط من الفضة وخلف الأرض الخضراء يشمخ الهرم ٠ وخلف كل ذلك صحراء صفراء لا تحدها حدود ، وخلفنا والى الأدنى منا مباشرة منحدرات جبال المقطم الداكنة ومقابر الخلفاء والمماليك التى تشملها الفوضى وعدم النظام وبقايا أثرية للمدينة القديمة التى اعتراها الخراب ــ كل ذلك يقدم للرائى صورة شائقة ٠

وقد ألحق بساحة القلعة مقر Castle صغير لنائب الخديو ، وهو مقر مرتب ببساطة ليس فيه ما يلفت النظر الا أنه كان ذات يوم مقرا لمحمد على ٠ وقد تركت غرفته وحمامه على الحالة نفسها التى كانت عليها عندما كان هو على قيد الحياة ٠ ويحسن المصريون صنعا بتوقير ذكرى هذا الرجل الجدير بالاحترام ، لأنه قد ترك أثرا قويا فى بلادهم واذا تابعت ذريته جهوده وورثت عنه ذكاءه وطاقاته فان مصر ستلعب دورا أعظم من دورها الحالى ٠

بئر يوسف :

وقد أرونا فى ركن خارج طريق (ممر) فى القلعة ما يسمى بئر يوسف ، وقد أمر بحفره صلاح الدين يوسف ، وغالبا ما يخلط الناس بينه وبين يوسف المصرى وتدير الجواميس ساقية ترفع الماء من هذا المستودع المائى القديم والبسيط (١) ٠

أما وقد أكملنا جولتنا فى القلعة فقد استأذنا من السلطات المدنية والعسكرية ومن دراويش المسجد وهبطنا التل الى المدينة ٠

الكتبخانة الخديوية :

وتشغل مكتبة الخديو الشهيرة ذات الرصيد الكبير مبنى كبيرا وملائما فى أحد الشوارع القديمة ٠ ومدير هذه المؤسسة ألمانى وقد استخدم خبرته وتدريبه العلمى فى ترتيب المجموعات الثرية التى كانت قبل ذلك هملا بغير نظام ٠ ومن الطبيعى أن تثير المجموعة الشرقية من هذه الكتب والمواد اهتمام الغرباء وقد وجدنا نسخا من القرآن (الكريم) بكل لغات المسلمين فى آسيا ، كما وجدنا نسخا من القرآن (الكريم) تعود

لبواكير التاريخ الاسلامى معروضة بأسلوب فريد جميل • لقد أمر الخديو ومن سبقوه بجمع الكتب الدينية القيمة من المساجد وايداعها هذه المكتبة للحفاظ عليها من التلف • وقد رأينا فى هذه المكتبة أيضا بعض الكتب الفارسية ذوات خطوط ورسوم جميلة • لقد ذكرتنى الأشكال الخارجية والأساليب ، والأزياء وعدة الفرسان وأسلحتهم بكثير من الأعمال الفنية فى العصور الوسطى الغربية • وبالاضافة لنسخ القرآن (الكريم) رأينا مجلدات توضيح بالكامة والرسم الحروب والمعارك والقنص بل وحتى المناظر الطبيعية ، وكثير من هذه المناظر الفارسية ذوات قيمة بالاضافة لقيمتها التاريخية •

وبعد أن ألقينا نظرة خلال المكتبة بقدر ما سمح به وقتنا المحدود ، واصلنا تحركنا — راكبين — فمررنا خلال زحام المدينه العربية ، واسرعنا نقطع بعض الشوارع الأوربية حتى وصلنا — سريعا — الى ميدان قصر الخديو الكبير •

وفى مواجهة القصر والثكنات يوجد مبنى جديد لمدرسة C:llege ، يولى الخديو الحالى اهتماما فائقا بها فهو الذى أمر بانشائها ، وطلب منا زيارتها ، وقد جلنا فى فصولها حيث كان الدارسون يتلقون دروسهم على أيدى معلمين أوربيين • وكان معظمهم من أولاد أثرياء القاهرة المسلمين. وان كان من بينهم صبيان من أبناء الخديو — وكان الأطفال يبدون بمنظر حسن وصحة جيدة ويتسمون بالحيوية ، وقد رأينا قاعات المعيشة والمطاعم والملاعب ، وكانت المدرسة منظمة على النسق الأوربى وان كان هناك بذخ فى تجهيزاتها وأثاثها مما لا يتمشى مع الغرض منها كمؤسسة تعليمية •

ثم زرنا بعد ذلك القنصلين العامين : البارون شافر Schäffer والبارون ساورما Saurma فى منزليهما الجذابين ثم عدنا بعد ذلك للحى العربى • وتوقفنا عند شارع ضيق لا تستطيع حافلتنا المرور به وترجلنا حتى باب فندق النيل الممتاز الذى يقع فى وسط المدينة القديمة ، وهو فندق جميل وتحولت باحته الى حديقة جميلة أضافت الى جماله جمالا ، وصاحب الفندق نمساوى ، ومن هنا فقد قابلتنا مجموعات مختلفة من بلادنا وعبد القادر وبرجش باشا والبارون ساورما ، وتناولنا جميعا افطارا ممتازا تحت سقيفة جميلة •

الحاوى :

وقضينا بعض الساعات الباعثة على السرور فى هذا الفندق اذ أمتعنا (حاوى) عربى ببعض الألعاب (السحرية) التى تتطلب مهارة كبيرة • وكان مساعده صبى صغير يقول — بالمانية مهشمة — قبل كل

لعبة (سحرية) : « تعال هنا يا عفريت » ، وعقب هذه الألعاب (السحرية) جاء دور (حاوى الأفاعى) الذى أحضر معه أفاعى ضخاما جـدا ، وسحالى مختلفة (من بينها سحلية جيكو Geko الرمادية) وعقارب غريبة ، وقد أخرجها جميعا (الأفاعى والسحالى والعقارب) من تحت معطفه الواسع . ثم أتى رجل ومعه قرود سمينة مدرجة جيدة ، وعنز وكلاب مختلفة . وبشكل عام فان ما رأيناه شائـع فى كل سرق فى أوربا ، لكن البشرة الداكنة للحاوى العربى وثوبه الواسع والمسلك الشرقى الوقور والأثر العام للمشاهد المرحة ــ كل ذلك قد أضفى الجاذبية على عروض ــ هى فى حد ذاتها ــ مملة وطفولية .

وعند عودتنا لمقر اقامتنا ارتدينا ملابس الصيد ، وذهبت مع الدوق الكبير والبارون ساورما خلال شوارع المدينة وعبرنا جسرا على النيل بالقرب من المنـازل الريفية للخـديو ، وتمركزنا فى أحـد حقول القصب هنـاك ومعنـا عنز راحت تثغو أخفينـاها بين أعواد القصب الطويلة . يا خسارة ! لم يأت ذئب ولا أى حيوان غير مستأنس ، مع أن ساورما كان قد مارس الصيد بنجاح فى البقعة نفسها وبالطريقة نفسها ، لكن ديانا كانت غير عطوف معنا اليوم مرة أخرى (لم يكن الحظ حليفنا) ، فعدنا لمقر اقامتنا عندما بدأ الظلام يزحف . لقد كان مساء رائعا ، غروب بهى أعقبه ليل الربيع الأفريقى العظيم . فراحت الحشرات تطن وتئز ، وراحت الخفافيش تمر بسرعة حول الأشجار التى راحت ذؤاباتها تحف حفيفا رقيقا . سحر محيط من النجوم فى القبة السماوية الزرقاء ، وهدوء لا يقطع جلاله سوى نباح الكلاب الذى لا ينقطع وصياح طيور دجاجات الماء فى طريقها للنيل .

لقد كانت القاهرة تغص بالحياة ، وكان علينا أن نندفع لنشق طريقنا وسط الزحام والحركة حتى نصل الى قصر النزهة .

وذهبنا فى بكور صباح اليوم التالى الى ثكنات قصر النيل الكثيرة ، وواصلنا رحلتنا فوق ظهر الباخرة فيروز Feruz التى كانت راسية الى الأدنى من الثكنات . لقد ذكرتنا هذه الباخرة القديمة بسهول الصعيد السعيدة ، وأيامنا الطيبة هناك . وقاد الأدميرال الداكن ــ مرة أخرى ــ سفينته الجيدة ، وما هى الا دقائق قليلة حتى تحركت سفينتنا شمالا .

الى القناطر :

لقد تعلمنا منذ الوهلة الأولى أن هناك فرقا بين مناظر مصر العليا ، ومناظر الدلتا ، فمناظر الصعيد بثراء ألوانها وجمال طبيعتها تزداد قيمتها عندما يعود المرء الى القاهرة ومصر الدنيا (الدلتا) ، فما كان جذابا فى

الدلتا عندما رأيناه للمرة الأولى ، بدا لنا ـ بالمقارنة بمناظر الصعيد شاحبا لا لون له ٠

لقد كانت رحلتنا هذا اليوم الى قناطر النيل الشهيرة « barrage du Nil » ٠ لقد تجاوزنا في البداية منازل قديمه تهبط تدريجيا حتى الماء ، ثم توغلنا في المجرى الواسع للنيل فوجدنا يخوتا متنوعة للخديو صفت جنبا الى جنب ، وبواخر بريد وعددا كبيرا من الذهبيات (البواخر السياحية والخاصة) وعلى الشاطيء الغربي توجد بيوت ريفية تحيطها حدائق غناء ، وناحية اليمين (الشاطيء الشرقي) المدينة ، وضاحية شبرا وقلعة تحمل الاسم نفسه (قلعة شبرا) والأشجار الباسقة للمتنزه الكبير٠ وسرعان ما اختفت هذه المشاهد الشائقة وبدأت المناطق الزراعية ذوات المنظر الرتيب في مصر السفلى تحف النهر مستمرة استمرارا غير منقطع ٠

وقد رأينا مجموعة من الأوز البرى المرتجل وعددا كبير من البط أما دجاجات النهر فكانت عند الشاطئين لكن بأعداد قليلة ، وتجاوزت سفينتنا عددا من الجزر الرملية الطويلة ، وظهر أمام نواظرنا مبنى حاجز يشبه الجسر (الكوبرى) ٠

هنا يتفرع النيل الى فرعين : فرع دمياط وفرع رشيد ٠ اننا الآن عند النقطة الجنوبية للدلتا ٠ واللسان الطينى الذى يفصل الفرعين وكذلك الفرعان ، قد مد عليها جميعا جسور (كبارى) حديدية وقناطر عملاقة انشأها محمد على ، والهدف منها هو الاحتفاظ بمياه النهر أمامها أثناء فترة انخفاض المياه حتى يمكن امداد ترع الوجه البحرى كثيرة العدد بالمياه اللازمة أثناء التحاريق (نقص المياه) كما يتم امدادها أثناء الفيضان على سواء ٠

ويقال ان نتائج هذا المشروع ـ الذى عاق الملاحة فى النيل فى الوقت نفسه ـ لا تساوى المبالغ الطائلة التى أنفقت عليه ٠ وثمة قلعة تكلفت أيضا مبالغ طائلة على اللسان بين السدود ، وهذه القلعة المهجورة منخفضة جدا فهى لا تزيد كثيرا عن كونها دمية وثمة عدد قليل من البنادق قديمة الطراز وثكنة بها حامية صغيرة ، على ان أكثر ما يلفت النظر فى هذا كله هو الصفوف الطويلة من الأشجار الباسقة التى تزين كل جوانب هذا المكان المهجور ٠

وكان علينا أن نتفقد المكان كله ودرنا حول القلعة ، وكذلك السدود (القناطر) ، وبعد اتمام جولتنا اتخذت باخرتنا طريق العودة ٠ وترفقنا عند جزيرة طويلة ضيقة تغطيها الرمال والشجيرات الكثيفة ، وبحثنا فيها

عن الطرائد • لقد أطلقت بندقيتي على بعض طيور الماء الصغيرة بالاضافة الى اصطيادى لصقر جميل ذى صدر شاحب • وثمة فرع ضحل من النهر يقسم الجزيرة ، وعبر هذه المخاضة تتجول قطعان كبيرة من الخراف والماعز لتتغذى على الشجيرات النابتة فيها • وقد وجدنا على ضفتى النيل أكواخا بائسة مختلفة تمت اقامتها لأغراض الصيد •

وسرعان ما تخلينا عن الصيد في هذه الجزيرة وعدنا لباخرتنا وتناولنا افطارنا في طريق عودتنا لمقر اقامتنا ، وما كدنا ننتهى من تناول القهوة السوداء وتدخين السجائر حتى وصلنا لقصر النيل وودعنا السفينة فيروز الحبيبة وداعا أخيرا •

الدراويش

وقد عرف عبد القادر باشا ـ باهتمامه الذى لا يفتر ـ كم أنا مشوق لرؤية الدراويش وهم يرقصون turning ويصيحون howling فحصل من الخديو على أمر بالسماح لنا بدخول احدى تكايا Convent هؤلاء المتعصبين ، خاصة أنه لم يكن هناك يوم جمعة ضمن أيام برنامجنا فى القاهرة (ففى يوم الجمعة يمارس هؤلاء الدراويش طقوسا خاصة فى المساجد الكبرى) • فركبنا مارين خلال المدينة كلها حتى وصلنا لأبعد جزء فى الحى العربى • وتوقفت عربتنا عند حارة صغيرة وتسلقنا منحدرا حادا الى جدار (سور) ، وعندما دخلنا من البوابة وجدنا رواقا صغيرا معمدا مسقوفا وحديقة ، ووصلنا لغرفة الاستقبال بعد أن صعدنا سلما خشبيا بائسا وسرنا فى ممر • كانت الجدران مستوية وجرداء ، ولم يكن بالغرفة سوى ثلاث كنبات وبعض الأبسطة ، وظهر شابان أظنهما من خدم (التكية) ، وفى غضون دقائق قليلة ظهر شيخ director التكية Convent ـ وهو رجل عجوز هده التعبد بأسلوب معاقبة الذات ـ تكفيرا عن الخطيئة ـ والعمل على اماتة الشهوات • وكان مظهره الخارجى قبيحا حقا اذ كان نحيلا شاحبا بلون الشمع ، لقد كان كجثة ميت بملامحه الحادة وشفتيه الشاحبتين وعينيه الميتتين ويديه النحيلتين ذواتى العظام البارزة ، وحمله (ظهره) المنحنى ، بالاضافة لصوته الأجوف ـ كل ذلك كان ذا طابع شبحى شاحب شحوب الموتى • أما ملابسه فثياب طويلة ملونة مزينة بالفراء ، وحزام لامع وعباءة طويلة تزحف خلفه فوق الأرض كان يضم أطرافها الأمامية الى بدنه بيديه المرتعشتين رغم حرارة الجو • ويضع فوق رأسه عمامة مرتفعة من لباد أخضر حولها شال أخضر ـ وهو اللون المفضل لدى النبى (صلى الله عليه وسلم) the Colour of the prophet • وهذه العمامة headdress العجيبة تشبه عمائم الفرس •

وقد أشار الينا ـ وفقا لما تقتضيه اللياقة ـ أن نجلس وجلس هو متيبسا على الكنبة كأنه أحد تماثيل الشمع • وأحضر الخدم القهوة في فناجين قذرة وقدموا لنا السجائر •

وبعد مقابلة رسمية قصـــيرة دعانا لقاعة الحلقة (القاعة المقدسة (Sacred hall في المسجد التابع لأتباعه (مريديه) فدلفنا الى مبنى غريب بعد أن مررنا بممر بحذاء البيت • لقد كان قبة دائرية عالية ذات حلى معمارية شرقية ، وثمة ممر ضيق سقفه قائم على أعمدة خشبية تدور مدار الجدران • انه المكان الذى يتمركز فيه مشرف الحلقة faithful والموسيقيون (العازفون) • والى الأدنى منا رأينا حلقة spectator تشبه حلقة التدريب في مدارس تعليم الفروسية riding school ذات سياج يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام ، وأرضية الحلقة مفروشـــة برمل ناعم كما في حلبة التدريب في مدارس تعليم الفروسية وثمة بســـاط تركي قديم مفروش في أحد الجوانب • ولم نجلس أكثر من دقيقة في الممر ، وكنا تواقين لرؤية ما سيحدث بعد ذلك عندما دخل شيخ الطريقة العجـــوز the old high Priest متقدما ببطء في الحلقـة arena وجلس متربعـــا على البســـاط ، وتبعـه حـــوالى عشرين رجلا ، وكانوا جميعا يضعون فوق رءوسهم عمائم عالية من النوع نفسه ، لكنهم يلبسون صدريات بيضاء ضيقة ذات تصميم تركي ومفتوحة من الأمام وتحت الصدرة حزام وقميص واسع كتنورة النساء • وساروا فرادى بخطوات وقورة وقد عقدوا أيديهم أمام صدورهم وانحنوا انحناء شديدا أمام شيخ الطريقة (*) Priest الجالس • ثم صفوا أنفســهم حـول الحلقة ازاء جـدرانها • وتلا شيخ الطريقة بعد ذلك دعواته بصوت خشن وراح أثناء ذلك ينحنى كثيرا في مختلف الاتجاهات وحذا أتباعه حذوه ، ولما انتهوا من ذلك ارتفعت أصوات الموسيقا ـ فجأة ـ عالية صاخبة • وكانت الآلات الموسيقية هي نفسها التي رأيتها وسمعت أصواتها أثناء مشاهدتي لرقصة النحلة في صعيد مصر غير أن الأجراس النحاســية والكمـان تلعب هنا دورا أكبر في العزف ، والكمان المســتخدمة هنا تشـبه الجوزلا gusla عند أهـل دالماشيا • كان العزف وحشيا وذا طابع حربي •

وعند المقطع الأول خطا الرجال داخل الحلقة وانحنوا مرة أخرى لشيخ الحلقة old priest وبدءوا يدورون حـول أنفسهم to turn لا أحد منهم يلمس الآخر وبقي كل شخص في موضعه ، وفي البداية كانت حركتهم بطيئة لكنها زادت شيئا فشيئا بسرعة حتى ان تنوراتهم الطويلة

(*) لعله شيخ السجادة ـ (المترجم) •

ارتفعت عاليا • واستمرت الموسيقا صساخبة مندفعة ، وأصبحت ملامح وجوههم ثائرة مهتاجة أكثر من ذى قبل وراحوا يهمهمون وهم يدورون كالخذروف (النحلة أو الخذروف الذى يديره الصبية مستخدمين خيوطا) كل فى موضعه ومدوا أذرعهم وأيديهم ، فهذا يقبض يديه ، والآخر فى الخلف يرفعها ، والثالث يبسط كفيه ، وهذا يعنى أن اليد اليمنى تحمل السيف دفاعا عن العقيدة واليد اليسرى تطلب عطايا الرحمن •

ان المنظر الى مثل هذه المناظر يجعل الأوربى يصاب بالدوار ويجرى الدم باردا فى عروقه • ان هذا التعصب البالغ يسبب للمرء خوفا ورعبا • ان هؤلاء الناس يدورون حول أنفسهم بسرعة لا تصدق ، دون أن يتزحزح الواحد منهم عن موضعه قيد أنملة ، وتتقلص وجـــوههم بعنف وكأنما زلزلوا زلزالا شديدا ، وتحملق عيونهم خارجة من محاجرها ، وأيديهم النحيلة وخدودهم الشاحبة التى اندمجت فى لحاهم القصيرة المنسقة على النسق التركى — كل هذا ينبىء عن الخلل العصبى الذى تسببه المشاعر الدينية غير السوية • وثمة رجل عجوز يرتدى ملابس كالتى يرتديها شيخ الطريقة (أو شيخ السجادة) يزحف بين الدراويش وهم يدورون حول أنفسهم لينظم حركاتهم • لقد استمرت هذه الطقوس الدينية فترة طويلة ، ثم توقفت الموسيقا ، فبذل كل درويش قصارى جهده ليستند للجدار • كانوا شاحبين مهزوزين وانحنى كل واحد منهم انحناءة شديدة ، وتليت دعوات أخرى ، ثم عزفت الموسيقا مرة أخرى وبدءوا يدورون من جديد •

كم تستغرقه هذه الطقوس الدينية يوميا ؟ لا أدرى ، لأننا بعد نصف ساعة غادرنا التكية Convent • ولا أنكر أننى كنت سعيدا أن أرى الشمس مرة أخرى وأن استمتع برؤية السماء الضاحكة والحركة فى الطرقات ، وأن أهرب من هذه التكية الباردة الشبيهة بالزنزانة ومسجد الدراويش الكئيب وهلوستهم المرضية المتفسخة •

وهؤلاء الدراويش رهبان غير متزوجين ، ويعيشـــون — معيشـــة مشتركة — فى منزل واحد • وثمة طرق Sects مرعبـــة مختلفة على هذا النحو ظهرت فى التاريخ الاسلامى المتأخر — ليس فى شبه الجزيرة العربية مهد الاسلام حيث العرب الأذكياء ، وانما كان ظهورها — أى هذه الطرق المرعبة — فى الشمال بين أهل آسيا الصغرى والقبائل المغولية ، وقد تأثر العثمانيون فى آسيا وأوربا بهذه الخرافات المنحطة فلعب الصـــوفيون softas دائما دورا مهما فى هـــذه الأنحــــاء أثناء فترات الهياج الدينى والحروب •

وقد وجد الدراويش الدوارون (اللفافون) والمهمهمون (النباحون) في القاهرة لفترة طويلة ، لكن هؤلاء الدراويش ـ خاصة الأوائل منهم ـ قد تجنبهم العرب الذين تمسكوا بشريعة دينهم الحقة ، واعتبروا ما يقوم به الدراويش انحرافا عن التعاليم الحكيمة للنبي العظيم • لقد كان كل هؤلاء الدراويش الذين رأيناهم هناك من عثمانيي أوربا وآسيا الصغرى ، وكان من الواضح أنهم على النمط التركي تماما •

ووصلنا للجانب الأوربي من المدينة بعد أن اجتزنا الحي العربي ، وتجاوزنا قصر النائب في القصر العيني ، الذي تشغله الآن زوجة الخديو لنصل الى أقدم أرجاء القاهرة حيث وجدنا أن أكوام النفايات والمقابر وخرائب المساجد القديمة والقاذورات المختلفة ، ـ أكثر بكثير من المساكن المأهولة بالسكان • وعند نهاية شارع ضيق أغلقته الأحجار وبقايا الخرائب ، توقفنا وعبرنا بوابة تفضي الى باحة (صحن) حولها أروقة ظليلة تحفها النباتات اننا الآن في مسجد قديم دائري ، فوجئنا بمظهره الخرب • واستقبلنا رجل عجوز بدين وعلى وجهه ابتسامة ودود ، وعلى رأسه عمامة مستديرة ويلبس ملابس تركية بهيجة أصيلة ، فتبعناه عابرين بابا ضيقا الى داخل المسجد • كانت الأحجار مغطاة بفراء الخراف ، وثمة درع صدىء ورماح وسيوف وخناجر ، وسيوف مثلمة معلقة على الجدران ، وبينها علم أخضر بال (ممزق) ، لابد أن هذه الأسلحة النبيلة قد شربت من دم الكفار حتى ارتوت فاستحقت أن تعلق في هذا المكان المقدس (المسجد) •

وعندما تبدأ الحرب من أجل الدين الحق ، فان دراويش هذه الطريقة (وهي طريقة ذات طابع حربي أكثر من طرق الدراويش الدوارين « أو الراقصين ») فالواحد منهم يأخذ الدرع ويحمل الراية الخضراء شارة النبي (صلى الله عليه وسلم) ويجري وهو يهوي خلال الشوارع صائحا معلنا الحرب والموت للكفرة داعيا المسلمين للجهاد • وقد لعب هؤلاء الناس (الدراويش) دورا مهما في الحروب التركية القديمة ، ولا زال الاسلام يضمن لهم أنهم سوف يجدون ميدانا (مجالا) لنشاطهم •

وما كدنا ندخل المسجد حتى أقبل الناس الأتقياء فجلس الرجل العجوز الذي استقبلنا في الوسط على فراء خروف • وتحلق أتباعه حوله في حلقة ، وتلا دعوات بصوت عال ، وراح يكرر دعواته مرات عدة ، ويكرر المتحلقون حوله ما يقول ، وعزفت الموسيقا ـ تماما كما هو الحال عند الدراويش الدوارين ـ أصواتا عالية بربرية ، وتوافقت حركاتهم المستمرة مع القرع الموسيقي ، وراح الواحد منهم يحرك جزء جسمه

العلوى للخلف وللأمام . وكان هؤلاء الدراويش يتأوهون ويندبون ويهمهمون بالكلمات نفسها بشكل غير مفهوم ولا مبين على الاطلاق . لقد كان المنظر كله كئيبا بشكل يبعث على الألم والرثاء . كان هؤلاء الدراويش يلبسون عباءات براقة طويلة ويلفون خواصرهم بحبال بسيطة . وهم عكس كل المسلمين لا يضعون فوق رءوسهم أى غطاء للرأس ، وشعر الواحد منهم طويل مهوش ولحيته طويلة ، وعندما يميل ببدنه الى الخلف (يثنى جزءه الى الوراء) يتهدل شعره حتى يصل الى الأرض ، وعندما يميل بجسده مندفعا للأمام يغطى الشعر وجهه بشكل مهوش . عيونهم زائغة تدور ، وأجسادهم تهتز بعنف والرغوة والزبد يغطى شفاههم ، وكان ثمة رجل ضخم منهم - بالذات - له لحية سوداء يمثل أقصى درجات الانجذاب الوحشى المتبربر .

ولم نمكث طويلا فى هذا الجو المقبض ثقيل الوطأة وتبعنا شيخ الطريقة العجوز Old high priest وكل أتباعه (مريديه) حتى الخارج ، ولما خرجوا وراءنا كان كل واحد منهم قد غطى رأسه ، فارتدى معظمهم طواقى بنية وقدموا لنا - تحت تعريشة ظليلة بدائية - قهوتهم السيئة .

وسألت عن أصولهم فوجدتهم مثل الدراويش الدوارين يتحدثون جميعا التركية ، ولم يكن منهم عربى واحد . وكان شيخ الطريقة العجوز من اليونان وكان عثمانيا خالصا ، أما الآخرون فكانوا تركا من اسطنبول ، والروميللى Roumelia وغيره من ولايات البلقان وقد حضر حلقة الذكر هذه مسلمون آخرون أيضا من القرم وآسيا الصغرى ، وكردى واحد من بغداد كان يضع فوق رأسه عمامة خضراء كبيرة .

واستأذنا فى الانصراف بعد فترة قصيرة وعدنا الى قصر النزهة ، وكان يتحتم أن نسرع لأنه كان علينا أن نحضر هذا اليوم - دون ملابس رسمية - غداء خاصا فى قصر الخديو ، وعدنا لمقر اقامتنا سريعا بعد الغداء لأنه كان يتعين على الخديو أن يذهب مساء لمسجد الحسين لحضور احتفال دينى وكنا سعداء - بعد هذا اليوم الحافل المثير - أن نخلد للراحة .

وفى بكور اليوم الثالث من هذا الشهر ذهبت الى مقابر الخلفاء ، وحالما انتهى الطريق الذى لا تستطيع العربة (الحنطور) السير به ، وذلك عند آخر منزل فى الطريق - ركبنا حميرا فسارت بنا بين المقابر ، وسرعان ما وصلنا لسفح حيد مرتفع من حيود جبل المقطم ، وسلكنا الطريق نفسه الذى سلكناه من بضعة أسابيع خلت ، وتسلقنا الحيد ولم يمض وقت طويل حتى كنا رابضين فى مكمن ضيق غير ملائم .

وبعد ثلاث ساعات طوال مملة خالية من الأحداث تماما ، ظهرت بعض الحدءات ونسور الجيف ، وبمجرد أن بدأت تتناول وجبتها حتى سمعت صوت تحريك ثقيل لجناحى طائر كبير ، وفى الحال تشتت شمل الضيوف الأقل قيمة وحط نسر كبير ذو رأس بيضاء ـ وجناحاه لم ينضما لبدنه تماما ـ على ظهر جثة الحمار وشرع يتناول افطاره دون تأخير ، ولم أتوان بدورى لحظة واحدة فالقمته طلقة فانطرح وخرجت من كهفى زاحفا وحملت فوق كتفى غنيمتى الثقيلة وهبطت الجبل متجاوزا الصـخور والحيود وأكوام الحجارة الى حيث الخدم والحمير فى انتظارى • وقبيل الظهر كنا فى قصر النزهة مرة أخرى •

وبعد الافطار استرحنا قليلا ، وقررت أنا والدوق الكبير أن نزور حديقة شبرا فحملنا بنادقنا وركبنا أحد الحناطير الذى سار بنا فى حى شبرا الفاخر حتى أسوار الحديقة العالية • انها حديقة واسعة مسورة وثمة قلعة بين الأشجار السامقة والشجيرات الكثيفة ، وهى محاطة بأحواض المياه والعرائش (الشكائك) وأحواض الزهور ، وثمة مساحة واسعة مخصصة لاعداد الطعام ، وثمة بساتين برتقال داخل هذه الحديقة ، بل ان هناك مساحات مزروعة بالقمح الذى لم يصفر لونه بعد • وكانت البقع الندية الرطبة مزدحمة بأسراب طيور البلشون (مالك الحزين) الرمادية ، بينما على أشجار الصنوبر التى تزين تلا صناعيا بالقرب من القلعة ـ تحط أعداد كبيرة ـ بشـكل لا يصـدق ـ من طيور البلشون البيضاء ممتلئة الجسم plump aigrettes .

وعكرنا صفو هذه الطيور ، لكن كان علينا ـ للأسف ـ أن نغادر هذه الحديقة الفاتنة بسرعة بمجرد أن راحت أغصان أشجارها الهامسة تسبح فى الضوء الذهبى للشمس الغاربة ـ حتى نصل لمقر اقامتنا فى ميعاد تناول العشاء • والقينا نظرة مشتاقة على حقول القمح المتموجة ، وكان من السهل أن استنتج أن هذه البقعة المحاطة بالأسوار ملائمة تماما لبعض الطرائد التى تبغى صيدها • وبعد ذلك بأيام قلائل أخذ ساورما بنصيحتى ، فذهب للاصطياد فى حديقة شبرا هذه فقتل وشقا ونمسا •

وتناولنا عشاءنا عند وصولنا قصر النزهة مع الأخوين ساورما ، وكان ساورما الصغير والأمير تاكسيس Taxis قد عادا منذ يوم واحد فقط من رحلة طويلة مرهقة لجبال البحر الأحمر ليبحثا ـ عبثا ـ عن الوعل (التيس) العربى •

وفي الرابع والعشرين من مارس خرجت مجموعتنا كاملة ــ مبكرا ــ الى طريق هليوبولس ــ الى آخر حدود المدينة حيث نصبت لنا خيمة مزدانة بالأعلام في الهواء الطلق .

افتتاح مستشفى نمساوى :

وكان عدد من الناس قد تجمعوا هناك ، كما كانت الجالية النمساوية المجرية موجودة بأعداد كبيرة ، ذلك أننا كنا بصدد الاحتفال بوضع حجر الأساس للمستشفى النمساوى . وقد دبر كاتولى بك Catouli Bey ــ وهو تاجر يهودى ثرى يحظى بالحماية النمساوية ــ بسخاء كل الأموال اللازمة لهذا المشروع الطيب ، وقد حضر هو نفسه مرتديا الزى اليهودى القديم . وتم الاحتفال وسط ابتهاج الحاضرين بينما كانت تعزف الموسيقا السلام الوطنى (النمساوى) . لقد كان احتفالا وطنيا تمت وقائعه بعيدا عن وطننا الغالى فى ركن آخر من أركان المعمورة .

وبعد انتهاء الحفل عدنا مباشرة الى الخديو لاستئذانه وتقديم الشكر له ، وقد عاد بدوره بسرعة الى قصر النزهة ليصحبنا الى محطة السكك الحديدية . وغادرنا قلعتنا فى حى شبرا ونحن نشعر بالأسف وسارت بنا الحافلة فى شوارع شبرا وقد غمر الحزن قلوبنا .

مغادرة القاهرة :

ولما وصلنا محطة السكك الحديدية وجدنا كتيبة مشاة قد اصطفت أمامها لتحيينا بالسلاح بينما تعزف موسيقا نشيدنا الوطنى . وكان على درجات المحطة عدد كبير من مواطنينا مع المسئولين المصريين ، وبرجش باشا والأخوان ساوربا والأمير تاكسيس . واستأذنا الخديو Viceroy الذى لاقينا منه رعاية لم تنقطع ، وكذلك ودعنا أصدقاءنا جميعا ، وتحرك القطار ببطء خارجا من المحطة . لقد شعرنا بغصة ونحن نلقى نظرتنا الأخيرة على مدينة الخلفاء الجميلة وعلى منحدرات المقطم والقلعة الشامخة والأهرام الساحرة . لقد كنا الآن بصدد مناطق جديدة وأراض أخرى .

لقد سار بنا القطار على الخط نفسه الذى سافرنا عليه منذ أيام قلائل ، ففى البداية مررنا بأرض زراعية ، وبعض المدن ، كثير منها له جاذبية تاريخية ، فعلى سبيل المثال ــ شبين القناطر ، وهى مدينة عربية حديثة ، بالقرب منها ــ فوق ما كان يسمى بتل اليهودية Tell el-Yehudiye كانت تقع مدينة محصنة فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل حقبتنا ، وكان فيها ــ زمن حكومة بطلميوس فيلوميتور Ptolemy Philometor

ـ معبد يهودى أقامه أونياس Onias كبير الكهنة ، لليهود المطرودين من فلســـطين ، والى الأبعد تقع بلبيس Bilbés (بيلابس المصرية القديمة Pilabes) ، وهى مدينة مشهورة ـ خاصة فى العصور الوسطى ـ اذ كانت مقرا للحكام العرب المنوط بهم ادارة منطقة شرق الدلتا • ثم أتت الزقازيق ، وهى مدينة واسعة معروفة بنشاطها التجارى استقر فيها عدد كبير من أهل الشرق (شرق أوربا وتركيا والشام) ، وبالقـــرب منهـــا تل أثرى مهم هو تل بسطة Tel-Basta الذى احتفظ لقرون ببقايا معابد مدينة بوباستيس Bupastis ومنازلها ، وبوباستيس هذه مشهورة فى التاريخ القديم (وتعنى بالمصرية القديمة بى ـ باست Pi-bast ، وتعنى مقر الربة باست Bast ، وبالعبرية Phi -beseth) وكانت الربة باست تعبد هنا فى معبد واسع باهر • ولا تزال صور هذه الربة محفورة على الحجر والبرونز تستخرج من خرائب التل ، وتمثل الربة باست بامرأة شابة نحيلة تحمل احدى يديهـــا صلاصل (صاجات Sistrum) وفى الأخرى سلة ، وليس لها رأس أنثى وانما رأس قطة ، فالقطط رمز مكرس لها • وتشير النقوش اليها ـ غالبا ـ على أنها الشكل المحلى للسلام والصحة اللذين تجلبهما الربة ايزيس •

والى الشرق من بوباست Bubastis (التى كانت عاصمة لاقليم ســـمى باسمها بوباستيتز Bubastites) ، ـ كان يقع فى العصور القديمة النصف الجنوبى من ولاية شـــــبه الجزيرة العربيـــة المجاورة the adjoining province of Arabia التى لا نعرف عنها سوى القليل فى الكتابات الكلاسية المتعلقة بالعصور القديمة • انها الأرض التى اشار اليها الكتاب المقدس باسم جوشن Goshen (*) •

الخط الحديدى يعبر هذه المنطقة بخط مستقيم الى الشرق ، ويسير حذاء ترعة المياه العذبة فى وادى طميلات Tûmilat • وعند مدخل هذا الوادى ـ عند تل (أبو سليمان) Tell-abu-Soliman توجد بقايا مدينة Pithon أبو باتوموس Patumos التى أجبر فيها اليهود على العمل قبل الخروج (من مصر) • وفى الجزء الشرقى من الوادى ـ نحو بحيرة التمســـــــاح ـ وجـــد النصب التذكارى لرمسيس الثـــانى بالقرب من Mas-Chûta مع تماثيل أبى الهـــول ، وأحجار ذوات نقوش ، وبقايا مبان قديمة من القرميد • وقد عرف ليسبس Lesseps وأغلب الدارسين هذا الموقع باعتباره مدينة رمسيس التى أشار اليها الكتاب المقدس ، لذا فان محطة السكك الحديدية تحمل اسم رمسيس •

(★) ورد فى قاموس الكتاب المقدس الذى ألفته مجموعة من اللاهوتيين ان أرض جوشن مدينة فى جبال يهوذا وهى قرية الظاهرية الحديثة ـ (المترجم) •

الى السويس :

وبعد مغادرة الوادى Wadi (الآنف ذكره) يمر الخط الحديدى الى المحطة الأخيرة للاسماعيلية ، ويستمر الخط الحديدى جنوبا عبر الصحراء على طول الساحل الغربى للبحيرات المرة ، وهذه البحيرات : الشمالى منها والجنوبى تقدم للرائى منظرا شائقا بمياهها الزرقاء المتألقة ، والى الغرب منها جبل جنيفة Geneffe ذو الشكل المحدد الجميل حيث المحاجرلا تزال تستخدم على نطاق واسع حتى أيامنا هذه — خاصة فى المواضع التى بها أحجار رخامية ، وأخيرا ألقينا نظرة على جبل عتاقة الداكن المهيب ثم أخبرنا البحر اللازوردى اللامع كالمرآة اننا اقتربنا من ميناء السويس •

ان المرء ليدهش وهو داخل للمحطة بمنظر الميناء الغاصة بالسفن القادمة من مختلف البلاد • ان السويس التى وصلناها قبيل المساء مدينة لا طعم لها ولا أهمية (لا شخصية) ففنادقها البائسة ومساكن القناصل الخاصة — كل ذلك ليس له طابع خاص البتة وانما على النسق الغربى تماما ، بل ان أرصفة الميناء العديدة وأبنيتها لا تؤكد جمال المدينة أو الميناء •

لا يجعل هذه المدينة شائقة سوى أهميتها التاريخية الفائقة ، تلك الأهمية التى تنسحب بدورها على البحر الأحمر بمياهه الصافية وسطحه الهادىء وسواحله الجميلة رغم حزنها وكآبتها • وذهبنا سراعا لتناول طعامنا فى فندقنا فقد أرهقتنا الرحلة الساخنة • لم يكن فى هذا الفندق الانجليزى المهمل سوى قليل من النزلاء : بعض رجال الأعمال الانجليز كانوا يستجمون قليلا من عناء السفر حتى يواصلوا رحلتهم التى بدءوها من الهند — الى أوربا ، ومبشر تمس — لكنه مسن تماما — وهو ليفتنانت سكسوتى فى الاحتياط ومبشر فى آن واحد ، وقد رغب فى تحويل الأفريقيين فى المناطق الداخلية (للمسيحية) ، وكان مقتنعا من الناحية النظرية بأهمية مهمته وبأهمية المناطق التى سيبشر فيها ، لكن — من الناحية العملية — بدا الرجل تنقصه البراعة والخبرة ، والأهم من كل ذلك ، ينقصه المال ، وكان ينتظر فى الفندق بالسويس حتى تحين ظروف مواتية • واستيقظنا مبكرا فى صباح الخامس والعشرين من شهر مارس وبعد أن أفطرنا على عجل غادرنا الفندق وقطعنا المدينة لنصل الى مرسى البواخر فى الميناء وانى مدين لصديقى برجش باشا — العالم البارز — لوصفه الذى يدعو للاعجاب — لهذه الولاية ، ولا أجد أفضل من نقل جانب من خطابه الثرى بالملاحظات العلمية •

« فى الجانب الشمالى من المدينة يوجد تل صغير به آثار قديمة ـ أسماه العرب تل القلزم Teil-Koizum ، وهذا الاسم العربى يذكر باسمه القديم Cylsma ـ وكانت توجد هنا فيما مضى قلعة محصنة قوية لحماية الميناء • وبانتهاء القناة القديمة فقدت المدينة أهميتها لكن ذكراها بقيت فى كتابات المؤلفين العرب الذين غالبا ما استخدموا مسمى بحر القلزم ليشيروا لما هو معروف اليوم باسم خليج السويس • وزيارة الميناء الحديثة بأشغالها وحواجزها ومخارجها وسدودها ذوات البوابات ، وقنوات المياه العذبة (الترع) ـ كل ذلك وحده يمكن أن يدلنا على الجهود المبذولة اليوم فى مجال تطبيقات الهندسة الميكانيكية على المياه • ولما كان غير المعروف أكثر جاذبية من المعروف ، والماضى ـ يثير الفضول أكثر من الحاضر ، والموروثات المنقولة أكثر مدعاة للسرور والبهجة من الحقائق التاريخية المؤكدة ـ لذا فان الحجاج (المسلمين) يتلبثون على سواحل البحر الأحمر مستغرقين فى أفكار ضاعت مع الزمن ولم يترك لها الزمن فى التاريخ أثرا • فأين كانت البقعة من البحر (الأحمر) التى غرق فيها فرعون وجيشه ؟ وأين الطريق التى قاد فيها موسى شعبه عبر الصحراء الى جبل سيناء ؟ تلك هى الأسئلة التى تفرض نفسها على المسافر المسيحى فى هذه الأرض • أسئلة عن الماضى والحاضر لا يمكن الاجابة عنها الا اجابة احتمالية على نحو أو آخر •

والنقطة الوحيدة التى تساعد فى الاجابة على استفساراتهم هو موقع آبار موسى (٢) فى الجانب الآسيوى لخليج السويس غير بعيد عن الساحل فى واحة خصبة • وأكبر هذه الآبار قد أحيط بسور فأصبح كأنه خزان ماء ، ويعتقد أنه هو بئر موسى الحقيقى الذى فجره صاحب الشريعة اليهودية من الصخر والذى أحال مياهه المرة الى مياه عذبة بالقاء غصن فيه •

وعندما تهبط الشمس غاربة فى المساء ملقية بأشعتها البرتقالية على جبل عتاقة Ataka الشامخ ، وعندما يرسل البحر بين الساحلين الآسيوى والأفريقى أمواجه الشفافة الزمردية لتصافح الساحل بحنان ، وعندما تبهت الألوان ببطء ثم تضيع مندمجة فى اللون البنفسجى ، ثم فى الزرقة ، ثم تتلاشى فى سديم رمادى ـ عندئذ فان صورة الطبيعة البسيطة ـ والعظيمة فى آن ، تترك تأثيرها كاملا ، فتستجيب لها الروح استجابة تفوق الوصف ، يظل أثرها باقيا حتى بعد العودة لأوطاننا الشمالية ، بمناظرها المختلفة وجمالها الطبيعى ، ذلك لأن المكوث طويلا وعميقا فى الشرق يحرك القلب بأحاسيس مرتجفة باعتباره الوطن الأصلى (الحقيقى) •

فهنا ـ عند آبار موسى ـ نكون في آسيا ، وهناك على الساحل المقابل لهذا البحر الضيق ، تقع أفريقيا • كيف لا تنهمر الفيوضات التاريخية على عقل الانسان عند رؤيته هذه المنطقة الرابطة بين قارتين ، كيف لا يعود الانسان بعقله الى عهود قديمة ، اننا نرى في فجر التاريخ البشرى قبائل حام (القبائل الحامية) تبدأ من آسيا ـ مهد جنسنا الأوربي ـ وقد تملكتها غريزة الهجرة ، فاتجهت غربيا عبر جسر الأمم the bridge of Nations ، برزخ السويس Isthmus of Suez لتدخل القارة السوداء وتستقر فوق تربة مصر الخصبة مبحرة جنوبيا في النهر لتشيد المدن والدول ، ولتترك آثارا عظيمة دالة على وجودها •

« ويبدو أن منف كانت أقدم المراكز (المحطات) التي استقبلت الهجرات الآسيوية • فمن المناسب أن تسمى الأهرامات « حجارة تخوم العالم the boundary stones of the world » (*) • ثم توالت آثار مصر الوسطى والعليا بعد ذلك تبعا لانتشار جنس الآباء الأول للمصريين نحو الجنوب ـ في مصر الوسطى والعليا ـ حاملة أبلغ الشواهد على أقدم الحضارات التي أبدعها هذا الجنس أثناء توغله جنوبا حول ضفاف النيل ، وثمة هجرة حامية أخرى اختارت الطريق البحري وأتت لمصر من سواحل فارس وشبه الجزيرة العربية ، ويقصد بهم الكوشيون Cushites ذوو الوجوه البنية المحمرة ، وهم الأثيوبيون في الموروثات الكلاسية • انهم ملاحو العالم القديم • وعلى سواحل Araby the Blest في أرض الصومال الحالية ، وفي الحبشة وفي وديان النوبة المثمرة اسسوا أوطانهم الجديدة ، وراحوا يتصارعون ـ بشكل دائم ـ مع الأجناس الزنجية التي كانت تسيطر على النيل ، وما تاخمه من أراض من أقصى الجنوب حتى أسوان •

وتقدمت جماعات الكوشيين من سواحل شبه الجزيرة العربية شمالا ، واستقرت في أرض كنعان وعلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط ، وكانت الجبيل (بيبلوس) وصور ، وسيدون Sidon هي الأماكن الأولى التي استقر فيها هؤلاء المهاجرون الكوشيون أسلاف الفينيقيين ، وقد جعلوا منها موانىء ، أو مراكز (محطات) بحرية • وثمة مجموعة أخرى ، من جنس مشابه أتت بحرا ودخلت الخليج الفارسي واستقرت على شواطىء الفرات ، وسرعان ما أصبحوا هم القوى الحاكمة في السهل العظيم الممتد بين دجلة والفرات • وأقدم السجلات عن هذه الهجرة ارتبطت باسم نمرود الصائد العظيم وابن كوش Cush الذي أسس

(*) أو « الحجارة الحدودية للعالم » أو « حدود العالم » •• الخ •
(المترجم) •

ـ وفقا لمرويات الكتاب المقدس ـ مملكة قوية فى الأجزاء الشمالية من المنطقة المشار اليها • ومرة أخرى كانت هناك قبائل كوشية غزت شرق الدلتا قادمة من شبه جزيرة العرب ـ قبل الميلاد بألفى سنة ، وأسست هناك امبراطورية الهكسوس • وطول خمسمائة سنة استطاعت هذه القبائل أن توطد لنفسها فى الدلتا تحت حكم ملوك من جنسها وتابعت زحفها صوب الجنوب متتبعة مجرى النيل حتى طيبة ، ولم يهزموا الا بعد معارك حامية الوطيس شنها عليهم ملوك من الجنس المصرى • وفى متحف بولاق مجموعة ثرية من التماثيل التى تبين وجود الحكام الكوشيين فى مصر بشكل يدعو للاعجاب الشديد ، وتمكننا من دراسة خصائص هذا الجنس الكوشى الغازى • وبعد طرد الهكسوس شهدت شبه جزيرة السويس The Peninsula of Suez (*) الجيوش المصرية تزحف شرقا لتنتقم من طغاة باشروا طغيانهم على مصر قرونا كثيرة • وتقدم الفراعنة المنتصرون الى بابل ونينوى وقهروا ـ فى طريقهم ـ عديدا من القبائل والبلدان ، وحكموا ـ لأكثر من أربعمائة سنة ـ أعظم امبراطورية فى غرب آسيا وأقواها •

• ولحماية حدود مصر من الهجمات القادمة من الشرق تم انشاء الأسوار والتحصينات فى شبه جزيرة السويس (كذا) وبدأت هذه الأسوار وتلك التحصينات بالقرب من الفرما (البوليزيوم) ـ الى الشرق من بورسعيد الحالية ـ وحتى هليوبولس • وكان لابد من الحصول على اذن فرعون قبل أن يسمح لأى جنس سامى بتجاوز هذه التحصينات ـ خاصة زمن المجاعات ـ والوصول للمراعى الخصبة قرب بحيرة المنزلة • ورحلة يعقوب فى مصر تلقى الضوء على الخطوات الرسمية التى يجب اتخاذها للاستقرار فى هذا الجزء من الدلتا • وبانهيار قوى الفراعنة أصبح برزخ السويس Isthmus of Suez ـ خاصة فى جزئه الشمالى ـ مسرحا لتحركات مستمرة للقبائل ، فحدثت غارات ، ومعارك : معركة اثر معركة بالقرب من الفرما عند خط الدفاع الخارجى وعبرت الجيوش الأجنبية مستخدمة الفرع البلوزى (الفرع الفارمى) للنيل حتى وصلت هليوبولس ومقر الحكومة شديد التحصين فى منف •

وعندما سد الفرع البلوزى (٣) (الفارمى) للنيل بسبب سحب مياه البحر المتوسط من الساحل السورى (؟ كذا) واهمال قنوات الرى وأعمال تنظيم المياه فى شرق الدلتا خلال أحلك فترات التاريخ المصرى ، تراجعت المنطقة وتدهورت بعد أن كانت حديقة الرب ، وأصبحت الحقول

(*) كذا فى الأصل ـ (المترجم) •

والسهول ـ التي كانت يوما مزدهرة بالخضرة ـ صحارى غير مثمرة . ومياه الفيضان التي كانت تملأ الفرع البلوزى (الفارمى) للنيل ـ بشكل اساسي ـ قد تحولت الى الفرع الغربى ، وأصبح الفرع الكانوبى Canopic هو الفرع القوى (الغنى بالمياه) وشيدت الاسكندرية بالقرب من مصبه واصبحت مركزا تجاريا مرموقا في عهد البطالمة والرومان ومركزا للحياة العقلية في الدين والفلسفة والآداب . وعادت أهميتها القديمة في أيامنا . على الأقل في ميدان التجارة . حقيقة ان طريق برزخ السويس Isthmus of Suez يعد شريانا أساسيا من شرايين المواصلات ، لكن ما يقال غالبا من أن بورسعيد ستحتل يوما ما مكانة الاسكندرية أمر غير قائم تماما رغم كل ذلك .

« فموقع الاسكندرية المناسب الى الغرب الذى يجعلها أسرع اتصالا بالموانىء الأوربية من بورسعيد ، وكذلك قربها من الأراضى الزراعية في الدلتا ، وما تتمتع به من وجود سكك حديدية وما يصلها من ترع ، وما بها من أسواق بضائع وصرافة وما تقدمه بشكل عام من وسائل تجعل الحياة مريحة ـ كل ذلك يقنعنا ـ رغم كل الصعوبات في مينائها ـ أنه يجب أن ننظر للاسكندرية كواحدة من أهم المدن التجارية في مصر المستقبل .

ولايمكن لبورسعيد أن تحتل مركزا مماثلا لمركز الاسكندرية الا اذا أصبحت قارة آسيا منافسة لأوربا في مضمار التجارة ـ وهذا أمر لايمكن تصوره الا في المستقبل البعيد . لقد اندرس برزخ السويس Isthmus of Suez تاريخيا ، وقبرت الصحراء آخر آثاره في الرمال ، وطريق القناة لا تقدم اثارة خاصة ، فمن بورسعيد الى السويس تبدو القناة كخط مياه أزرق يقطع الصحراء ، فالصحراء تحيط القناة من الجانبين ، والبقعة الوحيدة التى تسترعى الانتباه مصروقة باسمها القديم قنطرة الخزنة Kantara-el-Chazne الى الشمال من بركة البلاح Dattel lake . انها ـ أى قنطر الخزنة ـ تعد بمثابة علامة تبدأ عندها طريق القوافل المصرية الى آسيا .

« وفي بواكير التاريخ المصرى كانت توجد في هذه البقعة قلعة قوية على ضفتي القناة التى كانت تربط بحيرة المنزلة ببركة البلاح Dattel lake وتبين صورة من عصر الملك سيتي الأول Seti I (والد رمسيس الثانى ، سيزوستريس) على الجدار الخارجى الشمالى للمعبد العظيم لآمون في الكرنك ـ بوضوح جسرا يصل من جانب الى جانب عبر هذه القناة الآنف ذكرها . وعند هذه النقطة بدأ ذلك الاقليم الشرقي الذى أطلق عليه المصريون اسم هزيان (حزيان Hazion or Hazian) الذى أسماه اليونانيون

Casium وأسماه الرومان Casion ــ وكان هذا الاســم يشير الى الجزء الجبلي من الصحراء بالقرب من بحيرة سيربونيس Serbonis (*) (وهي الآن مجرد سبخة) ، وتتقدم هذه الجبال داخلة البحر المتوسط مشكلة قنة (بضم القاف وتشديد النون) ، وكان الضريح القدس يقع هنا ، وكان مكرسا لحارس المنطقة زيوس كاسيوس Zeus Casius • وقد حــرف العرب الاســم القديم Hazion فجعلوه خزنة Chazne وظل الاســـم ممثلا في قنطرة الخزنة • وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن طريق الفلسطينيين القـــديم Way of Philistines كما سمى في الكتاب المقدس الذى سلكته جيوش فرعون وجيوش الغزاة الأجانب ــ من القنطرة الى فلسطين ــ يقع بين البحر المتوسط وبحيرة سربونيس ، الا أنه ــ مؤخرا وفي العصور الحديثة ــ جرى تفضيل الطريق الواقــع الى الجنوب من البحيرة حيث طريق القوافل الصحراوى » •

ولنعد الآن لمتابعة وقائع رحلتنا بعد أن استمتعنا بهذه الملاحظـــات القيمة التي قدمها واحد من أبرز علماء التاريخ المصريين •

سيناء ــ عيون موسى :

لقد حملتنا الباخرة باخرة القناة المصرية فوق مياه البحر الأحمــر الخضراء الجميلة الى الساحل العــربي (**) وتوقفت عند أقرب نقطة لعيون موسى ، وسرعــان ما اتجهت مجموعتنا جميعـــا في طريقهــا ــ عابرة الصحراء ــ الى هذه العيون ، فوق ظهور حمير صغيرة ، لقـــد كانت هي المرة الأولى التي نطأ فيها الأرض الآسيوية (***) • ان الصحراء العربية تختلف تماما عن الصحارى الافريقية ، فاللون الأبيض المتألق حل محل اللون البرتقالي بدرجاته المختلفة ، انها جرداء تماما لا يقطع قحولتها سوى شجيرات هنا وهناك •

وعيون موسى التي وصلناها بعد نصف ســـاعة تقع وسط واحة صغيرة جدا ، وثمة حديقة يانعة حول العيون التي تنبجس من حفر على شكل أقماع ، وابتهجت عيوننا بالنخيـــل والشجيرات والحشـــائش الطويلة والنباتات العريضة أوراقها • وثمـــة أكواخ قليلة يقطنها بعض البـــدو الفقـــــراء (٤) •

(*) بحيرة البردويل الآن ــ (المترجم) •

(**) المقصود سيناء ــ (المترجم) •

(**) المقصود هنا سيناء كما يتضح من السياق ــ (المترجم) •

ولم أر - بالاضافة لطيور السنونو (طيور الخطاف) سوى سحلية وأعـداد كبيرة من الحرباء تغير ألوانها فى كل لحظة ، وتتسم بالنحالة كأنها أوراق • وبدت آثار الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى مما يشير الى أن هذه الحيوانات ترد ماء العيون ليلا •

وكان البدو الذين رأيناهم عند العيون فى ثياب خلقة • ولبنادقهم البدائية ذوات الأحجار القداحة flint guns حبـال طويلة ملفوفة حولها ، ويشعلون فيها - أى فى هذه الحبال - ويتركونها تشتعل حتى تصل النار الى البارود فى الخزنة ، ويجب أن ينتظر الصيادون البوساء لمدة دقائق ترقبا للحدث السعيد • وطلبنـا منهم اطلاق بنادقهم فى حضورنا • انها أسلحة مربكة يحتار المرء فى وصفها بسبب قلة شـأنها وبدائيتها •

ويختلف هؤلاء الناس - كثيرا - فى مظهرهم عن البدو الحقيقيين • فقد بدوا فى عينى يهودا داكنى البشرة • كما أن قوام الواحد منهـم وملامحه اسرائيلية تماما ، وان كان يتحتم على المرء أن ينصرف عقله الى أنهم من ذرية هاجر Hager الذين خرجوا من صحراء شبه الجزيرة العربية ، وهم ذرية اسـماعيل Ishmaelite المشهورون بالصـيد والسلب ، وهذا ما ورد فى معظم أشكال المرويات الخرافيـة عن فجـر التاريخ الشرقى ، وتحتل هذه الفكرة أهمية بالغة •

ومن فوق تل الجرد بالقرب من عيون موسى ألقينا نظرة من بعيد عبر الصحراء العربية البيضاء المتألقـة بحيودها الصخرية وأوديتها - الى الجنوب حيث جبال سيناء المرتفعة ، والى الغرب - عبر البحر الأحمر - حيث جبل عتاقة فى أفريقيا ، كانت السحب الكثيفة فى السماء تضفى على المشاهد شيئا من الجهامة •

وبعد فترة قصيرة عدنا للساحل وبحثنا لبعض الوقت عن الأصداف فى الرمال ، فالبحر الأحمر مشهور بثراء أصدافه وقد وجدنا فى غضون دقائق قليلة ما لا يحصى من الأصداف الجميلة • ليس لدينا وقت وعلينا أن نعود لباخرتنا • وبالفعل عدنا وتجاوزنا السويس ودخلنا القناة ، وهنا كما فى كل مكان ، وجـدنا ضفتيها جرداوين ، وأفضـل أن أترك برجش باشا - مرة أخرى - يحدثنا عن القناة فهو قادر على اثراء الحديث باضفاء البعد التاريخى على المشاهد الرائعة •

برزخ السويس ــ جسر الأمم :

« ان زيارة لجسر الأمم القديم الذى يفصل أفريقيا عن آســـــيا لا تعوض ــ اطلاقا ــ المسافر عن مشقته بمناظر ذوات جمال طبيعى تمر أمام عينيه ، وتدفعــه للتوقف ، بــــل العكس هو الصحيح ، فالشعور بالجفاف يملأ الروح عند النظر للصحراء الجرداء المليئة بأكوام الرمال ترتفع في وسطها كتل جبلية حمراء تبدو متناقضـــــة مع السماء الزرقاء الصافية ــ بأشكالها ذات الشقوق والصدوع المحددة تحديدا حـــادا ، ولا شيء سوى الضوء الباهر والشفافية وتدرجات الألوان الواهنة يشكل مدهش ، تلك الظواهر التي تصبها شمس الشرق على الطبيعة فتجعل حتى للصحراء جاذبية شعرية تناجي الروح وتدعوها للاجابة وتغمرها بأفكار شاعرية غامضة ، لكن بحر النور واللون الذى يغمر أرض الصــــحراء بأمواجه يدخل العين والعقل ، وان كانت النفس أيضا تتوق لأطفال الربيع الذين تخلوا عن مكانهم لعالم الضـــــوء غير المحـــدود وتراجعوا خجلين الى الأرض السوداء حول ضفاف النيل •

لقد وصف المؤلفون مصر ــ عن حق ــ بأنها هبة النيل • وقد أكدت البحوث الجيولوجية الحديثة وحدها هذا القول ، فبعد أن توغل النيل في اتجاهه نحو الشمال خلال الجرانيت والحجر الرملي وكون الشلالات مجتازا الجنادل فى أكثر المناطق صعوبة ، نجده يدخل منطقة مكوناتها من حصى وبلور صخرى ، ويتخذ طريقه للبحر بعد أن يقطع مسافة طويلة ليصل لما نعرفه الآن بوادى النيل الخالص (الحقيقى) ، لقد كان البحر الى الشــــمال من القاهرة خليجـا عريضـــا يمس بساحله الغربى الصحراء الليبية ، ويمس بساحله الشرقى الصحراء العربيــــة • وأثبتت البحوث الجيولوجية الحديثة المعتمدة على بقايا الحياة الحيوانية والنباتيـــــة فى عصور ما قبل التاريخ فى تربة الصحراء خلال شق قناة السويس ــ بشكل قاطع ــ أن برزخ السويس كان فى يوم من الأيام نقطة التقـــاء البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، فأمواج البحر المتوسط كانت تضرب فى فوهة القناة الشمالية التي صنعها هذا البحر نفسه ، بينما كانت أمواج البحر الأحمر تتوغل خلال الأجزاء المنخفضة من الصحراء العربية (الشرقيـــــة) فاتصلت رويدا رويدا بمياه البحر المتوسط ، وبذلك انفصلت آسيا عن أفريقيا بمسافة تبلغ حوالى سبعين ميلا •

وبمرور الزمن فان موج البحرين حمل معه بالضرورة رمالا (جرف معه رمالا) فتكون ــ شيئا فشيئا ــ كثيب رملى سرعان ما أصبح جسرا (حاجزا) متينا ، وهذا الجسر الذى يقع فى منتصف البرزخ أو الى الشمال

من المنتصف قليلا ، يرتفع الآن لحوالى ستة عشر مترا ، وهو معـروف بالفعل باسم الجسر El-Gisr .

« وهذا الجسر هو أعلى نقطة فى المسار (فى الخط) الذى نصفه — وكان هو الرابط البحرى الوحيد الذى كان يمكن عن طريقه عبور ما يعرف الآن ببرزخ السويس ، ويجب أن نفترض أن دلتا النيل كانت تتكون فى الوقت نفسه الذى كان فيه هذا الجسر يتكون ، فالطمى المجلوب عاما بعد عام مع فيضان النيل نتج عنه فى المقام الأول تكوين الأرض الزراعية فى مصر العليا . وبالطريقة نفسها كونت الارسابات فى حوض عريض بين الصحراء الليبية (الغربية) والعربية (الشرقية) وامتد هذا الحوض شمالا حتى المدى الذى وصل اليه الآن ، فالدلتا هى — بالمعنى الحرفى — هبة النيل حيث كانت المياه تمر فيها من خلال ثلاثة فروع رئيسية وخمسة أصغر منها — وكلها كانت تتخذ مجراها الى البحر المتوسط ، لكن الأمواج المعاكسة للبحر المتوسط (الأمواج المناهضة لتدفق ميـاه نهر النيل) والمنحرفة نتيجة اصطدامها بالساحل السورى منعت تكوين تربة زراعية على الساحل الشرقى للدلتا ، واختلطت أمواج البحر بالمياه المتدفقة من مصاب النيل وشكلت حوضا كبيرا من المياه الضحلة التى تضـم جزرا كثيرة امتدت من دمياط الى بورسعيد ، وهذا الحوض يحمل الآن اسـما شاملا هو بحيرة المنزلة . ومياه هذه البحيرات (التى أطلق عليها مؤخرا اسم بحيرة المنزلة) كانت متصلة من الجنوب ببحيرة البلاح حيث يقع الى الجنوب منها « الجسر » الذى تحدثنا عنه آنفا ، أما ميـاه البحر الأحمر فغذت حوض مياه البحيرة التالية وهى بحيرة التمساح (بركة التمساح) والبحيرات المرة التى كانت مرتبطة ارتباطا مباشرا بخليج السويس عن طريق قناة عرفت بفيل التمساح ، لا غرابة اذن فى أن مواضع هذه البحيرات بين البحرين الأبيض والأحمر بالقرب من النيل ، قد أيقظت فكرة ربط هذه البحيرات بقنـاة مع النيـل — وذلك فى فترة باكرة من حقب التاريخ المصرى ، فاذا ما تم هذا الربط ارتبط البحر المتوسط بالأحمر .

ووفقا للمرويات الكلاسية فان رمسيس الثانى (وهو سيزوستريس — سيزتورا كما تشير النقوش) كان أول ملك يأمر بشق قناة ملاحية من الفرع البلوزى (الفارمى) للنيل الى بحيرة التمساح مستغلا الانخفاض الطبيعى لوادى طميلات (Tumilat) . وبقايا المدن والآثار المندرسة والتى تحمل اسم هذا الملك لاتدع مجالا للتشكك فى وجود هذه القنـاة ، وفى زمن متأخر بدا أن هذه القناة قد انطمرت وظلت جافة حتى سـنة ٦٠٠ قبل الميلاد عندما قام الملك نخاو Necho بوضع خطة لاعادة ربط النيل بالبحر الأحمر ، وعلى أية حـال فقد توقف مشروعه (الذى فنى فيـه

١٢٫٠٠٠ عامل مصرى) بسبب وحى الهى لأحد الكهنة يحذر نخاو من أنه ــ بمشروعه هذا ــ لايعمل الا لخدمة البرابرة أو الغزاة الأجانب ·
وبعد مئات السنين من عصر نخاو لم يخش الملك الفارسى قمبيز والملك الفارسى داريا (داريوس Darius) من مثل هذه النبوءات التحذيرية ــ فأكملا الربط بين النيل والبحر الأحمر ، وبقايا هذه القناة تم اكتشافها فى أيامنا هذه فى منطقة البرزخ ، وقد وجدت هذه البقايا الى جوار مبان تحمل نقوشا فارسية تحدد ثلاث محطات على طول خط الماء الطويل الذى يصل بين بحيرة التمساح وخليج السويس · وثمة توسيع وتطوير فى نظم القنوات هذا تم تحت حكم البطالمة ! اذ تم انشاء قناة فرعية من فاكوسا Phakusa (فاقوس الحالية) على الفرع البلوزى للنيل الى بحيرة المنزلة وبهذه الطريقة أمكن الوصول لبحيرة البلاح التى كانت تتصل بدورها ببحيرة التمساح والبحيرات المرة ، وبهذه الطريقة اتصل البحران المتوسط والأحمر عند أقرب مسافة بينهما ، وأصبح هذا الطريق المائى ، فى ذلك الوقت ــ ذا قيمة لا مزيد عليها للتجارة العالميــة ·
وقد تدهورت هذه القنوات تحت حكم الرومان حتى جاء عمرو (بن العاص) القائد المشهور فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فعمل على اعادة الطريق المائى الرابط القديم فربط القاهرة بالسويس عن طريق قنــاة ، وفى القرن الثامن للميلاد لم تعد هذه القناة صالحة للملاحة ، وفى سنة ١٦٧١ قدم ليبنتز Leibnitz خطة للويس الرابع عشر تبين أهمية ربط البحرين ، لكن اقتراحه لم يلق أذنا صاغية ، ولما قام الجنرال بونابرت بحملته الشهيرة على مصر لم تفلت منه فكرة ربط البحرين لكن مشروعه فشل بسبب الحسابات الخاطئة التى وقع فيها المهندس ليبير Lepère والتى مؤداها أن مستوى البحر الأحمر أكثــر ارتفــاعا من مستوى البحر المتوسط بعدة أمتار تبلغ ٩٫٩٠٨ أمتار ، وبهذا أصبح وصل البحرين امرا غير ممكن وأخيرا فى الأربعينات من هذا القرن التاسع عشر بينت القياسات الدقيقة الخطأ الكبير الذى وقع فيه ليبير · وبعد أن حصــل ليسبس Lesseps من سعيد باشا على امتياز حفر قناة السويس ، بدأ العمل الشاق سنة ١٨٥٨ وفى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ تم افتتاح القناة فى احتفال تجلت فيه مظاهر الفخامة والاسراف ، وقد فاقت تكاليف انشاء القناة ١٩ مليون جنيه استرلينى ·

وكان من المستلزمات الضرورية للعمل فى القنــاة شق ترعة للمياه العذبة لامداد عمال القناة بماء الشرب ، ومد بورسعيد بالماء أيضا بعد ذلك · فتم شق ترعة تبدأ من قرب قصر النيــل لتخرج من النيــل فى خط مستقيم الى هليوبولس ثم تتجه شمالا بشرق ، وثم شق وادى طوميلات

وأخيرا شهد الساحل الغربي لبحيرة التمساح والبحيرات المرة لتواصل الترعة مسيرتها الى السويس » .

لقاء دي ليسبس العجوز :

وتنهى الآن هذه الملاحظات الشائقة التى أرسلها لى صديقى ، وتبعد للقناة وسفينتنا البخارية الفرنسية ، فسرعان ما وصلنا الى البحيرات المرة وكان منظرها جذابا بشكل لا ينكر ، فالتناقض بين اللون الأزرق الداكن والصحراء البيضاء اللامعة لا يمكن الا أن يجذب انتباه المسافر . وفى مضيق بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح لاحظنا واحدا من حيوانات ابن آوى بالقرب من شاطىء القناة يبحث عن أصداف الأسماك ، فاطلقنا عليه عدة طلقات من بنادقنا ، لكنها كانت طلقات طائشة ، وبالقرب من مياه بحيرة التمساح العميقة زرقتها استمتعنا — مرة أخرى — ببهاء الشمس الأفريقيــة .

وبدت منازل الاسماعيلية على الساحل الرملى الى الشمال ، وسرعان ما وصلت باخرتنا للرصيف الفرنسى الفاخر ، وكان فى انتظــارنا مستر ليسبس المنشىء المشهور لهذا المشروع العملاق الذى وصــل البحرين ، وكان معه ابنــه وعدد من موظفى الشركة الفرنسية ، وكنت سعيدا جدا أن أتعرف بهذا الرجل العجوز الذى لازال نشطا شغوفا بالعمل لايعرف التراجع ولا ينثنى له عود . وقد ذهب بنا الى منزله الريفى المحاط بحديقة صغيرة ، واستقبلتنا هناك زوجة إبنه الجميلة وهى يونانية قاهرية من أسرة سينادينو Sinadino الثرية ، وكان حاضرا أيضا أخوها وهو شاب ظريف ، وسيدة انجليزية ، وسرعان ما تناولنا عشاءنا عقب وصولنا وقضينا المساء فى حوارات اجتماعية ممتعة ، وبدأنا صباح اليوم التالى ، مبكرا جدا — وكان السيد ليسبس على رأسنا — فركبنا القطار لمسافة قصيرة الى محطة مقسمة Maksama ، فتوقفنا ، لكننا وجدنا صعوبة فى اخراج خيولنا العديدة من القطــار ، اذ راحت تصهل وتندفع فضاع منا وقت كثير فى التجهيز لرحلة الصيد ، وكانت قبيلة بدوية قد ضربت خيامها بالقرب من المحطة وعند وصولنا خرج هؤلاء الرجال الرائعون من خيامهم وأقبلوا الينا على خيولهم وجمالهم ، وفى مقدمتهم شيخهم يمتطى صهوة فرس كستنائى رائع .

لقد أحسن السيد ليسبس بدعوة هذه القبيلة — المشهورة بمهارتها فى المطاردة — لتكون بالقرب من الاسماعيلية حتى نتمكن من رؤية البدو يصطادون غزلانا . كان الشيخ فى المقدمة يرتدى عباءة بيضاء خالصة ، وكان سرج فرسه جميلا ، وقد ثبت سيفا معقوفا حول خاصرته ، ووقف

على يده ذات القفاز صقر نبيل حول رأسه غطاء لامع • وتبعه جمع من البدو راجلين أو راكبين جمالا أو خيولا وكانوا مسلحين ببنادق طوال وسيوف معقوفة وخناجر ، وكانوا جميعا يلبسون ثيابا بيضا - كانت وجوههم بنية ومعبرة جدا ، وكان يتبع السادة منهم كلاب آسيوية ، ومعهم بعض الصقور المختلفة لكنهـا ليست من النوع الممتاز نفسـه الذى مع شيخهم •

والقبيلة التى معنا الآن تتحرك خلال الصحراء ، غير بعيد عن الخط الحديدى ، وأصبح تجوالها فى أفريقيا (مصر) منذ فترة ، لكنها قبيلة عربية خالصة من شبه الجزيرة العربية ويمكن للمرء استنتاج ذلك بسهولة من خلال ملاحظة خيولها النبيلة وثراء دروع الرجال وثيابهم ، لقد ركبنا ـ مشكلين صفا طويلا غير متـلاحم ـ خـلال وديان الصحراء ومسيلاتها الجـافة • لقـد كنا نقصـد صيد الغزلان فحسب فاذا بنـا نرى أيضـا الأرانب البرية •

وظلت جهودنا ـ طوال ساعتين ـ بغير نتائج ، وبدأ البدو يتقدمون ـ وقد نفد صبرهم ـ لتوسيع دائرة البحث عن الغزلان وقد اكتشف أحـد هؤلاء البدو غزالا خارجا من بعض الشجيرات الكثيفة ، فتجمع البدو بغير نظام يطاردون هذا الغزال وأطلقت الكلاب وأحاط راكبو الخيول بالغزال من كل جانب حتى لا تجد سبيلا للهرب ، فراحت تدور خائفـة تلبسها الرعب حول الخيول ، فوضع أحد البدو نهاية سريعة للمطـاردة فأطلق بندقيته اثرها بينما كان منطلقا بسرعة ، فهوى الغزال فى لحظة •

وأعقب ذلك محاولة لصيد الأرانب الصحراوية ، ولأن الحرارة كانت شديدة جدا كما أن فرصنا فى الفوز بهذه الحيوانات كانت قليلة ـ فقد اتخذنا طريقنا عائدين لمحطـة السكة الحديد • ولكى يستعرض الشيخ مهارة الصقر ، فقد تركه يطير ليقتنص حمامة سرعان ما هوت بعد ثوان قليلة متأثرة بمخالبه القوية •

ووصلنا سريعا للمحطة وتناولنا افطارا متواضعا فى المركبات،وبعدها عاد بعض الرفاق للاسماعيلية ، بينما صحبنى الآخرون فى باخرة صغيرة فى نزهة قصيرة فى ترعة المياه العذبة ، وتوقفنا عند منزل عتيق مهدم وعبرنا الكثبان الرملية الى قطاع سبخى تحيطه الصحراء غير بعيدة عنه ، ويمتد هذا القطاع السبخى موازيا للترعة حتى بحيرة التمساح فى موضع غير بعيد عن الاسماعيلية •

وقادنا رجل فرنسى ظريف ، كمـا أنه رياضى متحمس ـ فى هذه المنطقة السبخة التى سبق له ممارسة الصيد ـ بنجاح ـ فيها ، وفى بداية

السبخة وجدنا طيور التفلق الأفريقية الذهبية الجميلة والتى لم نرها من قبل ، وقد اصطدنا منها عددا كبيرا فى دقائق قليلة • وفى الأراضى التى تزداد فيها الروية والماء وجدنا كثيرا من الشناقب وأنواعا عديدة من الحيوانات الصغيرة سواء حيوانات الماء أو حيوانات السبخات ، كما رأينا أيضا عددا من البط وطيور الزقزاق ذوات الشوكات فى أرجلها ، وحطت طيور السمان بين الحشائش الطوال ، وكان الجراد أيضا مثيرا جدا لم أر أبدا أكبر حجما منه ، وطار هذا الجراد محدثا طنينا عاليا يسمع من بعيد نسبيا ، ولكى أتفحص جرادة منها كنت مضطرا لاطلاق بندقيتى عليهـا كما لو كنت أطلقها على واحد من طيور السمان • انها طلقة غريبة حقا !

وفى واد ضيق تحيطه الصحراء كانت الشمس تحرق أبداننا بشكل مرعب جالبة البخر النتن من السبخة ، وبعد عدة ساعات من الصيد المرهق ، عدنا محملين بكثير مما اصطدناه — الى ترعة المياه العذبة وركبنا — مرة أخرى — باخرتنا التى عادت بنا سريعا الى الاسماعيلية ، فتناولنا عشاءنا على ظهر احدى البواخر الفرنسية بناء على رغبة ليسبس بدلا من تناوله فى بيته ، وخلدنا للراحة مبكرا •

وفى صباح اليوم التالى ذهبنا جميعا لكنيسة صغيرة — لكنها جميلة — حيث كان الفرنسسكان يقيمون القداس لكل الجالية الفرنسية هنا ثم صحبنا ليسبس فى جولة فى شوارع وحدائق هذه المدينة الفرنسية الصغيرة ، وأطلعنا الرجل العجوز (ليسبس) بفخر واضح على كل ما أنجزه فى هذه الصحراء الجدباء ، انه عمل يبدو كأنه تم بسحر ساحر •

وحان وقت الرحيل فاستأذنا — على المحطة — من الكونت ليسبس والهر زمرمان الذى حبانا بفضله خلال كل رحلتنا — أثناء استخدامنا القطارات — فى مصر ، وتحركت الباخرة ، وكان بصحبتنا م • ليسبس الشاب وزوجته وبعض الفرنسيين • كانت الرحلة سريعة ، تخللها حوار جذاب وشائق قطعت خصوبته على المشاهد القاحلة •

وأطلقت بندقيتى على بعض طيور الكروان ونسر من نسور الجيف ، من فوق ظهر السفينة ، وفى المناطق الضحلة ببحيرة المنزلة وجدت آلافا من البجع وطيور البشروس تتالق بالحمرة التى ألقتها عليها أشعة الشمس •

مغادرة مصر :

وفي بورسعيد استقبلتنا الجالية النمساوية البلغـارية استقبالا حافلا ، ووصلنا في القوارب الى سفينتنا ميرامار ، وما هي الا دقائق حتى كنا على ظهر سفينتنا الطيبة ، وعزف سلامنا الوطني ، ومدينـة بورسعيد مدينة أوربية تماما ، فميناؤها الواسعة ومباني القناة ، وأحواض السفن والورش والسفن ـ كل هذا له طابع أوربي تماما .

وتناولنا عشاءنا ـ متأخرا ـ فوق ظهر ميرامار ودعونا اليـه عبد القادر باشا وبعض الفرنسيين ، وعندما حل الظـلام زينت جاليتنا المقيمة هنا الميناء وعددا من القوارب باضاءة جميلة وراحت قوارب بهيجة مضاءة مزودة بفرق موسيقية تدور حول ميرامار ، مصدرة أعذب الألحان ، وشاهدنا ألعابا نارية على البر .

وحان وقت الرحيل سريعـا فغـادر ضيوفنـا ميرامار ، وكذلك عبد القادر باشا . لقد تعلمنا أن نقدر هذا الرجل ونحترمه فقـد كان مرافقا مخلصا وصديقا حقيقيا .

لقد امضينا أياما عظيمة لا يمكن أن تنسى في أفريقيا ، وحملنا معنا انطباعات عن عظمة هـذه القارة السوداء ، وعن حضـارة مصر القديمة المتألقة من قبور مضى عليها آلاف السنين . انها حضـارة عظيمة لكنهـا تلاشـت .



تعليقات المترجم علـى الفصـل السادس

(١) بئر يوسف (الحلزون) ، وقد حفرت بداخل القلعة وخلف مسجد الناصر محمد بن قلاوون بئر للافادة من مائها اذا قدر للقلعة أن يحاصرها عدو وهي البئر المعروفة بالحلزون ويبلغ عمقها تسعين مترا ، وتستخرج المياه منها بواسطة سواق وهي من عجائب البنيان ؛ لانها محفورة في الصخر ويستطرد الاستاذ حسن عبد الوهاب قائلا : « وانى ارجح أن تلك البئر تسبق عصر صلاح الدين خصوصا وانها خارج اسواره ، اما مياه النيل العذبة فقد كانت تصل الى القلعة في عهد صلاح الدين وبعده بواسطة قناة على ظهر سور صلاح الدين الممتد من الفسطاط الى القلعة والموجودة بقاياه الآن » •

(٢) يتحدث ج. مونج (من علماء الحملة الفرنسية) عن عيون موسى قائلا انها « ••• تكاد تكون مواجهة لوادى التيه •• ومستقع في خطأ اذا ظننا ان اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة في القدم ، وانه قد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم ، ذلك ان اسم هذه الينابيع شأنها شأن عين العذراء في المطرية (هليوبولس القديمة) وشأن عيون غيرها كثيرات لا يعود الى ما قبل استقرار المسيحية في مصر ، حيث تحورت أسماء قديمة تتصل بديانة تزعزعت مكانتها الى اسماء أخرى مشابهة في المعتقدات الجديدة • وعلى الرغم من ان عيون موسى اقل ملوحة من مياه آبار كثيرة حفرت في مناطق اخرى في الصحراء فانها مع ذلك مائلة للملوحة ••• » وصف مصر ، ج ٢ ص ص ٨١ ـ ٨٥ •

(٣) وجدنا من الضرورى أن نشير ـ بالتفصيل ـ لفروع النيـل القديمـة • لكثرة الاشارة اليها في هذه الرحلة • وعمدنا الى جعل هذه الحاشية مفصلة قدر الامكان حتى لا يقطع التجزىء استطرادها ، على أن نحيل القارىء لهذه الحاشية نفسها اذا استلزم الأمر الاحالة اليها بعد ذلك •

ففي العصور القديمة كان للنيل سبعة مصبات على الاقل ، وقد تقلص هذا العـدد كما هو معروف الى اثنين فقط الآن ، ومن المؤكد فيما يقول الباحث الفرنسى دى بوا ـ أن الدلتا قد تضاءلت مساحتها حتى لا تكاد تبلغ مساحة الدلتا القديمة ، على اية حال فهذه الافرع هي :

١ ـ الفرع البليوزى أو فرع بوباسطة •

٢ ـ الفرع التانيسى وهو الذى يحمل اليوم اسم ترعة ام فارج •

٣ ـ الفرع المنديسى أو فرع الديبة •

٤ ـ الفرع البلنتينى وهو فرع دمياط الحالى •

٥ ـ الفرع السبنتينى وهو فرع البرلس •

٦ ـ الفرع البولبيتينى وهو فرع رشيد •

٧ ـ الفرع الكانوبى أو فرع أبى قير •

وكان الفرع البيلوزى (شرق الدلتا) صالحا للملاحة عندما توغل الاسكندر الاكبر فى مصر فقد ادخل فى هذا الفرع اسطوله الذى استدعاه من غزة لكن الرمال تسد اليوم هذا الفرع ولا تزال ترى حتى ايام الحملة الفرنسية عند بيلوز (بالوظة) فتحته التى كانت تؤدى الى البحر وهى مليئة بالطين ، وآثار هذا الفرع كانت لا تزال واضحة ايام الحملة الفرنسية الى الشمال من بلبيس عند قرية بسطة التى كانت تعرف قديما باسم بوباسطة ، أما الفرعان التانيسى والمنديسى (الى الغرب من فرع البيلوزى ــ وكلها شرق الدلتا) فكانا يصبان فى مكان تشغله بحيرة المنزلة وكان يسمى فيما مضى تنيس • ويميل مالو (أحد علماء الحملة الفرنسية) الى أن الترعة المعروفة باسم بحر مويس هى الفرع التانيسى للنيل وان الرمال سدت جزءه الادنى وبالتالى عاقته عن الوصول للبحر المتوسط (عن طريق بحيرة المنزلة) •

وكان الفرعان البيلوزى (شرق الدلتا) والكانوبى (غرب الدلتا) يشكلان قمة الدلتا ويحدانها من ناحية الشرق والغرب •

وصف مصر ، ج ٣ (المدن والاقاليم المصرية) انظر ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧٢ ــ ٤٢٠ •

(٤) يتحدث الأرشيدوق كثيرا عن العرب فى مصر ، فيقول : قبايلت عربيا ، وقال العرب، وسكان عرب ••• الخ وقد يتبادر الى الذهن انه يقصد بدو الصحراء وهذا غير صحيح دائما ، فالواقع ان عرب الجزيرة الذين قدموا الى مصر مع عمرو بن العاص ، والذين كانوا فى مصر قبل عمرو ، قد تحول عدد كبير منهم بالتدريج الى سكنى الوادى والدلتا ، وعرفوا فى التاريخ الاسلامى باسم أعرب المزارعة واستمرت عملية تحضرهم واستقرارهم مستمرة ربما حتى الآن ، ويحدثنا كتاب الحملة الفرنسية عن العربان الذين كانوا مازالوا ــ وقت الحملة ــ فى حالة بداوة وأولئك الذين استقروا وعملوا فى مجال الزراعة وغيرها ، ونفضل ان نورد هنا بعض ما ذكره دى بوا أحد علماء الحملة الفرنسية فى دراسة القبائل العربية فى صحراوات مصر ــ (ترجمة زهير الشايب ، ج ٢ من وصف مصر) :
« حقيقة الأمر ان صحارى مصر اهلة ، يسكنها رجال ضخام شداد يسمون بالعربان البدو وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات •• ، وبامكانهم الاعتماد تماما على قطعانهم لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر أخرى للمعيشة ويشاهدهم المرء يحومون حول الوادى والدلتا) كأنهم ذئاب جائعة ، وان كان العربان يسعون فى بعض الاحيان •• للحصول على اذن من الحكام للاقامة فى المناطق الخصبة وفى احيان اخرى يستقرون عنوة فى مناطق خصبة ••• ومع هذا فهناك بعض القبائل التى لانت طبائعها بفعل سلام طويل • وانتهى بها الامر ان هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حياة البداوة لحياة الزراعة ، والمثل الواضح فى الصعيد على ذلك قبيلة الهوارة وأصبحوا من ثراة الملاك ، وفقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية ••• وتحول حبهم الطاغى للحرية الى حب للوطن ••• » ص ص ٢٦٣ــ٢٦٦ •

اقــرا فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رســـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطــة مقابل نقطــة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عــام	ت · و · فريمــان
الثقـــافة والمجتمـــع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الارض الغـــامضة	ليســترديل راى
الرواية الانجليـــزية	والتـــر الـــن
المرشـــد الى فن المسرح	لويس فارجــاس
آلهـــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشــاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشــم النحــاس
مجمــوعات النقـــود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشـــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الادبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديــلان تومــاس	اشراف س · بى · كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جــون لويس
الرواية الحـــديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعــاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمــود طــه	انــور المعـــداوى
القــوة النفســية للاهرام	بيل شــول وأدبنيت
فن الترجمــة	د · صــفاء خــلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلــو
ســـتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى — فيكتور هوجو

الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيـــزياء الذرية) — فيرنر هيزنبرج

التراث الغامض ماركس والماركسيون — سدني هوك

فن الأدب الروائي عند تولستوي — ف . ع . أدنيكوف

أدب الأطفال — هادي نعمان الهيتي

أحمد حسن الزيات — د . نعمة رحيم العزاوي

أعلام العرب في الكيمياء — د . فاضل أحمد الطائي

فكرة المسرح — جلال العشري

الجحيم — هنري باربوس

صنع القرار السياسي — السيد عليوة

التطور الحضاري للانسان — جاكوب برونوفسكي

هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟ — د . روجر ستروجان

تربية الدواجن — كاتي ثير

الموتى وعالمهم في مصر القديمة — ا . سبنسر

النحل والطب — د . ناعوم بيتروفيتش

سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى — جوزيف داهموس

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤ — د. لينوار تشامبرز رايت

كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة — د. جون شندلر

الصحافة — بيير البير

أثر الكوميديا الالهية لدانتي في الفن التشكيلي — الدكتور غبريال وهبة

الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية وبعدها — د . رمسيس عوض

حركة عدم الانحياز في عالم متغير — د. محمد نعمان جلال

الفكر الأوربي الحديث (٤ ج) — فرانكلين ل . باومر

الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥ — شوكت الربيعي

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار — د. محيي الدين أحمد حسن

نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج · دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصي	جوزيف كونراد
الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د· جوهان دورشنر
حرب الفضاء	مجموعة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د · السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د · مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبري الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ جـ	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطوني دي كرسبني
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة في مصر الإسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د · سمبسون ونورمان د· اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فرد · س · هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	الان كاسبيار
التخطيط السياحي	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراماسينج
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

الكمبيوتر في مجالات الحياة	د. محمود سرى طــه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـر لــورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
الهنــدسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسـماك الزينـة	ديفيـــد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر. بورر وملتون جولدينجر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح فى الفن التشكيل المعاصر	د . صــالح رضـــا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ . كنج وآخــرون
بداية بلا نهـــاية	جــورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه أبو سديرة
حــوار حـول النظــامين الرئيسيين للكـــون	جاليليــو جاليليــه
الارهـــــاب	اريك موريس وآلان هــو
اخنـــاتون	ســـيريل الــدريد
القبيـلة الثــالثة عشرة	آرثر كيســــتلر
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جــون بورر
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب . كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر . ج . فوريس
التـــــوافق النفسى	توماس أ . هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغـــة الصـــورة	روى آرمــز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجــاى متشــيو
العـــالم الثــالث غــدا	بول هاريسون
الانقـــراض الكبيـــر	ميخائيل آلبى ، جيمس لفلوك
تاريــخ النقود	فيكتــور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسـترالى	اعداد محمد كمــال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحيــاة الكريمــة (٢ جـ)	برتون بورتر
قيــام الدولة العثمانية	محمــد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميري
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	موني براخ وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص أخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنس
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلي سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	توني بار
العثمانيون في أوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير برابر
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ جـ)	ألفريد ج. بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر في ألف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوي
مصر الرومانية	نفتالي لويس
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الأسيوية	اختيار / صبري الفضل
كتب غيرت الفكر الانساني (٣ جـ)	احمد محمد الشنواني
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو توه
حديث النهر	سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. ابرار كريم الله

ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ	هـ.ج. ولز
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفـل ٢ جـ	أرنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السـحر والعلم والدين	فيليب عطيه
الكون • ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سونداری
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج. برجين
تبسـيط المفاهيم الهندسية	ج كارفيـــل
تحول الســـلطة	الفين توفلر
فن المايم والبانتوميم	توماس نيبهارت
السيناريو فى السينما الفرنسية	اعداد كريستيان سالين
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
رحلة جوزيف بتس	جــوزيف بتس
الفيلم التسجيلى	اعداد محمود سامى عطا الله
بين تولستوى ودوستويفسكى	جورج ستانير
المراة الفرعونية	كريستيان دى روش
انواع الفيلم الأمريكى	ستانلى جين سولومون
فن الفرجة على الأفـلام	جوزيف • م • بوجز
الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ هـ	آدمز متز
كونتنـــا المتمدد	ايفـر شاتزمان
رحلة فاسـكو داجاما	فاسكو داجاما
التفكير المتجـــدد	ادوارد ديبونو
ما هى الجيولوجيا	ويليـام هـ . • ماثيوز
الحمـر والبيض	جارى ب • ناش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/١٩٣٣

ISBN .. 977 .. 01 .. 4663 .. 3

قام الأمير النمساوي رودولف برحلته لمصر والقدس في أواخر عهد الخديوي إسماعيل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف معظم المدن المصرية وأشار إشارات مفيدة للآثار ونشر ترجمات رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعد مغادرته مصر توجه إلى حيفا ومنها زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدى إعجابا بروح التسامح في القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدى رأيه فيها

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب